تأثير الحضارة العربيّة في الحضارة الغربيّة

د. مصطفى الرافعي
الجامعة اللبنانية

تمهيد :

الحضارة تجسيد للنشاط العقلي عند الانسان ، وتاريخ الحضارة سجل لتطور هذا العقل ومدى فعاليته في مختلف نواحي الحياة، من سياسية واجتماعية واقتصادية وادارية وحربية وعمرانية . ودراسة هذا التاريخ تتناول الى جانب ذلك وسائل انتاج الانسان ومستوى معيشته وفنونه الجميلة ، ومعتقداته الدينية وأساطيره وعلومه وآدابه ووسائل كفاحه المستمر مع الطبيعة من أجل البقاء .

وذلك يعني ان هذا التاريخ لم يعد كما عرفه المؤرخ الانكليزي « ادوارد فريمان » بقوله :

« انه تاريخ السياسة الماضية » بل ان التاريخ بمجمله اضحى ، بحسب النظرة التطورية الحديثة ، هو بالذات تاريخ الحضارة .

والحضارة فعل نام متحرك كالكائن الحي ، تولد ثم تحبو طفلة طرية العود ، حتى اذا أشتد ساقاها واينعت ، بدأ عهدها المزدهر أو شبابها المعطي ، وتكون في هذا الطور في ابان خصبها . فاذا استنفدت طاقتها المخزونة بدأت تنحدر نحو الهرم والشيخوخة ، وبدأ عطاؤها يشح وينضب ، الى أن تنقرض .

في كل حضارة بلا شك بذرة بقاء ، هي الارث الحضاري الذي تتركه وراءها ، وهذا الارث مشاع كالهواء ، يمكن لكل أمة ان تفيد منه ، كما يمكن لكل حضارة نامية ان تتفاعل معه وتجعله لبنة في بنيانها .

ولعله من حسن حظ الانسانية ان يكون الامر كذلك ، لان الحضارة المنغلقة على ذاتها لا يمكن ان تعطي الانسانية شيئا ، فهي مبتلاة بالعقم لان جوهرها يفتقر الى بذرة البقاء .

والتفاعل بين الحضارات أمر لا مفر منه ، فهو مظهر من مظاهر عدوى التقاليد ، وانفتاح كل حضارة على التاريخ . وأشد مايكون هذا التفاعل حين تكون الحضارة الناشئة في دور الاقتباس والتلقي ، فاذا ما تجاوزته الى دور الهضم والتمثيل ،

استحال ما اخذته الى دم قوي نشيط يساعدها على بدء عملية الخلق والابداع ، هذه العملية التي تعطيها طابعها الخاص وشخصيتها المميزة ، ككائن مستقل واضح الخصائص .

والحضارة العربية واحدة من تلك الحضارات المنفتحة على التاريخ . انها من الحضارات الشاملة التي تأثرت بها شعوب مختلفة ، ولعبت دورها المجيد في سير الحضارة البشرية ، وهي ، عدا عن كونها امتدادا لحضارة اليونان والرومان، ذات شخصية متميزة ، مدت ظلها على الشرقين ، الادنى والاوسط ، وتجاوزتهما الى بعض أوروبا ، وكان لها أثرها الفعال في بعث النهضة الاوروبية الحديثة .

ولو لم يكن للحضارة العربية الا دور الوسيط الذي حمل الى الغرب أنفس ما في التراثين اليوناني والروماني ، لكفاها ذلك فخرا ، ولجنبها تهمة الشح في العطاء،التي يحاول بعض المتجنين على التاريخ الصاقها بها .

قال غوستاف لوبون : « لقد انشأ العرب بسرعة ، حضارة جديدة ، كثيرة الاختلاف عن الحضارات التي ظهرت قبلها ، وتمكنوا بحسن سياستهم من حمل أمم كثيرة على انتحال دينهم ولغتهم وثقافتهم ، ولم يشذ عن ذلك أقدم الشعوب كالمصريين والهنود الذين رضوا أيضا بمعتقدات العرب وعاداتهم وفن عمارتهم » ..

وقال : « ان الامم التي غابت عن التاريخ لم تترك غير اطلا لوصارت اديانها ولغاتها وفنونها ذكريات ، أما العرب فما زالت عناصر حضارتهم باقية حية » .

ويقول صاحب كتاب « اعتذار الى محمد والاسلام » : يجب ان نعترف بان علوم الطبيعة والفلك والفلسفةوالرياضيات التي انعشت اوروبا منذ القرن العاصر مقتبسة عن القرآن .

ولعل هذا الباحث لم يخطيء الصواب اذا علمنا ان الله قد افتتح هذا القرآن الكريم الذي هو كتاب العرب الاول والذي انزله على خاتم انبيائه ورسله محمد ﷺ بكلمة « اقرأ » وان أول قسم أقسمه الله كان « بالقلم » « ن والقلم وما يسطرون » .

وان المتتبع لآيات القرآن يجد انها حوت ما يربو على ٧٥٠ آية شملت معظم العلوم المعروفة في زماننا .

فنجد علم القانون في قوله : « ولكم في القصاص حياة يا أولي الالباب» . ونجد علم التجارة في قوله: « واحل الله البيع وحرم الربا » ونجد فنون صناعة الكتابة في قوله : «ن.والقلم ومايسطرون» ونجد علم البيان في قوله : « الرحمن علم القرآن خلق الانسان علمه البيان » . ونجد النجارة في قوله : « واصنع الفلك بأعيننا ووحينا » . ونجد الغوص واستخراج المعادن في قوله : «وتستخرجون منه حلية تلبسونها » . ونجد الملاحة في قوله : « وترى الفلك مواخر فيه » . وعلم الزراعة في قوله : «افرأيتم ما تحرثون ؟ » . وعلم الاختراع في قوله : « علم الانسان مالم يعلم » وعلم الفلك في قوله : « لا الشمس ينبغي لها ان تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون » . وعلم الجيش والجندية في قوله : « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة » . وفن التجميل في قوله :

«خذوا زينتكم عند كل مسجد» • وصناعة الزجاج في قوله « قال انه صرح ممرد من قوارير » • وصناعة الفخار في قوله : « فاوقد لي يا هامان على الطين » • وعلم النفس في قوله : « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » • وعلم التاريخ في قوله : « ذلك من انباء الغيب نوحيه اليك » • وعلم الآثار في قوله : « قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الارض فانظروا كيف كانت عاقبة المكذبين » •

افصاح :

لا شك ان الباحث المنصف في تاريخ الامم ، ونهضات الشعوب ، يقف حيال تاريخ الامة العربية ، ونهضتها موقف المتأمل الخاشع ، لما وصلت اليه هذه الامة ، في حضارتها الزاهرة ، ومدنيتها العامرة ، التي اظلت الانسانية بظلالها الوارفة ، ونعمت فيها بالحرية والكرامة ، والامن والسلام ، من تعاليم رشيدة ، وسياسة حكيمة ، وعناية بالعلوم والمعارف على اختلافها •

ذلك لان العرب هم الذين اسهموا بأموالهم وعقولهم في البحث والتحصيل ، حتى اظهروا خافيها ، وذللوا الصعب منها ، وأصبحت – في عهودهم المزدهرة – دولة قائمة للعلوم والمعارف – ومن هنا كانوا زينة الدنيا ومعجزة العالمين – منهم الاساتذة الاولون الذين تتلمذ على أيديهم علماء الغرب ، وحج الى معاهدهم طلاب الفلسفة ، وعشاق الحكمة • يدل على ذلك ، هذه الآثار الشاهدة بمآثرهم الناطقة بحضارتهم ، في مصر والشام والاندلس وايران وما وراء النهرين وافغانستان وطبرستان ، وغيرها من البلاد •

يقول « روبرتسون » : في الزمن الذي كان فيه العرب يبحثون العلوم المختلفة ، ويتدارسونها ، وينشرونها على الناس ، كان أهل أوروبا في جهل مطبق ، وسبات عميق ، ولم يستفيقوا الا بعد الحروب الصليبية ، لانهم حينئذ اختلطوا بالعرب والمسلمين ، فوجدوا لديهم علوما لم يعرفوها الا بهم ، وحضارة اقتبسوها منهم وادخلوها الى بلادهم •

ويقول «دارير» أحد علماء امريكا المشهورين « لقد تأخذنا الدهشة اذا نظرنا في كتب العرب ، فنجد فيها اراء نعتقد انها لم تولد في زمننا هذا ، كالرأي الجديد في ترقي الكائنات العضوية وتدرجها في كمال انواعها ، فان هذا العلم علمه العرب قديما في مدارسهم ، وذهبوا فيه الى أبعد مما ذهبنا اليه » •

ويقول « توماس كارليل » المستشرق الانجليزي لقد اخرج الله العرب بالاسلام من الظلمات الى النور،واحيا به أمة خاملة ، لا يسمع لها صوت ، ولا تحس منها حركة ، منذ بدأ العالم فأرسل الله نبيا بكلمة من لدنه،ورسالة من قبله، فاذا الخمول نباهة ، والغموض قد استحال شهرة ، والضعة رفعة ، والضعف قوة ، والشرارة حريقا ، وسع نوره الانحاء ، وعم ضوؤه الارجاء ، وعقد شعاعه الشمال بالجنوب ، والشرق بالغرب، وما هو الا قرن بعد هذا الحادث حتى صار لدولة العرب رجل في الهند ، ورجل في الاندلس،واشرقت دولة الاسلام حقبا عديدة ، ودهورا مديدة ، بنور الفضل والنبل ، والمرؤة والنجدة ، ورونق الحياة والهدى على نصف المعمورة •

والحق ما قاله هذا المستشرق المنصف ، وهو

ان العرب لم يبلغوا ذلك الا بالاسلام وتعاليمه التي كان بها اتباعه خير أمة أخرجت للناس ، تقيم للعدالة ميزانها ، وترفع للحق مناره ، وتغرس للدنيا دولة تمتد شرقا وغربا ، وشمالا وجنوبا ، حيث لا حروب ولا قلاقل ، ولا ظلم ولا تناحر وانما هو الامن والسلام،والحياة والاستقرار والتعارف والرحمة (يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثىوجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا) ٠

وفي دراستنا هذه ، قبس من هذا النور ، وضياء من هذا الوهج اللامع ، الذي وهب الدنيا القوة والعافية ٠

تأثير الحضارة العربية في الحضارة الغربية :

لقد عني المنصفون من مؤرخي الغرب وباحثيه بتبيان الاثر العظيم الذي تركته الحضارة العربية في الحضارة الاوروبية ، وبما ان اثبات جميع ما قالوه في هذا الموضوع غير ممكن ، فاننا سنكتفي هنا بتلخيص ما ذكره العلامة «غوستاف لوبون » في كتابه « حضارة العرب » حول هذه النقطة ٠

يرى العلامة المنصف ان الحروب الصليبية لم تكن السبب الذي ادى الى دخول العلوم الى أوروبا ، بل ان هذه العلوم انما دخلت عن طريق اسبانية وصقلية وايطالية ٠ ففي عام ١٤٣٠ م انشىء في طليطلة ، وبرعاية رئيس اساقفتها « ريمون » ، مكتب للترجمة يعنى بنقل أهم كتب العرب الى اللاتينية ٠ ولقد نجح هذا المكتب في مهمته ، ولم يقتصر النقل على مؤلفات علماء العرب « كالرازي » و « أبي القاسم » و « ابن سينا » و « ابن رشد » بل تعداها الى كتب اليونان التي ترجمتها العرب ككتب جالينوس وابقراط وافلاطون وارسطو واقليدس وارخميدس وبطليموس ٠

وقد روى الدكتور (لوكلير) في كتابه «تاريخ الطب العربي » ان ما ترجم من كتب العرب الى اللاتينية يتجاوز الثلاثمائة كتاب ، وان القرون الوسطى لم تعرف كتب قدماء اليونان الا من ترجماتها العربية ، ولم يكن يقدر للغرب لولا العرب ـ ان يطلع على كتاب « ابولونيوس » في المخروطات ، وكتات جالينوس في الامراض السارية ، وكتاب ارسطو في الحجارة الخ ٠٠

وقال مسيو ليبري : « لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة اوروبا الحديثة عدة قرون » ٠

وعلى كتب العرب وحدها اعتمد علماء الغرب بعد القرن الخامس عشر كروجر بيكن وليونارد البيزي ، وارنود الفيلنوفي ، وسان توما ، والبرت الكبير ٠ وهذان الاخيران مدينان بكل قيمتهما العلمية لابن سينا وابن رشد ، وقد اوضح هذه الحقيقة واعلنها مسيورينان حين قال :

« ان البرت الكبير مدين لابن سينا ، وسان توما مدين في فلسفته لابن رشد » ٠

ومن الثابت ان جامعات اوروبة ظلت أكثر من ستة قرون تغتذى بكتب العرب العلمية التي ظلت وحدها مادة التدريس فيها ، كما ان الطب الغربي ظل حتى أواخر القرن الماضي عالة على ابن سينا ٠

وفي فن العمارة تأثر الغربيون بالعرب الى حد بعيد ، وما تزال البيوت في اشبيلية وقرطبة تبنى

على الطراز العربي ، ولا يزال الرقص والموسيقى فيها على الطريقة العربية ٠

بـدء التدوين :

التدوين بمعنى تصنيف الكتب ، لم يظهر الا بعد العهد الاسلامي الاول ، لان المسلمين كانوا حتى اواخر العهد الاموي يعتمدون في نقل العلم على الحفظ والذاكرة ، ولم يكن عندهم كتاب مدون سوى القرآن ٠ ويرجع السبب في ذلك الى عوامل مختلفة ، فمن الرواة من يزعم ان بعض الخلفاء لجأوا الى منع التدوين خشية ان يصرف الناس نشاطهم اليه ، ومنهم من يعلل ذلك بان المسلمينكانوا يعتقدون في تلك المرحلة منحياتهم الفكرية ان العلوم والكتب المدونة لا لزوم لها مع وجود القرآن ، في حين يرى آخرون ان حركة التدوين لم تنشط لان المسلمين كانوا لا يزالون قريبين من عهد النبوة ، وكانت علومهم ، مازالت ضعيفة لا تخرج عن نطاق القرآن وتفسيره ورواية الحديث ٠

على انه ما كادت تستقر احوال المسلمين في البلاد المفتوحة ، حتى تغير الحال وانصرفوا الى التدوين في العصر العباسي لعلومهم ولغتهم ٠

وقد اختلف في أول من الف الكتب ودون الاخبار ، غير ان ابن النديم يشير الى ان عبيدا الجرهمي الذي عاش في القرن الاول الهجري هو أول من دون اخبار ملوك العرب والعجم ، وان مجاهد بن جبير هو أول من دون كتابا في التفسير، ووهب بن حنين ١١٦ هـ ، هو أول من كتب التاريخ والمغازي ٠

ولا شك ان الغاية من تدوين الحديث كانت حفظه من الدس ، بعد ان شاع الوضع وكثرت الاحاديث الموضوعة ، التي لجأ الى وضعها اصحاب المذاهب السياسية ليدعموا بها اراءهم في خلافاتهم الحزبية مع خصومهم ٠

وحركة التدوين المنتظم للحديث التيازدهرت في القرن الثالث للهجرة ، تمتاز عن تلك التي نشأت في القرن الثاني بان تدوين الحديث فيها كان مقصورا لذاته ، في حين أن تدوين الحديث في الاول كان يجري عرضا اثناء تدوين كتب الفقه أي ـ ان الفقه هو الذي كان مقصودا منها ـ لا الحديث ٠

أما فيما يتعلق بالفقه ، فلم يطرأ عليه في العهد الاموي الا تطور طفيف ، فالمعروف ان الخلفاء الراشدين يرجعون في أحكامهم الى القرآن والسنة ويجتهدون بآرائهم ، ويلجأون الى القياس ٠ فلما انتشر كبار الصحابة في البلدان التف حولهم طلاب العلم ، يستمعون الى آرائهم ويحفظون عنهم ، فنشأت عنذلك مدارسفقهية، تمخضت في أواخر القرن الاول عن مدرستين مشهورتين ، مدرسة الحجاز ومدرسة العراق ، وتتميز الاولى بتقيد أصحابها بالحديث دون الرجوع الى الرأي الا نادرا ، في حين تتميز الثانية باستعمال الرأي أيالاجتهاد لحل كثير من المشاكل دون الرجوع الى الحديث الا قليلا ٠

أما العلوم الانسانية والاجتماعية فلم تتطور في العصر الاموي ولم تتغير كثيرا عما كانت عليه في العصر السالف ٠ والتطور القليل الذي سجلته انما كان بتأثير القرآن والحديث ، اللذين وحدا اللهجات وهذبا الفاظ العربية وادخلا عليها مصطلحات جديدة٠ وبتأثير الفتوحات والتنظيمات

الادارية التي استلزمت ادخال كلمات جديدة استعربت واستعملت بدافع الحاجة اليها • ولم تزدهر هذه العلوم ـ وخاصة الاجتماعية منها كالتاريخ والجغرافيا وعلوم الاوائل كالطب والكيمياء والفلسفة والرياضيات والفلك والمنطق ـ الا في العصر العباسي ، عندما بلغت الحركة الفكرية عصرها الذهبي •

أما الشعر والنثر فقد تطور تطورا ملموسا ، فكانا صورة لتطور المجتمع الاموي ، هذا المجتمع الذي نشطت فيه العصبيات، وشجرت الاختلافات ونشأت الفرق وتضاربت السياسات •

فالشعر أصبح سلاحا سياسيا ، ووسيلة من وسائل الدعاية • وقد غالى الخلفاء والامراء من أجل ذلك، فيتشجيع الشعر والشعراء لاستخدامهم في أغراضهم السياسية ، وتأييد وجهات نظرهم وحزبياتهم • ورجعة واحدة الى تاريخ الادب العربي ، تبين لنا اثر الشعراء الثلاثة الامويين (الاخطل وجرير والفرزدق) في التوجيه السياسي آنذاك ، وفي توجيه الحرب الكلامية التي كانوا يعملون على اذكائها •

غير اننا اذا التفتنا الى الحجاز نتفقد حالة الشعر فيه ، واثر السياسة في هذا الشعر لوجدنا ان وضعه في هذا القطر يختلف تماما عنه في الاقطار الاخرى ، فالامويون الذين نقلوا مركز الحياة السياسية من مكة والمدينة الى دمشق ، كان همهم الوحيد اقصاء أهل الحجاز عن السياسة وصرف انظار ابناء الاشراف والمهاجرين والانصار والغزاة عنها ، وذلك خوفا على نفوذهم وسلطانهم •

وعملا بهذه السياسة اتاحوا للحجاز حياة مترفة هادئة ، فاذا هذه الحياة لا تلبث ان تعطي ثمارها ، ومن ثمارها ذلك الشعر الغزلي الرقيق الذي تحول فيما بعد الى مجون ، ومن أشهر شعراء هذا العصر : عمر بن أبي ربيعة القرشي والاحوص الانصاري •

أما الغزل الشريف البعيد عن الفحش ، فقد نما في بادية الحجاز ، ونشأ في بني عذرة وخزاعة، ومثله ، في عصر بني أمية ، جميل بثينة وكثير عزة •

وأما طابع هذا الشعر على نوعيه : البريء والماجن ، فهو طابع الشعر الجاهلي وشعر صدر الاسلام مع فارق واحد ، هو عذوبة في الشعر الاموي ، ورقة لم تتوفر لشعر العصور السابقة ، وألفاظ واشتقاقات لم تعرف من قبل ، وتجديد في بعض الصور الشعرية اقتضته طبيعة الحياة ، ومتطلبات الثقافة ، وحيوية المجتمع •

واذا ألقينا نظرة على حالة النثر في العهد الاموي ، فاننا نلاحظ تطورا ملموسا ، ابرزته احداث الجزيرة العربية ، وافضت اليه فتوحات المسلمين وانصرافهم الى دراسة القرآن وتأثرهم به ، واهتمامهم بحفظ الاحاديث ، وتنافسهم في احياء تراث الجاهلية ، وقد ظهر هذا التنافس في العصر الاموي بعد ان بعثت العصبية القبلية ، التي خنقها العهد الاسلامي الاول وقضى عليها •

كانت الكتابة في العصور السابقة تتميز بالبساطة والايجاز ، فتنوعت أساليبها في عصر بني أمية ، وتعددت طرقها وأغراضها ، وتأنقت الفاظها ورقت ، حتى اصبحت فنا خاصا ، له نظمه وقواعده • ونشأت على أثر ذلك دواوين الكتاب • واشتهر من ناثري ذلك العصر ، عبد

لحميد الكاتب (١٣٤ هـ) وعبد الله بن المقفع (١٤٣ هـ) ٠

وكما كان الشعر سلاحا ماضيا تستخدمه الاحزاب والعصبيات في صراعها السياسي ، فان النثر استخدم عن طريق الخطابة للدعايات السياسية ، واعتمد وسيلة للتفاخر والتفاضل في الصراع القائم بين الشيعة والزبيرية والخوارج والامويين ، واليمنية والعرب والشعوبيين ، وعلى الاخص الفرس ٠

واذا استعرضنا خطباء ذلك العصر ، لعددنا في طليعتهم معاوية وعبد الملك وعمر بن عبد العزيز ، والحسين وابن الزبير وابن الاشعث والمهلب والحجاج وخالد القسري، والمختار الثقفي، وقتيبة بن مسلم ، وسحبان بن وائل ٠

ثم في العصر العباسي أصبحت اللغة العربية، نظرا للتطور الذي أصاب المجتمع ، بحاجة الى تطوير وتهذيب ، وتوسيع ، وضبط ، خصوصا بعد ان أستقر العرب في الاقطار التي افتتحوها ، وخالطوا الاعاجم واحتكوا بهم ، وأصبح هؤلاء يشكلون مجموعة لا بأس بها من سكان البلاد ٠

كانت اللغة العربية في هذا الدور شائعة في البلاد الفارسية ، وظلت تنتشر في هذه البلاد وتمتد ، فكان من أثر ذلك ان تأثرت بالمفردات والتراكيب الاعجمية ولجأ العرب الى اشتقاقات جديدة استدعتها التطورات الجديدة والحاجات الجديدة ٠

وقد نبغ في علوم اللغة والنحو ، الخليل بن أحمد الذي هذب صناعة النحو ونظمها ٠ وسيبويه الذي أخذ عن الخليل ، وكمل ما لم يكمله سلفه ، فوضع مؤلفه المشهور « الكتاب » ٠

وقد ازدهرت علوم اللغة ، وبخاصة النحو في مدينة البصرة ، ثم انتقلت زعامة هذه العلوم الى الكوفة ، فظهر الكسائي في القرن الثالث ٠

وكانت حركة الأبداع في النحو قد ركدت ، وأصبح الاهتمام مقصورا على الشرح والتلخيص٠

والجدير بالذكر ان الخليل بن أحمد هو أول من وضع المعاجم ، اذ وضع معجمه المعروف (كتاب العين) وهذا المعجم هو أول معجم في العربية ٠ولم تظهر بعد هذا المعجم معاجم جديدة الا بعد مدة قرن ٠ اذ ألف أبو بكر بن دريد معجم « الجمهرة في اللغة » ٠

وكان من الطبيعي ان تزحف العجمة ، وما يتبعها من ركاكة واضطراب بلاغي الى الشعر ، فأخذ الشعراء عن الاوزان العربية ، التي وعتها الاذن العربية ، فهب بعض رجال اللغة وأولهم الخليل لحماية الاوزان القديمة ، وضبطها ، فكان ان وفق الى استخراجها وحصرها وجعلها ١٥ وزنا، ثم جاء الاخفش فتدارك النقص وزاد بحرا جديدا وسماه « المتدارك » فأضحت بحور الشعر ستة عشر بحرا ٠

وقد ادرك رجال اللغة مخاطر الركاكة التي طرأت على الاسلوب العربي نتيجة للمؤثرات الخارجية ، وادركوا كذلك العقبات التي تحول دون تذوق الاساليب العربية ، وضرورة اظهار بلاغة القرآن ، واقناع الاعاجم بها ، للرد على الزنادقة ، فكان من أثر ذلك ان بدأت الابحاث البلاغية تظهر على يد أبي عبيدة معمر بن المثنى ، ثم الجاحظ وسواهما ٠ ولكن الجهود المبذولة في هذا المضمار لم تثمر ثمرتها المرجوة الا في القرن الخامس الهجري على يد عبد القادر الجرجاني ، صاحب

كتابي « دلائل الاعجاز ، واسرار البلاغة » .

الشعر :

ساعد تطور الحياة الاجتماعية على تطور الشعر العربي في العهد العباسي وأسهم في تطور هذا الفن ايضا اهتمام الخلفاء واحتفاؤهم بالشعراء ، واقامتهم المواسم السنوية لالقاء القصائد ومنح الجوائز ، وقلدهم في هذا النهج الامراء والولاة .

وقد ادى احتكاك الثقافتين العربية والفارسية الى اتساع آفاق الشعراء العرب ، واكتسابهم الكثير عن الادب الفارسي ، وكان ذلك أما عن طريق درس هذا الادب بصورة مباشرة ، واما عن طريق الاحتكاك بالادباء الفرس ، أو لكون بعض الشعراء في هذا العصر من أصل فارسي .

أما مواضيع الشعر ، فكانت صدى لحياة هذا المجتمع الجديد وتطوراته ، كالعصبية القبلية ، والعنصرية والحزبية . وهنالك عوامل أخرى تركت أثرها في شعر هذا الدور أهمها :

١ ـ الحياة المترفة الماجنة التي كانت ذات أثر بعيد في الناحية الوصفية من الشعر ، وما يرافق هذه الحياة من مجالس شراب ، وغناء ، وجواري ، وقيان .

٢ ـ الثراء الفاحش الذي كان يغرى الشعراء بمدح الخلفاء والولاة والامراء طمعا في عطائهم . وقد أدى ذلك الى ظهور التكلف في الشعر ، وتحوله في كثير منه الى صنعة .

وأشهر شعراء هذا الدور ، بشار بن برد ، وأبو نواس ، وأبو العتاهية ، ومسلم بن الوليد .

النثر :

أما النثر فانه قد تطور أيضا ، بفضل العوامل التي ذكرناها ، وبما ترجم عن الفارسية من آثار أدبية ، وما نقل عن اليونانية من المسائل العقلية المنقطية . وكان لتطور الادارة أثر كبير في تطور النثر . ومن مظاهر ذلك نشوء الاسلوب السهل المرسل ، بعد ان كان الاسلوب المتبع هو أسلوب الايجاز البليغ ، وسبب ذلك ان هذا الاخير لم يعد يفي بمتطلبات الحياة الواسعة الشاملة .

وقد تأثر النثر العربي بالنثر الاجنبي ، ويمثل هذا التأثير الظاهر ابن المقفع ، الذي عاصر المنصور ، والذي يعتبر أمام النثر في زمنه ، وكتابه « كلية ودمنة » خير دليل على التفاعل الثقافي ، بين العرب وسواهم .

ومن كتاب هذا الدور طاهر بن الحسين ، وهو من كتاب المأمون .

وكانت الكتابة على نوعين : الكتابة الادبية ، أو كتابة الترسل ، وهي التي كانت تصدر عن ديوان الرسائل في الدولة ، وتدعى بالرسائل السلطانية ، والرسائل الاخوانية ، التي كانت تتبادل بين الاصدقاء في المناسبات وقد ظهرت أولا في العصر الاموي ، ثم الرسائل الادبية ، وهي التي كان يكتبها البلغاء في الاخبار والسير والقصص ، أو في أي شأن من شؤون الدولة ، أو في النصح والتوجيه والارشاد ، كرسالة الصحابة لابن المقفع ، ورسائل الجاحظ ومؤلفاته الكثيرة كالبخلاء والحيوان والبيان والتبيين .

وهذه الكتابة الادبية ادخلت باديء الامر على دواوين الدولة في أواخر العهد الاموي ، على يد عبد الحميد الكاتب ، ثم انتقلت الى

العصر العباسي ، ونمت ونضجت ونبغ فيها كثيرون ، اشهرهم : يحي بن خالد البغدادي ، والصاحب بن عباد ، وابن العميد ·

وكذلك أدخل في هذا الدور التسجيع في المراسلات ، ثم ادخلت المقامات في أواخر القرن الرابع على يد بديع الزمان الهمداني ، ثم الحريري ·

الخطابة :

أما الخطابة ، فقد كان لها الصدارة في العهد العباسي لانها كانت أحدى الدعائم التي ساعدت على تثبيت حكم العباسيين وسلطانهم · وقد ازدهرت في العصر العباسي الاول ولكنها عادت وتقهقرت بعد ذلك ، واشهر خطباء العهد الاول : السفاح والمنصور والرشيد وجعفر الصادق والنفس الزكية : « محمد بن ابراهيم » ·

التاريخ والجغرافيا :

كان العرب الاوائل في الجاهلية يتناقلون الحوادث التاريخية شفاها ، وكذلك الاحداث الطبيعية التي تترك اثرها في الحياة العربية كانهيار سد مأرب ، أو عن القبائل الغابرة كعاد وثمود وسواهما ·

وقد كانوا يحيكون حول هذه الحوادث الاساطير والخرافات ، فاذا هي مزيج من الحقيقة والخيال ·

وكذلك كان العرب في جاهليتهم يتناقلون الاخبار عن حروبهم وانسابهم ، ويسهم في هذا النقل شعراؤهم · وعندما بزغ فجر الاسلام ظهرت المحاولات لتأريخ السيرة والمغازي ، وظلت الجهود في عصر الخلفاء الراشدين منصبة على هذا الموضوع ، ولم تظهر أية محاولات في تأريخ أعمال الخلفاء الراشدين، وبطولات القواد الذين وجهوهم لفتح البلاد ، ونشر الدعوة ·

وفي العهد الاموي ، بدأ العرب يعنون بتدوين التاريخ على شكل ضيق النطاق ، بطيء الخطى ، ولم ينضج هذا العلم ويتوسع ويثمر الا في العصر العباسي ، حيث ظهرت المؤلفات التاريخية بكثرة، ولعل أهم الدوافع لذلك هي :

١ ــ رغبة العرب في معرفة ما ضيهم وتدوين احداثه ·

٢ ــ تأثير شخصية الرسول واهتمام المسلمين باخباره وأحاديثه ، لتكون مرجعهم في تنظيم حياتهم الدينية والمدنية ·

٣ ــ الرغبة في تحقيق الانساب ، لان الرغبة في حفظ هذه الانساب وتناقلها والمفاخرة بها قد انتقلت الى العهود الاسلامية ، فأضيفت الى مفاخر الاجداد الجاهليين ، مفاخر اسلامية جديدة سجلها السابقون في الجهاد ، والاستشهاد · وقد قويت هذه الرغبة بعدما فرض عمر بن الخطاب توزيع العطاء وتقسيمه على المسلمين بالنسبة لدرجة قرباهم من النبي أو لسبقهم في الاسلام ، أو لجهادهم تحت رايته ·

٤ ــ رغبة بعض الخلفاء في الاطلاع على أخبار الامم الغابرة ، قصد الاقتباس منها ، واستخلاص ما يمكنهم تطبيقه ، والعمل على منواله ·

٥ ــ الصراع السياسي بين الاحزاب والفرق المختلفة ، لا سيما بين العرب والعجم ، بعد ان نشأت حركة الشعوبية ، وبدأت كل فئة تعتز وتباهي بمآثرها ،كما كانت الفرق الاسلامية تحرص

على حفظ ذكرها وأعمالها وتاريخها ، لا سيما الشيعة ٠

٦ - الرغبة في فهم الادب العربي القديم ٠

٧ - الرغبة في كسب عطف ملك أو خليفة أو وزير أو أمير ، اذ كان بعض كتاب السيرة يسجلون سيرة سلطان ما ، كما فعل الضبي في كتاب سيرة السلطان محمود الغزنوي ٠

٨ - النزعة النقلية في العلوم العربية التي دفعت العلماء العرب الى الاهتمام بالاسناد ، الامر الذي حملهم على البحث في سير الرجال وتقسيمهم الى طبقات ٠

٩ - نضج الحياة العقلية الادبية ، الذي أدى الى أزدهار العلوم العربية على اختلافها ، ومنها التاريخ الذي أهتم به العرب اهتماما ملحوظا ٠

الطب :

كان فن الطب شائعا عند الامويين ، وقد اشتهر فيه كثير ، ومعظمهم من الذميين ٠ وكثيرا ما كان الخلفاء يعتمدون على اطبائهم في التخلص من اعدائهم السياسيين ٠

أما في العصر العباسي ، فقد ازداد هذا العلم وكثر الاطباء ، وزاد أكرام الخلفاء لهم ، والمنصور أول من أدخل اطباء نيسابور الى بغداد ٠ وكان يبالغ في حفاوة طبيبه الخاص جرجس بن بختيشوع ، والرشيد كان يدعو لطبيبه جبرائيل ابن بختيشوع في صلاته ، ويروى ان هذا الطبيب أثرى اثراء فاحشا في عهد الرشيد ، حتى ان ثروته كانت تقدر بنحو ثمان وثمانين مليون درهم ٠ ولما مات سلمويه طبيب المعتصم ، بكاه الخليفة وحضر جنازته ٠

وعلى الجملة ، فقد ظهرت مواهب الاطباء غنية خصبة خلال العصر العباسي ، واثروا بمؤلفاتهم المكتبة العربية وظلت هذه المؤلفات مصدرا ومرجعا تعتمد عليه الجامعات الاوروبية في تدريس هذه المادة ، ونبغ فيهم أمثال الرازي الذي بحث في الحميات ذات البثور ، كالحصبة والجدري وأمراض الاطفال وعلم التشريح ، وعلي ابن العباس الذي كتب في الطب النظري والطب العملي ، والرئيس ابن سينا الذي ذكر عدوى السل الرئوي وكيفية انتقاله ، ووصف اعراض حصى المثانة وحصى الكلية ، كما ذكر عن تشخيص الامراض العصبية ما يلي : « ان المبادىء التي منها نسير الى معرفة أحوال الدماغ هي من الافعال الحسية ، والافعال الحسية اعني التذكر والتفكير والتصور وقوة الوهم والحدس ، والافعال الحركية ، وهي أفعال القوة المحركة للاعضاء بتوسط العضل ، ومن كبر الرأس وصغره ، ومن جودة شكله ، ومن ثقل الرأس وخفته ، ومن حال لون العين وعروتها ، وسلامتها ومرضها وملمسها ، ومن حال النوم واليقظة ، ومن حال القوى والافعال في الاعضاء المشاركة للدماغ مثل الرحم والمعدة والمثانة » ، كما يوجد لابن سينا بحث مستفيض في البول ٠

وقد نقلت كتب هذا النطاسي البارع الى أكثر لغات العالم ، وظلت مرجعا عاما للاطباء ، وأساسا للمباحث الطبية في جامعات فرنسا وايطاليا طوال ستة قرون ٠ ولم ينقطع اطباء جامعة مونبلييه عن شرح نظرياته وتدريس كتبه الا منذ أقل من قرن ٠

الجراحة :

ان أبا القاسم القرطبي هو أشهر جراحي العرب : وهو الذي اخترع كثيرا من آلات الجراحة ورسمها في كتبه ، والذي قال فيه العالم الطبيعي الكبير (هلر) : كانت كتب أبي القاسم المصدر العام الذي استقى منه جميع من ظهر من الجراحين بعد القرن الرابع عشر :

أما الآلات الجراحية التي كانت تستخدم في العصر العباسي فهي :

أولا : المبضع : ويستعمل لقطع اللحم عامة ·

ثانيا : الصنارة · وتستعمل للجذب ·

ثالثا : المشرط : ويستعمل لقطع اللحم الزائد في الانف ·

رابعا : المحك · ويستعمل لحك الاجفان ·

خامسا : المسعط : ويستعمل لتقطير الادهان في الاذن ·

سادسا : المشرط : ويستعمل لشق الاورام ·

سابعا : المثقب : ويستعمل لثقب الحصاة وتسليك البول ·

ثامنا : المكبس : ويستعمل لكبس اللسان بغية رؤية الحلق ·

الوقاية :

هذا وقد عرف في هذا العصر علم الوقاية فانشئت المصحات واقيمت المرستانات ، وبرع الكثير من اطبائه في الصيدله وتحضير العقاقير الطبية من اشربة وكحول ومستحلبات · وكان ابن سينا أول من غلف الحبوب · والصيادلة منذ عصر المأمون يخضعون للتفتيش المستمر والمراقبة الشديدة ·

والكتب التي وضعت في هذا الفن كثيرة : نذكر منها : (الادوية المفردة) للغافقي و (المغنى في الادوية المركبة) لابن البيطار . وكذلك (الجامع لمفردات الادوية والاغذية) الذي حوى أكثر من الف وأربعمائة علاج بين حيواني ونباتي ·

الفلك والكيمياء :

لقد برع العرب في الفلك ، فاقاموا المراصد في دمشق وسمرقند والقاهرة وفارس وطليطلة وقرطبة · وتوصلوا الى نتائج علمية لم يتوصل اليها العلم في أوروبا الا بعد الف سنة ، ونبغ منهم في هذا العلم كثير من أمثال البتاني والفرغاني وأبناء موسى بن شاكر والبيروني ·

تعلم العرب في هذا العصر الاغريقية والاسبانية ونقلوا عنهما ، حتى اذا اشتد عودهم وعملوا ما نقلوه ، بدأت شخصيتهم العلمية تظهر وتنمو · ولم يلبثوا كما يقول غوستاف لوبون « ان ادركوا ان التجربة والترصد خير من أفضل الكتب ، فانطلقوا من قيود التلمذة لليونان · واخذوا يختبرون مسائل العلم ويجربونها » ·

قال (دولنبر) صاحب تاريخ علم الفلك · « اذا عددت بين الاغريق راصدين أو ثلاثة ثم نظرت الى العرب ، امكنك ان ترى بينهم عددا كبيرا من الرصاد » ·

وأما في الكيمياء ، فان خالد بن يزيد الاول المتوفى عام ٨٥ هـ ، هو أول من أدخل الكيمياء · وقد كان للامام جعفر الصادق آلمام في هذا العلم ، وقد علمه لتلميذه جابر بن حيان · ومن أشهر الكيميائيين في العصر العباسي ، الكندي والفارابي والزهراوي وابن سينا ·

ويقول غوستاف لوبون في هذا الصدد : « انك لا تجد عالما يونانيا استند في مباحثه الى التجربة ، مع انك تعد مئات من العرب الذين قامت مباحثهم الكيميائية على التجربة ، فجابر ابن حيان استاذ لـ (لافوازيه) أبي الكيمياء الحديثة » .

الفيزياء:

عرف العرب في هذا العصر الفيزياء والميكانيك ، واستغلوا مناجم الكبريت والنحاس والزئبق والحديد والذهب . واتقنوا فن الدباغة وتسقية الفولاذ ، وثبت علميا انهم هم الذين اخترعوا بارود المدافع السهل الانفجار .

الرياضيات :

تعلم العرب في العصر العباسي العلوم الرياضية الآتية :

الحساب بقسميه: التحريري الذي تستعمل فيه الادوات الكتابية ، والهوائي أي الذهني . وقد استعمل العرب الصفر والكسور العشرية ، وبحثوا في استخراج المجهولات بطرق مختلفة ، كاستخراجها بالتناسب وبحساب الخطأين وبطريقة التحليل والتعاكس . وهم الذين اخترعوا الجبر . وأول من ألف في هذا العلم الخوارزمي . كما طبق العرب الجبر في علم الهندسة . وبذلك جمعوا بين الهندسة والجبر ، وحتى اعتبروا واضعي الهندسة التحليلية . وألفوا كتبا كثيرة في المساحات والحجوم وتحليل المسائل الهندسية وتقسيم الزاوية الى ثلاثة أقسام متساوية ، وأضافوا الشيء الكثير على المثلثات ، حتى أضحى علما عربيا مستقلا .

الملاحة :

واقتحم العرب البحر فخاضوا عبابه ، واذلوا بأساطيلهم متونه ، واستخدموا في الملاحة البوصلة ، فكانوا بذلك أول من استخدم هذا الاختراع الصيني في أسفارهم .

الجيولوجيا :

وبحثوا في الجيولوجيا وتحولات الكرة الارضية وأعلن ابن سينا ان هذه التحولات انما هي نتيجة بطيئة تمت بتعاقب الدهور . وجاء علم الارض الحديث يثبت صحة هذه النظرية .

علم النبات :

كما بحث علماء العرب النباتات واستخدموا الكثير منها في أغراض طبية ، وانشأوا لها الحدائق وزرعوا فيها اندرها وأجودها .

الفنون الجميلة :

من المعلوم ان فن كل أمة يتأثر بالذوق الخاص الذي يعبر تعبيرا صادقا عن طبيعة هذه الامة وعواطفها وعن المؤثرات والمعتقدات والاوهام والخرافات والتقاليد التي مرت في حياة تلك الامة . كما يتأثر فنها ايضا بما ورثته عن غيرها من الامم السابقة .

والفن العربي قد تأثر بهذين العاملين : تأثر الى حد بعيد بتعاليم الاسلام من حيث اباحتها لبعض الفنون وتحريمها للبعض الآخر ، وكانت له بالتالي صلة قوية بفنون من قبل العرب من الفرس والبيزنطيين ، حتى أن كثيرا من العلماء حينما لاحظوا تلك الصلة زعموا انه ليس للعرب فن مبتكر . والحقيقة ليست كذلك ، لان أية أمة من الامم لا مندوحة لها من اقتباس بعض آثار الامم التي تقدمتها اذا أرادت أن تبلغ ذروة الابداع

الفني • وفي هذا يقول (باسكال) : أنه يجب عد سلسلة الادميين الذين ظهروا بتعاقب القرون انسانا واحدا حيا في كل زمان محصلا للمعارف على الدوام •

أجل لقد استفاد العرب والاغريق والرومان والعبريون والفينيقيون وجميع الأمم الغابرة من انتاج من سبقهم ، ولو اقتصر فن كل أمة على ما ابتكرته فقط ، دون الرجوع الى ما قد مضى، لكان الفن ناقصا عند الجميع ففن كل أمة اذا هو استمرار لما تقدم مضاف اليه بعض ما تزيده عليه • وبنسبة ما تكون هذه الزيادة جلية واضحة في فن أمة من الامم ، بنسبة ما يحكم على فنها بكونه مبتكرا أو غير مبتكر •

وان المتأمل بالرقي الفني الذي بلغه العرب في العصر العباسي خاصة ، لا يسعه الا الحكم بأن للعرب فنا مبتكرا ورثته الحضارة من بعدهم، وقلدتهم في أشياء كثيرة منه ، لا تزال آثارها جلية واضحة في كثير من ارجاء المعمورة •

١ ــ الفنون الصناعية :

وقد اتقن العرب من الفنون الجميلة ما يأتي :

وهذه تشتمل على صناعة الخزف والزجاج والصياغة والفسيفساء ، وهي شائعة في كل مكان في دنيا العرب ، وتتجلى في أنفس الادوات واثمنها التي لا تزال حتى اليوم تنسجم مع الذوق العربي، بل ومع غيره من الاذواق •

ليس أدل على ذلك من القصور الفخمة التي بناها الخلفاء والامراء في مدينة بغداد ، حيث كان اثاث هذه القصور المزدان بالرياش والفراش بالغ العظمة •

أما صنع التماثيل وصناعة التصوير فلم يكترث بهما العرب قبل هذا العصر ، وتجاهلوهما تجاهلا كليا في صدر الاسلام ، لان النبي صلى الله عليه وسلم حظر على المسلمين تصوير الالهة وذوات الحياة،وحارب الاصنام والتماثيل،وامعن في محاربتها ، وشنع على عبادها ، وكسر ما كان منها في الكعبة ، كما كره في التصوير والمصورين، الامر الذي حمل المسلمين الاولين على اشباع طبيعتهم الفنية بالالتجاء الى التفنن في الخط بدل التصوير وفي الذكر بدل الرقص ، وفي التجويد لآيات القرآن بدل الغناء • ولما كان الاسلام لم يحظر على المسلمين سوى تصوير الآلهة وذوات الحياة رأينا العرب قد اهتموا بتصوير الحيوان والنبات وصنعوا كثيرا من تماثيل الحيوانات الوهمية،التي صنعت في الواقع لغرض معين لا للفن نفسه ، مما يحملنا على القول بأن النحت والتصوير عند العرب لا يدل على نبوغهم ، نتيجة تأثرهم كما أسلفنا بالاعتقاد الديني الذي يحرمه عليهم ، كما لم يترددوا في وضع صور ذوات الحياة على كثير من الاواني العربية • مثال ذلك : اناء (سان لويس) الذي استخدم زمنا طويلا في تعميد الصبيان في فرنسا والموجود حاليا في متحف « اللوفر » في باريس •

على ان العرب وان لم يبدعوا في فني النحت والتصوير ، فانهم قد ابدعوا كثيرا في الصناعة المعدنية والصياغة وسائر الحرف الاخرى ، وبلغ اتقانهم لبعضها مبلغا يتعذر على ابناء هذا القرن أن يأتوا بأجود منه ان لم أقل بمثله •

فقد كانت آنيتهم واسلحتهم مكفتة بالفضة ومموهة بالميناء المفرض ومرصعة بمختلف الاحجار

الثمينة وكان ابداعهم في صنع القطع الجميلة من البلور الفني الموشح بالصور والحكم ما يلفت الانظار ، ويؤيده ذلك الابريق البلوري الموجود في متحف « اللوفر » الى الآن ٠

ومما انتشر عند العرب تطعيم الادوات الاواني المختلفة، مثل الخزفوالقاشاني والنحاس والخشب ، بمواد ثمينة، كالعاج والصدف، وكذلك تكفيت المصنوعات المعدنية ، يدل على ذلك قول السيد (لافوا) : لصناعة التكفيت عند الشرقيين طرق كثيرة ، فالتكفيت يتم بادخال خيوط من الذهب أو الفضة الى فرض محدثة في المعدن بالمنقاش ، واسعة القعر ، ضيقة الوجه ، وتكون تلك الخيوط بارزة أو مسواة على حسب رأي الصائغ ، وتارة تركب كما يفعل في دمشق زهرة دقيقة من الذهب أو الفضة على الفولاذ أو النحاس من بين خطين متوازيين ، فتطرق الاطراف طرقا خفيفا ، فينجم عن ذلك ما يشبه الاطار ، وتارة يمر الصانع ، كما يفعل في القاهرة ،منقاشه المهمازي الشكل بسرعة على المعدن الذي يرغب في زخرفته ، فيركب خيط الفضة بالمدق على تلك الاجزاء المعدنية وكذلك اشتهر العرب بادخال الفسيفساء ـ هذه المادة الثمينة ـ في القصور والمآذن والقباب حتى في التحف الصغيرة كالخنجر والدواة ٠

ولما دخل فيالاسلام عدد كبير من الفرس والروم ، ممن كان لهم ذوق في الفنون ، وامتزج الفن العربي بفنهم ، أدى ذلك الى تطوير الفن الصناعي عندهم ، فقد حوروا الرسوم المحرمة الى رسوم مباحة من هندسية ونباتية ، ونبغوا في فن الزخرفة وادخلوه الى أبنيتهم ، وتفننوا في الكتابة على هامش المصاحف ، واهتموا بتجليده وتحلية الغلاف بالذهب ، وما الى ذلك من ابداع ، نتيجة تعلقهم الشديد بالقرآنوآياته، واحترامهم له ٠ كما تفننوا في تزيين داخل الجوامع بالآيات القرآنية والاحاديث النبوية ، وخاصة نقش المحاريب بالجص وان لم يكونوا قد بلغوا في هذه الناحية ما بلغه المسيحيون في تزيين كنائسهم ، فمن يتسنى له زيارة المسجد الاقصى في القدس أو الاموي في دمشق ، وعمرو بن العاص في القاهرة ، أو سواها من المساجد الاسلامية في المدن العامرة ، والاطلاع على ما حوته هذه الجوامع من دقة في البناء وعظمة في الزخرف ، لا يتردد في الحكم على الفن العربي بأنه بلغ الذروة من هذه الناحية ٠ ومثل ما يقال عن الجوامع والمحاريب ، يقال ايضا عن المآذن الفخمة والقباب الضخمة والاعمدة الشامخة ، مما يدل على نبوغ العرب في الفن المعماري وذوقهم الرفيع وتفكيرهم السليم ٠

٢ ـ تخطيط المدن :

كان العرب عند قيامهم ببناء مدينة ما يراعون الوضع الصحي والحربي والجمالي ، فيكثرونمن المنتزهات والحدائقوالبركوالفوارات، ويحيطون المدينة بالخنادق والاسوار ٠ وأهم المدن التي بنيت في العهد الاموي : القيروان في أفريقيا ، وقد بناها عقبةبن نافع عام ٥٠هـ ٠ وكانتعاصمة المسلمين في المغرب ، ولا يزال محراب عقبة في مسجدها ، ومأذنة هشام حتى اليوم ٠

وواسط في العراق ، وقد بناها الحجاج في عهد عبد الملك بن مروان على ضفتي دجلة ليقيم العرب فيها ، ومنهم الشاميون بنوع خاص ٠

كما ابدع العرب في بناء المساجد ومحاريبها وقببها ومآذنها وعقودها ، برعوا في بناء القصور والدور والمدارس والمارستانات والقناطر والجسور والحمامات ، وما تزال المساجد الاسلامية صورة رائعة لتطور الفن العربي ، عهد ذلك ، والحضارة الاسلامية ٠

وأهم مزايا الفن العربي في البناء :

آ ــ القرنصات : وهي تشبه خلايا النحل وتكون في شقوق المباني وواجهات العمارات ٠

ب ــ القبب : ذاعت في العمائر الاسلامية وهي منبسطة الشكل أو بصليته تزين سطوحها بالقاشاني الاخضر ، ومن أجل ذلك سميت الخضراء ، وأشهرها خضراء معاوية في دمشق ، وخضراء الحجاج في واسط ٠

ج ــ شرفات الابنية : وتبنى على شكل اسنان المنشار ٠

د ــ الاقواس : ومنها المدبب ، والمستدير ٠

٣ ــ الموسيقى والغناء وآلات الطرب :

كان للعرب قبل الاسلام أنواع من الغناء ، كاغاني القوافل والاغاني الحربية والدينية والغرامية ٠ومنها ما لايزال موجودا في التلبية اثناء الحج ، وفي تجويد القرآن وترتيله ٠ وكان الحداء أقدم أنواع الغناء عند العرب ، وقد شاع الغناء في الحجاز على ثلاثة الحان ٠

١ ــ النصب : وهو غناء القيان والركنان ويقال في المراثي ٠

٢ ــ السنساد : وهو اللحن الثقيل ذو الترجيع الكثير النغمات والنبات ٠

٣ ــ الهزج : وهو الخفيف ٠

وعندما انتقلت الخلافة من الحجاز الى الشام اغدق الامويون على الشباب الطامح الى الخلافة الهبات والاموال والعطايا ليشغلوهم عنها ٠ فعكف الشباب على اللهو وانفقوا أموالهم على المغنين والمغنيات ٠ وتوافد الى مجالس الغناء في مكة والمدينة والكثير منهم ، فكان في الحجاز ابن سريع والغريض ومعبد وحنين وابن محرز وجميلة وهيفا وطويش ٠ وحبابة وسلامة والزرقاء وابن مسجع ٠

أما أهم آلات الطرب فهي : الدف ، المربع ، القصبة ، والمزمار ، العود ، والناي ٠

بهذا انتشرالغناء الرفيع وازدهرتالموسيقى عند العرب وترقى فن العمارة بشكل مدهش لا تزال شواهده قائمة في بلاد المجد المفقود : في قرطبة واشبيلية والحمراء ٠ ولقد أثرت الفنون العربية لا سيما في العصر العباسي تأثيرا كبيرا في فنون الدول الاوروبية ، وعلى الاخص في فن عمارتها ٠

قال باتيسيه : « انه لا يجوز الشك في أن البنائين الفرنسيين أخذوا عن العرب في القرنين الحادي عشر والثاني عشر من الميلاد ، كثيرا من العناصر المعمارية المهمةوالزخارف الفنيةالجميلة٠ افلم نجد في كاتدرائية بواي التي هي من أهم البنايات النصرانية بابا مستورا بالكتابات العربية ؟ أولم تقم في اربونة وغيرها حصون على حسب الذوق العربي ؟٠ وقد ذكر مسيو لانورمان الذي لم يكن أقل حجة من باتيسيه : « ان تأثير

العرب واضح في كثير من الكنائس الفرنسية ، مثال ذلك كنائس ماغيلون وكانده أغاماش » ٠ وقد تحدث « شار بلان » عما اقتبسه الاوروبيون عن العرب فقال : « أرى من غير مبالغة ، فيما لاحدى الامم منالتأثير في أمة أخرى،ان الصليبيين الذين شاهدوا ما اشتمل عليه فن العمارة العربي من الشبابيك وشرف المآذن والافاريز ، ادخلوا الى فرنسا المراقب والجوامق والابراج والاطناف ، التي استخدمت في العمارات المدنية والحربية،في القرون الوسطى » ولقد تجلى في اسبانيا على الخصوص تأثير العرب المعماري العظيم ، الذي غفل عنه العلماء الاوروبيون انفسهم ، وقصر « شافوبيه » الذي شيد في القرن الحادي عشر من الميلاد كان على طراز قصر طليطلة العربي ، وقد أمر بأنشائه « لازفونش السادس » بعد ان طرده اخوه والتجأ الى العرب في طليطلة ودرس قصرها وعاد الى مملكته ، واشبيلية حافلة بذكريات العرب ، فلا تزال بيوتها تبنى على الطراز العربي ، ولا يزال الرقص والموسيقى فيها على الطريقة العربية ٠

وخلاصة القول ان تأثير الحضارة العربية في الحضارة الغربية كان عظيما وجليلا ٠ فالعرب هم الذين أبدعوا في جميع العلوم والفنون ابداعا مختلفا كثيرا عن الحضارات التي عرفتها البشرية عند الامم الغابرة وهم الذين فتحوا لاوروبا أبواب المعرفة من علمية وأدبية وفلسفية وظلوا اساتذة لها مدة ستة قرون وكانت حضارتهم خير نواة للحضارة الغربية الحديثة ٠

ولعل خير ما اختم به هذا البحث كلمة « سبنسر » الآتية :

« لا يستطيع عالم واحد أن يتأمل القبة الزرقاء دون أن يلفظ أسما عربيا ٠ ولا يستطيع عالم طبيعي أن يحلل ورقة من الشجر أو يفحص صخرة من الصخور دون أن يتذكر درسا عربيا ٠ ولا يقدر أي قاض أن يبت اليوم في اختلاف دون أن يستدعي مبدأ املته العرب ٠ ولا يستطيع أي طبيب أن يتلمس دائرة احد الامراض المعروفة منذ القدم دون ان يهمس بآراء طبيب عربي » ٠

ابن عساكر : أخذ وعطاء

د. بشار عواد معروف
جامعة بغداد

رحل الحافظ ابن عساكر الى بغداد رحلتين : اولاهما سنة ٥٢٠ هـ وهي الرحلة الرئيسة التي استمرت قرابة الخمس سنين ، وثانيتهما سنة ٥٣٣ هـ عند انتهاء رحلته الى مشرق العالم الاسلامي(١) .

وكانت الدولة العباسية خلال هذه الفترة قد اخذت تستفيق وتحاول اعادة مجدها وبسط سلطانها الذي لم يبق السلاجقة منه ما يذكر ، وظهرت بوادر تلك اليقظة بظهور شخصية عباسية عظيمة هي شخصية الخليفة المسترشد بالله ٥١٢ ــ ٥٢٩ هـ (٢) . وكان المسترشد يوم ولي الخلافة في عز قوته : شابا لم يتجاوز السابعة والعشرين من عمره ، فحاول جاهدا الحد من نفوذ المتغلبين على الخلافة كبني مزيد وغيرهم ، وباشر الحروب بنفسه ، ثم اخذ يتطلع الى شيء اعظم من ذلك : هو ابعاد النفوذ السلجوقي عن الخلافة العباسية ، ولم يكن ذلك بالامر اليسير والسلاجقة في عز قوتهم وسلاطينهم الاقوياء مثل السلطان محمود وولده مسعود يسيطرون على دفة الامور . وعلى الرغم من أن هذا الخليفة العظيم قتل سنة ٥٢٩ نتيجة المؤامرة بين الباطنية والسلاجقة فانه كان طلائعيا فتح الباب على مصراعيه لمن جاء بعده للوقوف بوجه النفوذ السلجوقي ، قال مؤرخ الاسلام شمس الدين الذهبي : « كان ذا همة عالية وشهامة واقدام وراي وهيبة شديدة ، ضبط أمور الخلافة ورتبها أحسن ترتيب ، وأحيا رمم الخلافة ونشر عظامها ، وشيد أركان الشريعة وطرز أكمامها ، وباشر الحروب بنفسه ، وخرج عدة نوب الى الحلة والموصل وطريق خراسان » (٣) . ومن اجل كل ذلك كان المسترشد بالله يتقرب الى شعبه ويتمسك بدينه فسمع الحديث من ابي القاسم ابن بيان وعبد الوهاب بن هبة الله السيبي وغيرهما ، بل قرأ عليه المحدث محمد ابن عمر بن مكي الاهوازي اجزاء الحسن بن عرفة بسماعه من ابن بيان ، فكان ابن الاهوازي يقرأ عليه والخليفة سائر بقرب المدائن لقتال دبيس بن صدقة المتغلب على الحلة (٤) . وحذا ابنه الراشد حذوه في الحرب ، فحاربه السلطان وخلعه (٥) . وولي المقتفي لامر الله سنة ٥٣٠ هـ حيث لزم الصمت مدة حتى اذا وجد الفرصة مواتية بعد ذلك قال : « لا صبر على الضيم بعد اليوم » وطرد الشحنة (وكيل السلطان) واستولى على أملاكه وأملاك المؤيدين للسلاجقة ، وباشر الحروب بنفسه فقاد الجيوش وملك العراق من اقصى الكوفة الى حلوان ومن تكريت الى عبادان ، وعاونه في ذلك وزيره العالم الجليل ابن هبيرة (٦) .

وكانت بغداد في مطلع القرن السادس من أعظم المراكز العلمية العربية الاسلامية ولا سيما في العلوم الدينية ، كالحديث والفقه وتوابعهما كالتاريخ والادب

واللغة ، ولا أدل على مكانتها من ذلك العدد الضخم من متعيني الرواة الذين عاشوا فيها أو قصدوها من شتى بقاع العالم الاسلامي والذي يظهر من ضخامة الذيل الذي وضعه أبو سعد ابن السمعاني على تاريخ الخطيب ، فعلى الرغم من ان الفترة الزمانية التي تناولها الكتاب لا تزيد على القرن الواحد ٤٦٣ — ٥٦٢ فانه كان بحجم تاريخ الخطيب تقريبا (٧) .

وبدات المدارس تنتشر في هذه المدينة منذ منتصف القرن الخامس الهجري انتشارا كبيرا ، متوجة بانشاء المدرسة النظامية سنة ٤٥٩ هـ والتي أصبحت منارا للعلم ومقصدا لطلبته (٨) .

ولم تكن بغداد منطقة جذب للعلماء بسبب مكانتها العظيمة حسب ، لكنها ، وهي دار العلم آنذاك ، كانت تقع على طريق الحجاج القادمين من مشرق العالم الاسلامي الزاخر آنذاك بطائفة عظيمة من مشاهير العلماء ، فكان هؤلاء يتهزون هذه الفرصة عند المرور ببغداد للسماع أو التحدث بها فيوفر كل ذلك على الطالب القادم اليها تعبا في لقاء هؤلاء الشيوخ (٩) .

وقد اسهم المحدثون المسلمون خلال تلك العصور في الحفاظ على الوحدة الثقافية بين أرجاء الوطن العربي والعالم الاسلامي برحلاتهم الكثيرة الطويلة وتنقلهم بين مدنه وأقاليمه ، ونشر راية اللغة العربية في أرجائه . وكان المسلمون يعتبرون العالم الاسلامي كله موطنا ودارا لهم ، وبذلك توطدت الصلات بين أجزائه بالرغم من اختلاف حكامه (١٠) .

وكانت العلاقات الثقافية بين دمشق وبغداد قائمة على قدم وساق منذ أقدم العصور ، لكنها توطدت بشكل أكبر خلال هذه الفترة ، فقد رحل عالم بغداد ومؤرخها الخطيب البغدادي مثلا الى دمشق غير مرة ومكث فيها فترة طويلة لم يمكثها في مدينة أخرى سوى بغداد ، وكان يعقد مجلسه في الجامع الاموي بدمشق يحدث بمصنفاته ومصنفات غيره رغم سيطرة الفاطميين عليها وعدم ارتياحهم من نشاطه العلمي (١١) .

وكثيرا ما كان الدماشقة يرحلون الى بغداد ، بل ويستوطنها بعضهم ، فالحافظ أبو القاسم ابن السمرقندي ولد بدمشق سنة ٤٥٤ هـ وسمع بها ثم رحل به وبأخيه أبوهما المقرئ أبو بكر أحمد في حدود سنة ٤٦٩ هـ وسكنوها ، وأصبح ابن السمرقندي بعد ذلك من أعاظم علماء بغداد في عصره الى حين وفاته سنة ٥٣٦ هـ (١٢) . وقدم أبو عبد الله الحسين بن الحسن المقدسي الحنفي المقرئ من الشام الى بغداد وهو في السابعة عشرة من عمره سنة ٤٧٠ هـ فاستوطنها وتفقه بها وولي امامة مشهد أبي حنيفة بها (١٣) .

وكانت علاقة عائلة الحافظ أبي القاسم ببغداد قوية جدا ، فقد رحل اليها جده لأمه القاضي أبو المفضل يحيى ابن علي بن عبد العزيز القرشي الأموي (٤٢٣—٥٣٤) وسمع بها من عبد الله بن طاهر التميمي الفقيه وغيره ، وتفقه بها على الفقيه أبي بكر الشاشي ، كما أنه مر بها عند ذهابه الى الحج سنة ٥١٠ هـ (١٤) .

ورحل اليها خالاه ، بل ان خاله زين القضاة أبا المكارم سلطان بن يحيى (ت ٥٣٠) صلى التراويح بالنظامية ، ووعظ بها ، وخلع عليه الخليفة هناك (١٥) .

ورحل أخوه الصائن هبة الله بن الحسن (٤٨٨ — ٥٦٣) الى بغداد سنة ٥١٠ هـ (١٦) ، وحج سنة ٥١١ هـ ورجع اليها وبقي فيها حتى سنة ٥١٤ هـ (١٧) .

وكانت رحلة الحافظ أبي القاسم مع العلم وطلبه قد بدأت منذ طفولته ، حيث تلقن القرآن الكريم (١٨) ، وأحضر مجالس السماع ، واستجاز له أهله كبار العلماء ابان طفولته ، ثم أخذ هو يسمع بنفسه . والظاهر أنه كان يتشوق الى الرحلة الى البلدان الاخرى ولا سيما بغداد ، لكن أهله كما يبدو لم يمكنوه من ذلك في أول الامر ، فلما بلغ الحادية والعشرين من عمره سمحت له أمه بالسفر الى بغداد ، لكنها اشترطت عليه الا يرحل الى مشرق العالم الاسلامي (١٩) . ولم يكن الحافظ ابنا عاقا يخالف ارادة أمه لا سيما ان آداب طلب العلم تقتضي استئذان الابوين في الرحلة (٢٠) ، ووجوب طاعتهما وبرهما وترك الرحلة مع كراهتهما ذلك وسخطهما (٢١) .

وكان الحافظ — رحمه الله — في أشد الشوق الى الرحلة الى بغداد فقد حكى زين الأمناء ابن عساكر لعمر بن الحاجب أن أبا القاسم لما عزم على الرحلة اشترى جملا وتركه بالخان فلما رحل القفل تجهز وخرج فوجد الجمّال قد مات ، فقال له الجماعة الذين خرجوا

لوداعه : ارجع فما هذا فال مبارك ، ففندوا عزمه ، فذكر لهم ان مثل هذا لا يثني عزمه ، وانه لابد من الرحلة حتى مشيا على قدميه ، ثم حمل خرجه واكترى من الركب بعيرا (٢٢) .

ومما لاشك فيه انه وصل بغداد قبل شهر رجب من سنة ٥٢٠ هـ ، وهو الشهر الذي توفيت فيه شيختـه البغدادية فاطمة بنت عبد القادر ابن السماك ، وقد ذكر الذهبي انها اقدم شيوخه ببغداد وفاة (٢٣) . واذا استثنينا ذهابه الى الحج سنة ٥٢١ وسماعه هناك (٢٤) ورجوعه الى دمشق لفترة (٢٥) فانه بقي ببغداد حتى سنة ٥٢٥ . ونحن نعلم ايضا انه كان بدمشق في شوال سنة ٥٢٥ وهو الشهر الذي توفي فيه شيخه ابو علي الحسن بن سلمان (٢٦) النهرواني مدرس النظامية (٢٧) فقال في كتاب تبيين كذب المفتري : فورد عليّ بعد عودي من بغداد كتاب الشريف ابي المعمر المبارك بن احمد بن عبد العزيز الانصاري فذكر انه توفي في يوم الاثنين الخامس من شوال سنة خمس وعشرين وخمسمئة (٢٨) .

اما الرحلة الثانية الى بغداد فكانت رحلة قصيرة من ضمن رحلته العامة الى المشرق التي ابتداها سنة ٥٢٩ فتوقف ببغداد سنة ٥٣٣ وسمع على شيوخها ايضا ، وحدّث بها ، ثم عاد الى دمشق ليبدأ نشاطه العظيم في عطاء علمي غزير هادف لم ينقطع طيلة حياته .

ويبدو ان ابا القاسم الدمشقي لم يرحل غير هاتين الرحلتين الكبيرتين ، ودلالة ذلك انه حينما عاد الى دمشق سنة ٥٣٣ كان يأمل ان تصل بعض نسخ سماعاته من رفيقه ابي علي ابن الوزير ، وحينما تأخر وصول النسخ ولم يصل احد من رفاقه كان يقول : « فلا بد من الرحلة ثالثا » ثم وصلت اليه وفرح بها ولم يرحل (٢٩) .

وهكذا كانت رحلته الاولى وهي اطول رحلاته مخصصة لعاصمة الثقافة آنذاك بغداد ، اما الثانية فكانت غايتها الرئيسة مشرق العالم الاسلامي ، لكن بغداد لم تغب عن نفسه فعرج عليها بعد انتهاء رحلته المشرقية .

وحينما وصل ابو القاسم الى بغداد واظب على حضور الدروس بالمدرسة النظامية (٢٩) ، وكان شيخه مدرس النظامية الحسن بن سلمان بن عبد الله ابن الفتى النهرواني الأصبهاني ، نزيل بغداد . وقد ولي تدريس النظامية في اول رحلة ابن عساكر الى بغداد وبقي مدرسا بها الى حين وفاته في شوال سنة ٥٢٥ هـ . وكان ابن عساكر من المعجبين به ، قال : « وولي تدريس المدرسة النظامية ببغداد اذ كنت بها وكان ممن يملأ العين جمالا والاذن بيانا ويربي على اقرانه في النظر لانه كان افصحهم لسانا (٣٠) .

ودرس الخلاف ببغداد على الشيخ ابي سعد اسماعيل بن احمد بن عبد الملك النيسابوري (٤٥١ — ٥٣٢) (٣١) وكان شيخا ذا راى وعقل وتدبير وفضل وافر (٣٢) ، قال ابن عساكر : « كان اماما في الاصول والفقه حسن النظر مقدما في التذكير .. لقيته ببغداد سنة احدى وعشرين وخمسمئة وسمعت منه (٣٣) » .

الا ان عناية ابي القاسم الدمشقي انصبت ببغداد ، وبغيرها فيما بعد ، على سماع الحديث ، فانطلق فيه حتى طغى على كل تفكيره ، واستغرق كل حياته بعد ذلك ، فسمع مالا يحصى كثرة من الكتب والاجزاء ، ولقي ببغداد مئات عديدة من الشيوخ والشيخات ، يدل على ذلك معجم شيوخه ، كما تدل عليه تآليفه . واصيب بالشره في سماع الحديث وقراءته حتى كان يسمع من اناس قد لا يرضى عنهم ، فقد سمع مثلا من ابي المعالي ثعلب بن جعفر بن احمد السراج (٣٤) المتوفى سنة ٥٢٤ وهو « عامي لا يدري شيئا انما سمعه ابوه بدمشق .. وعاد به الى بغداد » (٣٥) ، وسمع من ابي الاعز قراتكين ابن الاسعد بن مذكور التركي البغدادي الازجي (٣٦) المتوفى سنه ٥٢٤ وقد سئل عنه فقال فيه : « ما كان يعرف شيئا » (٣٧) ، وسمع عبيد الله بن محمد البيهقي الخسروجردي (٣٨) المتوفى سنة ٥٢٣ ، وقال ابن السمعاني : سالت عنه ابا القاسم الدمشقي ، فقال : ما كان يعرف شيئا (٣٩) . وسمع من ابي السعود احمد بن علي بن محمد ابن المجلي (٤٠) المتوفى سنة ٥٢٥ « ولم يكن يعرف شيئا من الحديث ، وكان يعظ ويذكر بجامع القصر » (٤١) ، وروى عن عبد الله بن محمد بن نجا ابن شاتيل المراتبي الدباس (٤٢) المتوفى سنة ٥٢٥ ايضا « وكان لا يعرف شيئا » (٤٣) ، وقال عن شيخه ابي عمرو عثمان بن احمد بن عبيد الله بن دحروج البغدادي النصري (٤٤) المتوفى سنة ٥٢٧ : « ما كان يفهم

شيئا » (٤٥) ، وقال عن شيخه أبي منصور احمد بن محمد بن احمد ابن السلال الوراق الناسخ المتوفى سنة ٥٢٨ وقد روى عنه في معجم شيوخه (٤٦) : « وكان بئس الشيخ قليل الصلاة » (٤٧) وهلم جرا .

ان عدد الشيوخ الذين اخذ عنهم ابو القاسم ببغداد يفوق عددهم في اية مدينة اخرى يدل على ذلك معجم شيوخه حيث نجد فيه مئات عديدة ، لكنه اكثر عن بعضهم نظرا لمكانتهم العلمية وما حصلوا عليه من اسناد عال في الرواية ، قال رفيقه المحدث ابو المواهب الحسن ابن هبة الله ابن صصري الربعي البلدي الأصل الدمشقي الدار والوفاة المتوفى سنة ٥٨٦ (٤٨) :

« أما انا فكنت اذاكره في خلواته عن الحفاظ الذين لقيهم فقال : أما ببغداد فأبو عامر العبدري» (٤٩) . وكان ابو عامر محمد بن سعدون بن مرجى القرشي العبدري الميورقي نزيل بغداد المتوفى سنة ٥٢٤ احد الحفاظ المذكورين والعلماء المبرزين، ومن كبار الفقهاء الظاهرية: قال أبو القاسم : « كان فقيها على مذهب داود ، وكان احفظ شيخ لقيته » (٥٠) .

وقد ادرك الحافظ ابن عساكر ببغداد سند العراق العظيم أبا القاسم هبة الله بن محمد ابن الحصين الشيباني الهمذاني الأصل البغدادي (٤٣٢ — ٥٢٥) ، وكان من الشيوخ الثقاة الواسعي الرواية ، وقد تفرد برواية مسند الامام احمد ، واحاديث ابي بكر الشافعي واليشكريات (٥١) .

وسمع بها من ابي العز احمد بن عبيد الله ابن كادش العكبري البغدادي (٤٣٦ — ٥٢٦) وكان آخر الرواة عن أقضى القضاة أبي الحسن الماوردي (٥٢) . ومن أبي الحسين محمد بن محمد بن الحسين ابن الفراء البغدادي الحنبلي المقتول سنة ٥٢٦ صاحب طبقات الحنابلة (٥٣) .

واخذ الحافظ عن أبي الحسن علي بن عبيد الله ابن الزاغوني (٤٥٥ — ٥٢٧) شيخ الحنابلة ببغداد . وكان أماما فقيها ، متبحرا في الأصول والفروع ، متفننا ، واعظا ، مناظرا ، ثقة ، مشهورا بالصلاح والديانة والورع والصيانة وكثرة التصانيف (٥٤) .

واكثر عن أبي القاسم هبة الله بن احمد بن عمر البغدادي الحريري المقرىء المعروف بابن الطبر (٤٣٥ — ٥٣١) خال الحافظ عبد الوهاب الانماطي ، وهو من الشيوخ المعمرين المقرئين الثقات العارفين بالعربية(٥٥).

واخذ عن ابي منصور عبد الرحمن بن محمد بن زريق الشيباني القزاز البغدادي الحريمي (٤٥٣ — ٥٣٥) وكان قد سمع التاريخ من الخطيب ورواه (٥٦) .

ومن كبار شيوخه البغداديين ايضا القاضي أبو بكر محمد بن عبد الباقي بن محمد الأنصاري البغدادي الحنبلي البزاز المعروف بقاضي المارستان (٤٤٢ — ٥٣٥) قال الذهبي : « مسند العراق بل مسند الآفاق .. روى عنه خلق لا يحصون منهم من مات في حياته ومنهم من تأخر » (٥٧) .

وسمع الكثير على أبي القاسم اسماعيل بن احمد ابن السمرقندي المولود بدمشق سنة ٤٥٤ والمتوفى ببغداد ٥٣٦ الذي كان واحدا من أعظم علماء بغداد (٥٨) بحيث كان الحافظ ابو العلاء العطار الهمذاني يقول : ما أعدل بأبي القاسم السمرقندي احدا من شيوخ العراق وخراسان ، وقال ابن عساكر في حقه : كان ثقة مكثرا صاحب اصول ، وكان دلالا في الكتب .. وعاش الى ان خلت بغداد وصار محدثها كثرة واسنادا ، وقد املى في جامع المنصور في أيام الجمع زيادة على ثلاث مئة مجلس » (٥٩) .

وسمع ابن عساكر ايضا من الشيخ الحافظ الثقة المتقن الكثير السماع الواسع الرحلة أبي البركات عبد الوهاب بن المبارك الانماطي (٤٦٢ — ٥٣٨) (٦٠) ، قال ابن السمعاني : جمع الفوائد وخرّج التخاريج . ولعله ما بقي من العالي والنازل جزء الا قراه وحصّل نسخته اما بخطه ، او بخط غيره . ونسخ الكتب الكبار مثل طبقات ابن سعد وتاريخ الخطيب . وذكره أبو موسى المديني في معجمه ، فقال : حافظ عصره ببغداد (٦١) .

ومنهم ايضا ابو منصور محمد بن عبد الملك بن الحسن بن خيرون البغدادي المقرىء الدباس (٤٥٤ — ٥٣٩) ، وهو من الشيوخ المعمرين الثقات البارعين في القراءات . حدث بكتاب النسب للزبير بن بكار عن ابن

المسلمة ، وسمع أكثر تاريخ الخطيب وكان ينسخه ويبيعه (٦٢) .

وروى الحافظ أبو القاسم عن عدد من الشيخات اللائي التقى بهن في بغداد وسمع عليهن ، منهن :

فاطمة بنت عبد القادر بن احمد بن الحسين ابن السماك الواعظة ، وتدعى المباركة المتوفاة سنة ٥٢٠ ، قال الذهبي : « وهي أقدم شيخ توفي له ببغداد » (٦٣) .

وفاطمة بنت الحسين بن الحسن بن فضلويه الرازي . العالمة المعروفة ببنت حمزة ، قال الذهبي : « واعظة مشهورة ببغداد متعبدة لها رباط يأوي اليه النساء . روت عن ابن المسلمة ، وأبي بكر الخطيب . روى عنها أبو القاسم ابن عساكر ، وقال : توفيت في ربيع الأول (٦٤) » (سنة ٥٢١) .

وفاطمة بنت أبي الحسن علي بن الحسين بن جَدّا العكبري البغدادية المتوفاة سنة ٥٢٦ (٦٥) .

وكريمة بنت الحافظ أبي بكر محمد بن احمد بن الخاضبة المتوفاة سنة ٥٢٧ . روت عن أبي الحسين ابن النقور . قال ابن السمعاني : رأيت نسخة لتاريخ بغداد كاملة بخطها (٦٦) .

ومهناز بنت يانش الرومي ، أم بشارة البغدادية . سمعت من أبي جعفر ابن المسلمة « صفة المنافق » . روى عنها أبو المعمر الأنصاري وابن عساكر ، وتوفيت سنة ٥٣٠ وقد نيفت على التسعين (٦٧) .

أثر بغداد في تكوينه الفكري :

كان أبو القاسم طيلة مقامه ببغداد لا يكل عن السماع والتحصيل ولا ينقطع عنهما وكان رفقته في الطلب ، ومنهم ابن صصرى « ت ٥٨٦ » يدركون هذا الحماس في الدراسة والتحصيل ، فكان ابن صصري يقول : « ماكنا نسمع الشيخ أبا القاسم ببغداد الا شعلة نار من توقده وذكائه وحسن ادراكه » (٦٨) فجمع من العلم ما لم يجمعه غيره « ورجع بعلم جم وسماعات كثيرة » (٦٩) ، ولا أدل على ضخامة زاده من بغداد تلك الروايات الكثيرة التي نقلها عنهم في كتبه ، ففي المجلدة الأولى من تاريخ دمشق نجده يورد أكثر من مئة وعشرة نصوص عن أبي القاسم ابن السمرقندي ، وأكثر من خمسين نصا عن ابن الحصين ، وقرابة الأربعين نصا عن ابن البناء ، والثلاثين نصا عن محمد بن عبد الباقي الأنصاري ، وهلم جرا (٧٠) .

وصل ابن عساكر الى بغداد وهو في مطلع شبابه : في الحادية والعشرين من عمره وبقي فيها قرابة الخمس سنوات لم ينقطع فيها عن التحصيل والدرس . وهذه الفترة ، في رأينا ، هي التي اثرت تأثيرا عظيما في تكوينه الفكري وطبعته بطابع أهل بغداد المحبين للحديث وروايته ودراسته حبا شغلهم عن كثير من العلوم الأخرى . وفي بغداد كانت المشارب التي أخذ عنها أبو القاسم متنوعة التنوع كله ، ففي شيوخه اشاعرة وسلفية منهم المرن وفيهم المتعصب لعقيدته،وهو لم يترك احدا استطاع مجالسته والسماع عليه والأخذ عنه ، فعلى الرغم من اشعريته التي ورثها عن عائلته ، ودفاعه عن الاشاعرة والذب عنهم ما استطاع الى ذلك سبيلا (كما يتضح من كتاب التبيين) فانه ما كان ليحجم عن الأخذ من شيوخ كانوا يعادون الأشاعرة ، فقد أخذ مثلا لا حصرا ، عن القاضي أبي الحسين محمد ابن القاضي أبي يعلى محمد ابن الفراء الحنبلي البغدادي المتوفى سنة ٥٢٦ هـ صاحب طبقات الحنابلة وقد قال فيه السلفي الحافظ : « كان أبو الحسين متعصبا لمذهبه وكان كثيرا ما يتكلم في الأشاعرة ويقول فيهم ويسمعتهم » (٧١) .

وبسبب اتصال الحافظ أبي القاسم بشيوخ من مشارب مذهبية وعقائدية متنوعة وحبه واحترامه لهم ، وجدناه ينشأ على غاية من النزاهة عن التعصب الذي عرف به كثير من الأشاعرة وخصومهم . ولم يكن تحقيق تلك النزاهة والمرونة في تلك الاعصر من الأمور الهينة والبيئة الدمشقية والبغدادية آنذاك مشحونة بها .

وعلى الرغم من أشعرية الحافظ ابن عساكر فقد اتصل اتصالا هائلا بالحديث والمحدثين يذكرنا باتصال الحنابلة به ، فقد أفنى عمره في سماع الحديث وروايته ، والف معظم كتبه في هذا المجال الذي أخذ بجماع نفسه .

وتتصل قيمة التاريخ عند الحافظ ابن عساكر اتصالا وثيقا بالحديث . وهو أمر يعكس مفهومه وفلسفته

في الدراسة والعطاء ، فالتاريخ عنده ليس اكثر من معين لمعرفة صحيح الحديث من سقيمه في اغلب الأحيان ، لذلك وجدناه يُعنى بالتراجم عناية فائقة ويؤثر المحدثين من المترجمين على من سواهم في كتبه ولا سيما في تاريخه العظيم لمدينة دمشق .

وقد استعمل الحافظ مناهج البحث عند المحدثين في عرض الروايات التاريخية ، فاستعمل الاسناد بشكل كبير في كتبه ولا سيما تاريخ دمشق . وبعد استعمال الأسانيد عند اهل الحديث من ادق طرق ذكر المصادر ، فبقدر ما نعجب اليوم بالحواشي المرصوصة في البحوث الحديثة ، كانت الاسانيد عند اسلافنا هي هذه الحواشي المرصوصة بل اكثر دقة والتزاما .

كما يتضح اثر الحديث في صياغته للترجمة ونوعية المادة التي يوردها فيها : من اسم ، ونسبة ، ومولد ، ووفاة ، وشيوخ ، وتلاميذ ، وتقويم واحكام ، وهو الاطار الذي وضعه المحدثون ، وهو احدهم ، لعناصر الترجمة التي انتقلته منهم الى غيرهم من المعنيين بالتراجم (٧٢) .

ويذكر ابن خلكان ان ابن عساكر الفّ تاريخه لدمشق على نسق تاريخ بغداد للخطيب . ومع أننا لا نريد ان نعقد مقارنة بين الكتابين لنرى مصداق هذا القول ، كما لا نريد الدخول في البحث عن أول من ألف تاريخا تراجميا لمدينة على نسق الخطيب ممن سبقه لكن علينا ملاحظة جملة أمور من ابرزها :

١ ـ ان ابن عساكر سافر الى بغداد وهو في الحادية والعشرين من عمره ولم يكن قد بدا بجمع مادة تاريخ دمشق جمعا منظما يهدف الى تاليف كتاب عن مدينته .

ان كتاب الخطيب كان كتابا مرموقا عند المحدثين والمعنيين بالرواية ، فعلى الرغم من ضخامته كان يروى في المجالس ويسمعه الطلبة على الشيوخ ، وقد رأينا بعض ذلك عند كلامنا على شيوخ ابن عساكر البارزين من اهل بغداد واهتمامهم بهذا الكتاب .

٣ ـ ان الهيكل العام للكتابين متشابه فهو يبدأ بمقدمة خططية ويتناول بعد ذلك تراجم اهل المدينة ومن وردها من أعلام الناس أو حل بها .

٤ ـ الف ابن عساكر تاريخه بعد الخطيب ولا ريب انه استفاد بعض طريقته في التنظيم وحسنتها بما يتلائم وتكوينه الفكري وذوقه التاريخي المتصل بالحديث والمحدّثين .

من كل ذلك نستطيع القول ان شهرة تاريخ الخطيب ومكانته ودخوله في الكتب المروية قد شجعت الحافظ ابن عساكر على القيام بمشروعه العظيم لتاريخ مدينة دمشق في الاقل ، ولا بد انه أفاد من طريقته سواء اكان ذلك في اتباع بعضها ام في تجنب البعض الآخر او تحسينه . ولا يشك باحث بأن غزارة مادة ابن عساكر في تاريخ دمشق اعظم من تلك التي في تاريخ بغداد للخطيب ولا سيما في الخطط وسعة التراجم .

العطاء :

حينما قدم ابن عساكر الى بغداد اعجب به البغداديون وقالوا : قدم علينا من دمشق ثلاثة ما راينا مثلهم : الشيخ يوسف الدمشقي ، والصائن ابو الحسين هبة الله بن الحسن ، واخوه أبو القاسم(٧٣) . وقد بدأ عطاؤه ببغداد قبل دمشق ، ففي رحلته الاولى خرج لشيخه أبي غالب احمد بن الحسن بن احمد ابن البناء البغدادي الحنبلي « ٤٤٥ ـ ٥٢٧ » مشيخة(٧٤) ذكر ابن الدبيثي انها في نحو عشرة اجزاء تكلم على احاديثها واحسن(٧٥) . وسمع منه مفيد بغداد أبو بكر المبارك ابن كامل بن أبي غالب الخفاف البغدادي الظفري (٤٩٠ ـ ٥٤٣) وهو أسن منه(٧٦) ، قال ابن الجوزي : « انتهت اليه معرفة المشايخ ومقدار ما سمعوا والاجازات لكثرة دربته في ذلك (٧٧) » . وتوفي المبارك بن كامل الخفاف قبل أبي محمد مكي بن المسلم بن علان آخر الرواة عن الحافظ ابن عساكر بمئة وتسع سنين ، فقد كانت وفاة ابن علان في سنة ٦٥٢هـ(٧٨) .

ونظرا للمكانة المرموقة التي احتلها ابن عساكر ببغداد فانه كان يسأل عن الرواة من حيث الجرح والتعديل فتؤخذ اقواله فيهم وتعتبر عندهم اقصى حدود الاعتبار(٧٩) .

فقد أقام الحافظ ابن عساكر بعد رجوعه الى دمشق علاقات وطيدة مع جملة من علماء بغداد ، فبقي تبادل المعلومات العلمية بينهم قائما(٨٠) ، وكان يحرص

على لقاء البغداديين القادمين الى دمشق(٨١) فيسمع عليهم ويذاكرهم او يسمعون عليه ويذاكرونه .

وها نحن اولاء نرى كيف آمن اسلافنا العظماء بالوحدة بين ارجاء الوطن العربي وطبقوها تطبيقا عمليا، وعمقوها لقاءاتهم المستمرة . واننا على يقين من ان مثل هذه الامور تقدم لنا مثلا رائعا في الايمان بحتمية اللقاء والتوحد ، لا سيما والامة تمر بظروف عصيبة يشعر ابناؤها بأنهم محاويج دائما الى وحدة متينة تجمع شملهمبعد طول تفرق ، وتلم شعثهم بعد التمزق الذي كابدوه طيلة عصور التخلف والظلام ، فتزيد في توتهم اليوم قوة متجددة .

ملحق

ترجمة الحافظ ابن عساكر

في كتب المؤرخين البغداديين غير المنشورة

يتضمن هذا الملحق ثلاث من التراجم غير المنشورة التي وضعها مؤرخون بغداديون للحافظ ابي القاسم ابن عساكر وهم :

١ ــ الحافظ معين الدين ابو بكر محمد بن عبد الغني البغدادي الحنبلي المعروف بابن نقطة المتوفى سنة ٦٢٩ هـ حيث ترجم له في كتابه « التقييد لمعرفة رواة السنن والمسانيد » . وقد اعتمدت نسختي المصورة عن النسخة المحفوظة في المكتبة الازهرية تحت رقم ١٣٧ مصطلح الحديث .

٢ ــ الحافظ جمال الدين ابو عبد الله محمد بن سعيد المعروف بابن الدبيثي المتوفى سنة ٦٣٧هـ في تاريخه الذي ذيّل به على ذيل ابن السمعاني على تاريخ الخطيب وهو المعروف بـ « ذيل تاريخ مدينة السلام بغداد » . وتقع ترجمة الحافظ ابن عساكر في المجلد المحفوظ بمكتبة جامعة كمبرج في انكلترا . وقد حققتُ هذا الكتاب وتبنت وزارة الثقافة والفنون في العراق طبعه بنفقاتها فظهر منه المجلد الاول سنة ١٩٧٤ وترجمة ابن عساكر من هذا التاريخ لم تنشر حتى الآن .

٣ ــ الحافظ محب الدين ابو عبد الله محمد بن محمود المعروف بابن النجار البغدادي ، شيخ دار الحديث بالمدرسة المستنصرية المتوفى سنة ٦٤٣هـ في تاريخه الذى ذيّل به تاريخ الخطيب البغدادي والمعروف بـ « التاريخ المجدد لمدينة السلام واخبار فضلائها الاعلام ومن وردها من علماء الانام » ، وهو تاريخ حافل يقع في ثلاث مئة جزء حديثي ، لكن الزمان قد اتى على معظمه فلم يصل الينا منه غير مجلدين : المجلد العاشر في دار الكتب الظاهرية بدمشق (رقم ٤٢ تاريخ) والحادي عشر في دار الكتب الوطنية بباريس (رقم ٢١٣١ عربي) ، وهما من اصل نسخة اظنها تتكون من خمسة عشر مجلدا ، وفي خزانة كتبي نسختان مصورتان لهذين المجلدين . والمفروض ان تقع ترجمة الحافظ ابن عساكر في المجلد الذي بالظاهرية الذي يبدأ في اثناء من اسمه « عبد الملك » ولسوء الحظ فان نسخة الظاهرية فيها خرم عند هذه الترجمة فأذهب بمعظمها ولم يبق منها الا عجزها في اول الورقة ٢١٣ . لكننا في الوقت نفسه وجدنا مختصر هذه الترجمة في انتقاء للحافظ شهاب الدين احمد بن ايبك الدمياطي الحسامي المتوفي سنة ٧٤٩هـ .

من هذا التاريخ سماه « المستفاد من ذيل تاريخ بغداد » حيث توجد النسخة الفريدة منه بخط المنتقي بدار الكتب المصرية تحمل الرقم ٢٩٦ وفي خزانة كتبي نسخة مصورة عنها . كما نقل قسما من ترجمة ابن النجار للحافظ ابن عساكر ، مؤرخ الاسلام شمس الدين الذهبي في كتبه ولا سيما في كتابه العظيم « تاريخ الاسلام ووفيات المشاهير والاعلام » وكتابيه الآخرين « سير اعلام النبلاء » و « تذكرة الحفاظ » . واقتطف تاج الدين السبكي قليلا منها في « طبقات الشافعية الكبرى » فافدنا من كل ذلك في اعادة الترجمة بعد المقارنة بين مختصر الدمياطي وما وصل الينا منها فينسخة الظاهرية، وما اقتطفه المؤرخون منها .

وقد تمت بتحقيق هذه التراجم الثلاث وعلقت عليها تعليقات مختصرة غايتها ضبط النص وتدقيقه

وتحقيقه ودفع ايهام قد يقع فيــه القارىء ، وتوضيح ابهام قد يتأتى من ورود بعض الاسماء المختصرة .

اولا :

قال ابن نقطة في التقييد : الورقة ١٧٧ — ١٧٨ .

علـــي بن الحسن بن هبـــة الله ، أبو القاسم بن عساكر الحافظ الدمشقي .

سمع بدمشق من الشريف أبي القاسم علي(٨٢) بن ابراهيم بن العباسي الحسيني المعروف بابن أبي الجن ، وأبي الوحش سُبَيع(٨٣) بن المسلم بن قيراط ، وغيث(٨٤) ابن علي الارمنازي . وببغداد من أبي الحسن علي(٨٥) ابن عبد الواحد بن أحمد الدينوري ، وأبي نصر أحمد(٨٦) ابن عبد الله بن رضوان ، وأبي القاسم بن الحصين(٨٧)، وأبي الحسين محمد(٨٨) بن محمـــد ابن الفراء ، وأبي الأعز قراتكين(٨٩) بن الاسعد بن المذكور ، وأبي العــز أحمد(٩٠) بن عبيد الله بن كادش . وأبي بكر محمد(٩١) بن الحسين المزرفي ، في آخرين . وبأصبهان من أبي الفرج سعيد(٩٢) بن أبي الرجاء الصيرفي ، والحسين(٩٣) بن عبد الملك الخلال ، وأبي القاسم اسماعيل (٩٤) بن محمد ابن الفضل الحافظ وبنيسابور من أبي عبد الله محمد(٩٥) ابن الفضل الفراوي ، وأبي محمد هبة الله بن ســهل السيدي(٩٦) ، وزاهر(٩٧) بن طاهر الشحامي ، وأخيه وجيه(٩٨) . وبهراة ، ومرو من جماعة .

وحدّث بأكثر مسموعاته .

وكان حافظ ثقة في الحديث .

وصنف كتباً منها : تاريخ دمشق،وكتاب الاطراف، وغرائب مالك ، وشيوخ الكتب الستة(٩٩) ، وغير ذلك .

حدث عنه أبو سعد السمعاني ، فقال : هو حافظ متقن ، جمع بين معرفة المتون والاسانيد ، ورحل في طلب الحديث ، وجمع منه مالم يجمع غيره . ورد بغداد سنة عشرين وخمس مئة . مولده في العشر الأخر من المحرم سنة تسع وتسعين واربع مئة .

قلت : توفي الحافظ ابو القاسم بن عساكر في ليلة الاثنين حادي عشر من رجب من سنة احدى وسبعين وخمس مئة .

حدثني عبد الله بن أبي الفضل ، قال : سمعت الحافظ عبد القادر بن عبد الله الرهاوي يقول : قد رأيت الحافظ أبا طاهر السلفي ، والحافظ أبا العلاء الهمذاني ، والحافظ أبو موسى بأصبهان ، ما رأيت فيهم أحفظ ، أو قال : مثل ، أبي القاسم بن عساكر .

ثانيـــا :

قال جمال الدين ابن الدبيثي في الذيل (الورقـــة ١٣٦)(١٠٠) :

علـــي بن الحسن بن هبـــة الله بن عبـــد الله بن الحسين بن عساكر ، أبو القاسم بن أبي محمد الحافظ .

من اهل دمشق .

ممن اشتهر فضله وعلمه ، وشاع ذكره وحفظه ، وعُرِف اتقانه وصدقه .

ســمع الكثير ببلــده ، والعراق ، والحجــاز ، وخراسان . وكتب الكثير ، وحصّل مالم يحصله غيره . ورزقـــه الله حسن التوفيق فيما صنّفه والفه ، فجمـــع تاريخا للشام وبسطه واجاد في جمعه وحسنه ، وغيره من الكتب في علم الحديث وفنونه .

وقدم بغداد مرتين : اولاهما في ســـنة عشرين وخمس مئة . وسمع فيهما الكثير من أبي القاسم ابن الحُصين ، والبارع أبي عبد الله الدباس(١٠١) ، وأبي العز بن كادش ، وأبـــي غالب ابن البنّـــاء وخرّج له مشيخه(١٠٢) في نحو عشرة أجـزاء وتكلم على أحاديثها وأحسن ، ومن أبـــي بكـــر المزرفي ، وأبـــي القاســـم الشروطي(١٠٢) ، وأبـــي القاسم الحريري(١٠٤) ، وأبي منصور بن زريق(١٠٥)، والقاضي أبي بكر الانصاري(١٠٦)، واسماعيل(١٠٧) ابن السمرقندي ، وعبـــد الوهاب(١٠٨) الانماطي ، وخلق يطول ذكرهم .

وسمع بنيسابور من زاهر الشحامي واخيه وجيه، وأبي عبد الله الفراوي ، وغيرهم .

وعاد الى بلده ، وحدّث بالكثير ، وسمع الناس منه سنين .

وبنى له نور الدين محمود بن زنكي امير الشام دار

الحديث بدمشق ووقف عليها وقفاً تصرف غلته الى المشتغلين عليه بالحديث فيها .

وكان موفقا في افعاله وتصنيفه .

حدثنا عنه ابو جعفر احمد بن علي القرطبي بمكة . وغيره .

وذكره تاج الاسلام ابو سعد ابن السمعاني في كتابه الذي كتابنا هذا مذيل عليه فوصفه بالفضل والحفظ والاتقان ، وروى عنه فيه الكثير . وذكرناه نحن لان وفاته تأخرت عن وفاة ابن السمعاني على ما شرطناه .

حدثنا ابو جعفر احمد بن علي بن عتيق المغربي لفظا بالمسجد الحرام في حجتنا الاولى سنة تسع وسبعين وخمس مئة ، قال : اخبرنا الحافظ ابو القاسم علي بن الحسن بن عساكر قراءة عليه بدمشق ، قال : اخبرنا ابو الحسن مكي بن ابي طالب البروجردي بقرأتي عليه بمنى(١٠٩) ، قال : اخبرنا ابو الحسن علي بن احمد بن محمد الصيدلاني بنيسابور ، قال اخبرنا ابو طاهر محمد ابن محمد بن محمش الزيادي ، قال : حدثنا احمد بن محمد بن يحيى بن بلال ، قال : حدثنا يحيى بن الربيع المكي ، حدثنا سفيان بن عيينة ، عن ايوب بن موسى ، عن نبيه بن وهب ، عن ابان بن عفان ، عن عفان فبلغ بها النبي ﷺ قال : « لا تنكح المحرم ولا تخطب » .

انبانا ابو المحاسن عمر(١١٠) بن علي القرشي الدمشقي ، قال : سالت الحافظ ابا القاسم ابن عساكر عن مولده فقال : في محرم سنة تسع وتسعين واربع مئة . وتوفي في حادي عشر رجب سنة احدى وسبعين وخمس مئة .

وقال غيره : في ليلة الاثنين ، وصلي عليه يوم الاثنين ، ودفن عند ابيه واهله .

ثالثا :

وقال ابن النجار البغدادي(١١١) :

علي بن الحسن بن هبة الله بن الحسين ، ابو القاسم بن ابي محمد بن ابي الحسين الشافعي ، عرف بابن عساكر .

من اهل دمشق .

هو(١١٢) امام المحدثين في وقته ، ومن انتهت اليه الرئاسة في الحفظ والاتقان ، (والمعرفة التامة بعلوم الحديث والثقة والنبل وحسن التصنيف والتجويد) (١١٣) وبه ختم هذا الشأن . .

روى (١١٤) عنه جماعة وهو في الحياة وحدثوا عنه بالاجازة في حياته .

سمع بافادة اخيه الاكبر في سنة خمس وخمس مئة من ابي الحسن ابن الموازيني(١١٥) ، وابي القاسم النسيب (١١٦) ، وابي الوحش سبيع بن قيراط المقرىء ، وابي طاهر الحنائي(١١٧) . وسمع هو بنفسه من والده ، وابي محمد ابن الاكفاني(١١٨) ، وابي الحسن بن قبيس (١١٩) ، وطاهر بن سهل الاسفراييني (١٢٠)

وحج في سنة احدى وعشرين . وسمع بمكة ابا محمد عبد الله(١٢١) بن محمد بن اسماعيل المصري .

ورحل الى العراق في سنة عشرين . وسمع الكثير ببغداد من ابن الحصين ، وابي الحسن الدينوري ، وابي العز بن كادش ، وابي القاسم الحريري ، ومحمد بن عبد الباقي الانصاري ، في آخرين . وسمع بالكوفة الشريف ابا البركات عمر(١٢٢) بن ابراهيم الزيدي .

وعاد الى بغداد فأقام بها يسمع الحديث والفقه والخلاف بالمدرسة النظامية (١٢٣) ، ويكتب ويحصل خمس سنين . ثم عاد الى دمشق .

ورحل الى خراسان على طريق أذربيجان ، ودخل نيسابور في سنة تسع وعشرين ، وسمع ابا عبد الله الفراوي ، وابا محمد السيدي ، وزاهراً الشحامي ، واخاه وجيهاً . وبمرو من يوسف (١٢٤) بن ايوب الهمداني . وسمع ببسطام ، ودامغان ، والري ، وزنجان ، وسمنان .

وعاد الى دمشق يملي ، ويحدث ، ويصنف .

وسمع منه جماعة من شيوخه .

وكان اماما ، حجة ، ثقة ، نبيلا .

حدث ببغداد ، وروى عنه من اهلها ابو بكر بن كامل ، وكان أسن منه (١٢٥) .

قال سعد الخير (١٢٦) : ما رأينا في سن الحافظ ابي

القاسم مثله ، وله من المصنفات : التاريخ . الاشراف على معرفة الأطراف . المعجم ، لا سيما شيوخه . الموافقات عن شيوخ الأئمة الثقات، اثنان وسبعون جزءا .

قلت : وأملى اربع مئة مجلسا في جامع دمشق ، وكان يختمها بأبيات من شعره . ولقد سمعت شيخنا عبد الوهاب (١٢٧) بن علي الأمين يقول (١٢٨) كنت يوما مع الحافظ أبي القاسم ابن عساكر وابي سعد ابن السمعاني نمشي في طلب الحديث ولقاء الشيوخ ، فلقينا شيخا فاستوقفه ابن السمعاني ليقرأ عليه شيئا ، وطاف على الجزء الذي هو سماعه في خريطته (١٢٩) فلم يجده وضاق ، فقال (١٣٠) له ابن عساكر : ما الجزء الذي هو سماعه ؟ فقال : كتاب « البعث والنشور » لابن ابي داود ، سمعه من أبي النصر ابن النرسي (١٣١) ، فقال له : لا تحزن . وقرأ عليه من حفظه ، أو بعضه . الشك من شيخنا .

وقرات (١٣٢) بخط الحافظ معمر بن الفاخر في معجمه : أخبرني ابو القاسم علي بن الحسن الدمشقي الحافظ من لفظة بمنى املاء ، وكان أحفظ من رايت من طلبة الحديث والشبان . وكان شيخنا اسماعيل (١٣٣) ابن محمد يفضله على جميع من لقيناهم من أهل اصبهان وغيرها . قدم اصبهان ، وسمع ، ونزل في داري ، وما رايت شابا أورع ولا اتقن ولا أحفظ منه . وكان مع ذلك فقيها سنيا — جزاه الله خيرا وكثر في الاسلام مثله — . أفادني في الرحلة الأولى والثانية ببغداد كثيرا . وسألته عن تأخره في الرحلة الاولى عن المجيء الى اصبهان فقال لم تأذن لي أمي (١٣٤) .

(وقال السمعاني : ابو القاسم كثير العلم غزير الفضل حافظ ، ثقة ، متقن ، دَيّن، خير، حسن السمت، جمع بين معرفة المتون والأسانيد . صحيح القراءة ، متثبت محتاط . رحل وتعب وبالغ في الطلب الى ان جمع ما لم يجمع غيره ، وأربى على أقرانه . ودخل نيسابور قبلي بشهر او نحوه في سنة تسع وعشرين فسمع بقراءتي وسمعت بقراءته مدة مقامنا بها ، الى أن اتفق خروجه الى هراة وخروجي الى أصبهان . واجتمعت به ببغداد بعد رجوعه في سنة ثلاث وثلاثين ، وسمعت منه كتاب « المجالسة » بدمشق ومعجم شيوخه . وكان قد شرع في التاريخ الكبير لمدينة دمشق وصنف التصانيف وخرج التخاريج (١٣٥)) . وبعد انصرافي الى خراسان كانت كتبه تصل الي وانفد اليه جوابها .

كتب الى أبو محمد القاسم بن علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي ، قال : ولد أبي في المحرم سنة تسع وتسعين واربع مئة .

سمعت يوسف بن خليل بن عبد الله الدمشقي بحلب يقول : سمعت ابا محمد القاسم بن علي ابن هبة الله الشافعي يقول : توفي والدي ليلة الاثنين ثاني عشر رجب سنة احدى وسبعين وخمس مئة ، ودفن بمقابر باب الصغير .

الهوامش والمصادر :

(١) ابن نقطة : التقييد ، الورقة ١٧٧ (نسخة الازهر) ، وابن الدبيثي : ذيل تاريخ مدينة السلام ، الورقة ١٣٦ (كيمبرج) والذهبي: تاريخ الاسلام ، الورقة ٤٠ (احمد الثالث ١٤/٢٩١٧) وغيرها .

(٢) ابن الجوزي : المنتظم ١٩٧/٩ فما بعد وابن الاثير : الكامل (حوادث ٥١٢ فما بعد) ، وابن الكازروني : مختصر التاريخ ٢١٩ فما بعد .

(٣) تاريخ الاسلام ، الورقة ١٩٠ (أحمد الثالث ١٤/٢٩١٧) .

(٤) ابن الدبيثي : ذيل م٢ (بتحقيقنا) وابن الجوزي : المنتظم ٢٤٢/٩ ، وسبطة ٦٧/٨ والذهبي : المختصر المحتاج ٨٢/١ .

(٥) ابن الجوزي : المنتظم ٥٤/١٠ فما بعد ، وابن الكازروني ٢٢٤ .

(٦) ابن الجوزي : المنتظم ٦٠/١٠ فما بعد ، والبغدادي : تواريخ آل سلجوق ٢٣٤ ، وابن الاثير (حوادث ٥٢٠ فما بعد) وانظر الطاهر : الشعر العربي في العراق ٤٣/١ .

(٧) انظر كتابنا : تواريخ بغداد التراجمية (بغداد ١٩٧٤) ، ومقدمتنا لتاريخ ابن الدبيثي ١٤/١ . وراجع السخاوي في الاعلان ، ص ٦٢٢ .

(٨) انظر التفاصيل في كتاب المرحوم الدكتور ناجي معروف : علماء النظاميات (بغداد ١٩٧٣) .

(٩) سمع ابن عساكر على جملة من علماء المشرق ببغداد حينما قدموا اليها عند الحج انظر مثلا : معجم شيوخه : الورقة ١٠،٨٧، ١٢، ١٤،١٤، ١٥ .. الخ . وراجع تاريخ الاسلام للذهبي ، الورقة ١٥٢، ١٧٩ (ايا صوفيا) .

(١٠) انظر بحثنا : اثر دراسة الحديث في تطور الفكر العربي (بغداد ١٩٧٩) .

(١١)انظر تفاصيل رحلات الخطيب الى دمشق في كتاب المرحوم يوسف العش : الخطيب البغدادي ٣٨ — ٣٩ ، والعمري : موارد الخطيب ٤٣ — ٤٤ وراجع تاريخ الخطيب ٤٠٣/٩ ، ٤٤٧/١٤ والذهبي تذكرة ١١٣٨ وغيرها .

(١٢) الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ٢٤١ — ٢٤٢ (ايا صوفيا ٣٠١٠) ، السبكي : طبقات الشافعية ٤٦/٧ ، وابن كثير : البداية ٢١٨/١٢ .

(١٣) الذهبي:تاريخ الاسلام ، الورقة ٢٧١ — ٢٧٢ (ايا صوفيا ٣٠١٠) والعيني : عقد الجمان ١٦/ الورقة ١٤٧ .

(١٤) انظر سبط ابن الجوزي ١٧٦/٨ ، والذهبي في تاريخ الاسلام ، الورقة ٢٣٣ ، (ايا صوفيا ٣٠١٠) ، والعبر ٩٣/٤ ، والعيني : عقد الجمان ١٦ / الورقة ١١٩ .

(١٥) الذهبي : تاريخ الاسلام الورقة ، ١٩٤ — ١٩٥ (ايا صوفيا ٣٠١٠) ، والعبر ٨٢/٤ ، وابن العماد في الشذرات ٩٥/٤ .

(١٦) وتصحفت في وفيات ابن خلكان الى : ٥٢٠ .

(١٧) ابن خلكان : وفيات ٣١١/٣ (ط . احسان عباس) والذهبي في تاريخ الاسلام ، الورقة ٢٩٢ (احمد الثالث ١٣/٢٩١٧) وابن كثير ٢٩٤/١٢ ، والاسنوي في طبقات الشافعية ٢١٥/٢ — ٢١٦ .

(١٨) الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ٢٦٩ (ايا صوفيا ٣٠١٠) .

(١٩) نفسه ، الورقة ٤٢ (احمد الثالث ١٤/٢٩١٧) .

(٢٠) الخطيب البغدادي : الجامع لاخلاق الراوي وآداب السامع ، الورقة ١٧٠ (نسخة مكتبة البلدية بالاسكندرية رقم ٣٧١١ ج) .

(٢١) نفسه ، الورقة ١٧١ — ١٧٥ .

(٢٢) الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ٤٢ (احمد الثالث ١٤/٢٩١٧) .

(٢٣) الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ١٣٩ (ايا صوفيا ٣٠١٠) .

(٢٤) الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ٤٠ (احمد الثالث ٢٩١٧ / ١٤) ، والورقة ١٧٢ (ايا صوفيا ٣٠١٠) .

(٢٥) ابن خلكان : وفيات ٣٠٩/٣ .

(٢٦) في تبيين كذب المفتري (٣١٨) : « سليمان » محرف .

(٢٧) ابن الجوزي المنتظم ٢٢/١٠ ، والسبكي : طبقات ٦٢/٧، وابن الاثير في الكامل ٢٥٦/١٠ ، والذهبي في تاريخ الاسلام ، الورقة ١٦٨ (ايا صوفيا ٣٠١٠) .

(٢٨) العيني : ١٧ / الورقة ٢٤ — ٣٥ .

(٢٩) الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ٤٠ (احمد الثالث ١٤/٢٩١٧) ، ياقوت : ارشاد ١٤٠/٥ ، السبكي ٢١٧/٧ .

(٣٠) تبيين كذب المفتري ٣١٩ — وانظر الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ١٦٨ (ايا صوفيا ٣٠١٠) .

(٣١) ياقوت : ارشاد ١٤٠/٥ ، والذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ٤٠ (احمد الثالث ١٤/٢٩١٧) .

(٣٢) هذا قول السمعاني كما نقله السبكي ٤٥/٧ .

(٣٣) ابن عساكر : تبيين ٣٢٥ — ٣٢٦ .

(٣٤) ابن عساكر : معجم الشيوخ ، الورقة ٣٧ .

(٣٥) الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ١٥٦ (ايا صوفيا ٣٠١٠) .

(٣٦) ابن عساكر : معجم الشيوخ ، الورقة ١٦٦ .

(٣٧) الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ١٥٩ (ايا صوفيا ٣٠١٠) .

(٣٨) معجم الشيوخ : الورقة ٩٧ .

(٣٩) الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ١٥٢ من النسخة السابقة .

(٤٠) معجم الشيوخ ، الورقة ١١ .

(٤١) الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ١٦٧ من نسخة ايا صوفيا ٣٠١٠ .

(٤٢) معجم الشيوخ ، الورقة ٩٤ .

(٤٣) الذهبي ، تاريخ الاسلام ، الورقة ١٧٠ من النسخة اعلاه .

(٤٤) معجم الشيوخ ، الورقة ١٣٥ .

(٤٥) الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ١٧٩ من النسخة اعلاه .

(٤٦) معجم الشيوخ ، الورقة ١٣ .

(٤٧) الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ١٨٢ من مجلد ايا صوفيا المذكور .

(٤٨) و في سماعاته القديمة كان يسمى « نصر الله » انظر : ابن الدبيثي : الذيل الورقة ٢٠ (باريس ٥٩٢١) ، والمنذري : التكملة ٢٦٤/١ (بتحقيقنا) ، والذهبي : سير اعلام النبلاء ١٣/ الورقة ٦١ وغيرها .

(٤٩) الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ٤١ (احمد الثالث ١٤/٢٩١٧) ، والسبكي في الطبقات ٢٢١/٧ .

(٥٠) الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ١٥٩ — ١٦٠ .

(٥١) ابن عساكر : معجم الشيوخ ، الورقة ٢٢٧ ، ابن الجوزي : المنتظم ٢٤/١٠ ، وابن الاثير ٢٥٦/١٠ وابن كثير ٢٠٣/١٢ والذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ١٧٣ (ايا صوفيا ٣٠١٠) ، والعيني ١٧/الورقة ٣٥ .

(٥٢) ابن عساكر : معجم الشيوخ ، الورقة ٩ ، والذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ١٧٤ (ايا صوفيا ٣٠١٠) والمنتظم ٢٨/١٠ وابن الاثير ٢٦٠/١٠ ، والعيني ١٧/الورقة ٤٠ .

(٥٣) ابن عساكر : معجم الشيوخ ، الورقة ٢٠٩ ، وابن الاثير ٢٦٠/١٠ ، والمنتظم ٢٩/١٠ وسبط ابن الجوزي ١٤٤/٨ وابن رجب ١٧٧/١ والذهبي في تاريخ الاسلام ، الورقة ١٧٦ (اياصوفيا ٣٠١٠) والعبر ٦٩/٤ .

(٥٤) ابن عساكر : معجم الشيوخ ، الورقة ١٤٤ ، الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ١٧٩ من المجلد السابق ، والمنتظم ٣٢/١٠ وابن الاثير ٤/١١ والعيني ١٧/الورقة ٥٣ .

(٥٥) ابن عساكر : معجم الشيوخ ، الورقة ٢٣٠ ، والذهبي تاريخ الاسلام ، الورقة ٢٠٩ من مجلد ايا صوفيا ٣٠١٠ ، والمنتظم ٧١/١٠ ، وابن الاثير ٢٢/١١ ، والعيني ١٧/الورقة ٩٥ ، وابن كثير ٢١٢/١٢ ، والشذرات ٩٧/٤ .

(٥٦) ابن عساكر : معجم الشيوخ ، الورقة ١١٠ ، والذهبي: تاريخ الاسلام ، الورقة ٢٣٦ (ايا صوفيا ٣٠١٠) .

(٥٧) ابن عساكر : معجم الشيوخ ، الورقة ١٩٢ ، الذهبي: تاريخ الاسلام ، الورقة ٢٣٩ (ايا صوفيا ٣٠١٠) ، والمنتظم ٦٢/١٠ وابن الاثير ٣٣/١١ .

(٥٨) ابن عساكر : معجم الشيوخ ، الورقة ٢٧ . المنتظم ٩٨/١٠ ، وسبط ابن الجوزي ١٨١/٨ ، وابن كثير ٢١٨/١٢ .

(٥٩) الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ٢٤٢ (ايا صوفيا ٣٠١٠) .

(٦٠) ابن عساكر : معجم الشيوخ ، الورقة ١٣٤ ، المنتظم ١٠٨/١٠ ، وابن الاثير ٤٠/١١ ، والذهبي : العبر ١٠٤/٤ ، وابن كثير ٢١٩/١٢ وابن العماد في الشذرات ١١٦/٤ ، والعيني ١٧/ الورقة ١٣٧ .

(٦١) الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ٢٥٧ (ايا صوفيا ٣٠١٠) .

(٦٢) ابن عساكر : معجم الشيوخ ، الورقة ١٩٦ ، الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ٢٦٨ (ايا صوفيا ٣٠١٠) وانظر : المنتظم ١١٥/١٠ ، وابن الاثير ٤٢/١١ ، والنجوم الزاهرة ٢٧٦/٦ والعيني : ١٧/الورقة ١٤٤ من مصورة دار الكتب بالقاهرة .

(٦٣) الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ١٣٩ (ايا صوفيا ٣٠١٠) .

(٦٤) نفسه ، الورقة ١٤٨ .

(٦٥) نفسه ، الورقة ١٧٦ .

(٦٦) نفسه ، الورقة ١٨٠ .

(٦٧) نفسه ، الورقة ٢٠٠ .

(٦٨) ياقوت ، ارشاد ١٤٥/٥ ومثل ذلك نقل الذهبي هذا القول عن ابي العلاء الهمذاني في (تاريخ الاسلام) ، الورقة ٤١ (احمد الثالث ١٤/٢٩١٧) وانظر السبكي في طبقاته الكبرى ٢١٨/٧ .

(٦٩) الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ٤٠ (احمد الثالث ١٤/٢٩١٧) .

(٧٠) انظر الفهرس الذي صنعه محقق الكتاب الاستاذ الفاضل الدكتور صلاح الدين المنجد في آخر المجلدة الاولى لشيوخه .

(٧١) الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ١٧٦ (ايا صوفيا ٣٠١٠) .

(٧٢) قارن عناصر الترجمة عند ابن عساكر بما كتبناه عن عناصر الترجمة عند المنذري (ت ٦٥٦) في كتابنا : المنذري وكتابة التكملة ٢٤ وانظر الفصل الثالث من الباب الثاني من كتابنا : الذهبي ومنهجه في كتابه تاريخ الاسلام ص ٣٥٩ فما بعد حيث فصلنا القول في عناصر الترجمة عند الذهبي .

(٧٣) ياقوت : ارشاد ١٤٤/٥ ، والسبكي ٢١٧/٧ .

(٧٤)الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ٤٠ (احمد الثالث ٢٩١٧/ ١٤) .

(٧٥) الذيل ، الورقة ١٣٦ من نسخة كيمبرج . وذكر الذهبي في العبر ان مشيخة ابن البناء هذه من المشيخات المروية ٧١/٤ .

(٧٦) الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ٣٠٣ (ايا صوفيا ٣٠١٠) .

(٧٧) المنتظم ١٣٧/١٠ .

(٧٨) العبر ٢١٣/٥ .

(٧٩) انظر مثلا الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ١٧٤ ، ١٧٩ ، ١٨٢ ، ١٩٦ .. الخ (ايا صوفيا ٣٠١٠) .

(٨٠) انظر مثلا التبيين ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ .

(٨١) انظر مثلا تاريخ الاسلام للذهبي ، الورقة ١٧٦ (أيا صوفيا ٣٠١٠) .

(٨٢) توفي سنة ٥٠٨ (الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ٨٢ من مجلد ايا صوفيا ٣٠١٠ وأصعد نسبه الى جعفر الصادق . والعبر ١٧/٤ .

(٨٣) توفي سنة ٥٠٨ (الذهبي : العبر ١٦/٤) .

(٨٤) توفي سنة ٥٠٩ (العبر ١٨/٤) .

(٨٥) توفي سنة ٥٢١ (الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ١٠٣ من المجلد المذكور اعلاه .

(٧٦) انظر : ابن عساكر : معجم الشيوخ ، الورقة ٨ . وذكر الذهبي انه توفي سنة ٥٢٤ (تاريخ الاسلام ، الورقة ١٥٥ من المجلد السابق) .

(٨٧) هبة الله بن محمد ابن الحصين الشيباني المتوفى سنة ٥٢٥ وهو مشهور .

(٨٨) صاحبطبقات الحنابلة المتوفى سنة ٥٢٦ (تاريخ الاسلام الورقة ١٧٦ أيا صوفيا ٣٠١٠) .

(٨٩) توفي سنة ٥٢٤ (تاريخ الاسلام ، الورقة ١٥٩) .

(٩٠) ابن عساكر : معجم الشيوخ ، الورقة ٩ وذكر الذهبي انه توفي سنة ٥٢٦ (تاريخ الاسلام ، الورقة ١٧٤) .

(٩١) توفي سنة ٥٢٧ (تاريخ الاسلام ، الورقة ١٨٠) .

(٩٢) توفي سنة ٥٣٢ (الحاجي : الوفيات « بتحقيقنا » رقم ١٠٥ وتعليقنا هناك) .

(٩٣) ذكر عبد الرحيم الحاجي انه توفي سنة ٥٣٢ (الوفيات رقم ١٠٨) وراجع : ابن نقطة في التقييد ، الورقة ٨٣ ، واكمال الاكمال الورقة ١٤ من نسخة الظاهرية .

(٩٤) ويعرف بالطلحي ، وهو صاحب كتاب « سير السلف الصالحين » المشهور توفي سنة ٥٣٥ كما ذكر الحاجي في الوفيات رقم ١٢٠ وابن نقطة في التقييد ، الورقة ٦٢ .

(٩٥) توفي سنة ٥٣٠ كما في انساب السمعاني ولباب ابن الاثير وغيرهما ولاجله رحل الحافظ ابن عساكر الى الشرق .

(٩٦) في الاصل « التستري » ، وهو وهم من الناسخ ، والصواب ما اثبتنا انظر الذهبي في العبر ٩٣/٤ وتاريخ الاسلام ، الورقة ٢٢٨ من المجلد المذكور سابقا ، وابن العماد في الشذرات ١٠٣/٤ وقال ابن عساكر في معجم شيوخه : اخبرنا هبة الله بن سهل بن عمر بن محمد بن الحسين بن محمد بن الهيثم بن القاسم بن مالك بن ابي الهيثم ، ابو محمد ... البسطامي ثم النيسابوري المعروف بالسيدي الفقيه بقراءتي عليه بنيسابور قال ... (الورقة ٢٣٦).

(٩٧) توفي سنة ٥٣٣ (ابن الجوزي : المنتظم ٧٩/١٠ ، وابن الاثير في الكامل ٣٠/١١ والعيني في عقد الجمان ١٦/ الورقة ١٠٦ من مصورة القاهرة .

(٩٨) توفي سنة ٥٤١ (المنتظم ١٤٤/١٠ ، والعبر ١١٣/٤ وغيرهما) .

(٩٩) هو كتاب « معجم شيوخ الائمة النبل » المشهور عند اهل هذا الفن . عندي منه نسخه بخطي .

(١٠٠) مما تجدر الاشارة اليه ان الحافظ ابا عبد الله الذهبي المتوفى سنة ٧٤٨ هـ قد اختصر هذه الترجمة في «المختصر المحتاج اليه من تاريخ الحافظ ابي عبد الله» ١٢١/٣ ــ ١٢٢ ثم علق عليها زيادة من عنده والزيادة هذه موجودة في تاريخ الاسلام وغيره من كتبه .

(١٠١) هو الحسين بن محمد المتوفى سنة ٥٢٤ (الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ١٥٦ ــ ١٥٧) .

(١٠٢) ذكر الذهبي في العبر انها من المشيخات المروية ، وتوفي ابن البناء سنة ٥٢٧ (ابن عساكر : معجم الشيوخ ١٩ ، والذهبي في تاريخ الاسلام ، الورقة ١٧٧ من مجلد ايا صوفيا رقم ٣٠١٠) .

(١٠٣) هو هبة الله بن عبد الله بن احمد المتوفى سنة ٥٢٨ (تاريخ الاسلام ، الورقة ١٨٦ من مجلد ايا صوفيا ٣٠١٠) .

(١٠٤) هبة الله بن احمد بن عمر المقرىء المعروف بابن الطبر المتوفى سنة ٥٣١ (ابن عساكر : معجم الشيوخ ، الورقة ٢٣٠ ، وتاريخ الاسلام ، الورقة ٢٠٩ من المجلد المذكور) .

(١٠٥) عبد الرحمن بن محمد بن زريق الشيباني القزاز المتوفى سنة ٥٣٥ (ابن عساكر : معجم الشيوخ الورقة ١١٠ ، وتاريخ الاسلام ، الورقة ٢٣٦) .

(١٠٦) توفي سنة ٥٣٥ وهو محمد بن عبد الباقي الانصاري المعروف بقاضي المارستان (تاريخ الاسلام ، الورقة ٢٣٩) .

(١٠٧) اسماعيل بن احمد الدمشقي المولد البغدادي الدار . توفي ببغداد سنة ٥٣٦ (ابن عساكر معجم الشيوخ الورقة ٢٧ ، والمنتظم ٩٨/١٠ وغيرها) .

(١٠٨) عبد الوهاب بن المبارك الانماطي المحدث المشهور المتوفى سنة ٥٣٨ (قارن معجم الشيوخ ، الورقة ١٣٤) .

(١٠٩) قارن معجم شيوخ ابن عساكر ، الورقة ٢٤٦ . وذكره أبو سعد السمعاني في التحبير ٣١٣/٢ وذكر انه توفي بين سنتي ٥٢٥ ــ ٥٣٠ كما ذكره في معجم شيوخه ، الورقة ٢٦٥ .

(١١٠) كان من رفاق الحافظ ابن عساكر ، وقد توفي سنة ٥٧٥ وهو معروف جدا .

(١١١) اعتمدت في هذه الترجمة ، خلا القسم الاخير منها على ما جاء في انتقاء احمد بن ايبك الدمياطي الحسامي من تاريخ ابن النجار ، والذي سماه : « المستفاد من ذيل تاريخ بغداد » الورقة ٥٥ واشرت بعد ذلك الى الزيادات التي جاءت في الكتب الاخرى .

(١١٢) هذه اللفظة زيادة من السبكي ٢١٨/٧ .

(١١٣) ما بين الحاصرتين اضافة من طبقات السبكي ٢١٨/٧ وقد اوردها الذهبي في تاريخ الاسلام ، الورقة ٤٢ (احمد الثالث ١٤/٢٩١٧) لكنه حذف منها قوله : « بعلوم الحديث » كما حذف من كلمة « والنبل » الى نهاية العضادة .

(١١٤) من هنا والى نهاية السطر اضافة من تاريخ الاسلام ، الورقة ٤٢ من النسخة السابقة .

(١١٥) ابو الحسن علي بن الحسن السلمي المتوفى سنة ٥١٤ هـ كما في تاريخ الاسلام ، والعبر للذهبي ٣٣/٤ .

(١١٦) ابو القاسم علي بن ابراهيم بن العباس الحسيني المتوفى سنة ٥٠٨ وقد مر التعريف به .

(١١٧) ابو طاهر محمد بن الحسين بن محمد الدمشقي المتوفى سنة ٥١٠ هـ (العبر ٢١/٤) .

(١١٨) هبة الله بن احمد الانصاري المعروف بابن الاكفاني صاحب كتاب « الوفيات » المتوفى سنة ٥٢٤ (العبر ٦٣/٤) .

(١١٩) علي بن احمد بن منصور الغساني . و« قبيس » بضم القاف وليس بالفتح كما جاء في العبر من وهم المحقق ، وقد وجدتها مقيدة بالضم بخط الحافظ الذهبي (تاريخ الاسلام ، الورقة ١٩٦ ايا صوفيا ٣٠١٠) .

(١٢٠) توفي سنة ٥٣١ هـ وكما في العبر ٨٥/٤ وغيره ، وقال الذهبي في تاريخ الاسلام : « روى عنه الحافظ ابو القاسم وقال : كان شيخا عسرا مع جهله بالحديث وعدم ثقة ، حك اسم اخيه من كتاب « الشهاب للقضاعي واثبت بدله اسمه » الورقة ٢٠٦ من نسخة ايا صوفيا رقم ٣٠١٠ .

(١٢١) المعروف بابن الغزال ـ بالتخفيف ـ . وقد سمع منه ابو القاسم حديثا واحدا تلقينا لصمم شديد حصل لابن الغزال هذا قال التقي الفاسي : « وقد رويناه من طريقه في اربعينه البلدانية » العقد الثمين ٢٤٢/٥ . وتوفي سنة ٥٢٤ (تاريخ الاسلام ، الورقة ١٥٧ من نسخه اياصوفيا ٣٠١٠ .

(١٢٢) توفي سنة ٥٣٩ (تاريخ الاسلام ، الورقة ٢٦٦ ـ ٢٦٧ من النسخة السابقة) .

(١٢٣) قد يلبس قول ابن النجار هذا فيظن القارىء انه لم يسمع الحديث بغير المدرسة النظامية ، والواقع ان الحافظ سمع في معظم محال بغداد كما يتضح من ذكره هذه المحال في معجم شيوخه .

(١٢٤) كان صوفيا مشهورا توفي سنة ٥٣٥ (تاريخ الاسلام ، الورقة ٢٤١ ـ ٢٤٢ من النسخة السابقة .

(١٢٥) ولد ابو بكر المبارك بن كامل الخفاف سنة ٤٩٠ وتوفي سنة ٥٤٣ .

(١٢٦) ابو الحسن سعد الخير بن محمد بن سهل الانصاري البلنسي الحافظ المشهور المتوفى سنة ٥٤١ (العبر ١١٢/٤ ، وراجع تعليقنا في هامش التكملة للمنذري ٢١٨/١) .

(١٢٧) تاخرت وفاة عبد الوهاب المعروف بابن سكينة الى سنة ٦٠٧ هـ وهو زاهد العراق المشهور .

(١٢٨) نقل هذه الحكاية غير واحد منهم الذهبي والسبكي وغيرهما .

(١٢٩) الخريطة : شيء كالحقيبة من قماش او غيره يعلقها المحدث بجسمه ويضع فيها كتبه .

(١٣٠) في المستفاد : « قال » وما اثبتناه من السبكي .

(١٣١) في طبقات السبكي : « الزينبي » محرف ، وهو منسوب الى « نرس » النهر المشهور بالعراق (راجع الانساب للسمعاني) وانظر مشتبه الذهبي ٨٣ ـ ٨٤ .

(١٣٢) من هنا والى نهاية الفقرة نقلها الذهبي عن ابن النجار في تاريخ الاسلام (الورقة ٤٢ من مجلد احمد الثالث ١٤/٢٩١٧) وفي سير اعلام النبلاء ١٢/الورقة ٢٨٠ وتذكرة الحفاظ ١٣٣٣ مع بعض الحذف . ومعمر بن عبد الواحد هذا قرشي اصبهاني ولد سنة ٤٩٤ وتوفي سنة ٥٦٤ وكان من الحفاظ المشهورين .

(١٣٣) هو المعروف بالطلحي المتوفى سنة ٥٣٥ وقد سبق التعريف به .

(١٣٤) الى هنا انتهى قول ابن النجار كما جاء في كتب الذهبي ومنها : تاريخ الاسلام .

(١٣٥) ما بين العضادتين اضافة مني نقلتها من تاريخ الاسلام للذهبي لايماني بان ابن النجار نقل هذا القول او اكثر منه او اقل عن السمعاني في ذيل تاريخ بغداد ، يدل على ذلك ما بقي من نقل عنه في الورقة ٢١٣ من نسخة الظاهرية من تاريخ ابن النجار وهو قوله : وبعد انصرافي الى خراسان .. الخ . وقد نقلنا ما تبقى من الترجمة عن المجلد المحفوظ بالظاهرية برقم ٤٢ وهو آخر ترجمة الحافظ ابن عساكر في تاريخ ابن النجار .

من تاريخ التاريخ الكبير

مطاع الطرابيشي

لايتم الحديث عن ابن عساكر من غير الحديث عن تاريخه الكبير ، بل نكاد نقول : لا يكاد يُذكر ابن عساكر الا من خلال تاريخه الكبير ، وليس في هذا القول أي مجازفة ، فالعلماء في تاريخ هذه الامة كثيرون والحمد لله ، فما الذي ميّز أبا القاسم في غِمارهم ، وقدّم مكانه في صفوفهم ؟ أليس التاريخ الكبير ؟ بل لقد أفاد هذا التاريخ طيب الذكر كل من تعلق منه بسبب قريب •

واذا كانت قصة هذا التاريخ العظيم قصة تطول ، ولا يمكن لروايتها أن تأخذ حظها من الراحة الا بين دفتي كتاب ، لذلك نستأذن في هذه العُجالة ، أن نقبس من البحث ما لعله يمتع ويفيد ، فنصرف القول الى الحديث عن : « أوهام حول التاريخ » •

الوهم الأول والأكبر : في هذه القاعدة التي ما زالت متبعة في تحقيق التاريخ الكبير ، وهي : أن يُصرف النظر عن تخريج الأحاديث(١) •

(١) مقدمة المجلدة الاولى : ٤٨ ، مقدمة مجلد (عاصم — عايذ) .

ان تاريخ دمشق الكبير ديوان حديثي من ألفه الى يائه ، جمعه محدّث ، وأخرجه للناس محدّث ، ورواه على مر الأزمان المحدثون • حتى الذين نسخوا التاريخ ، أو انتخبوا منه ، انما كانوا من جلة المحدثين وأئمتهم : كالبرزالي والمقدسي وأبي شامة والذهبي والعيني وابن حجر والسيوطي • فكيف يُصرف النظر عن تخريج أحاديثه ؟ !

قد يكون هنالك بعض عذر لأولئك الذين وضعوا نهج التحقيق أنهم رأوا ـ وهذه عبارتهم ـ: « ان الغاية من تحقيق الكتاب تقديم نص صحيح » ، فوجب لذلك في رأيهم « أن يوجز في التعليق كيلا يُثقل النص بتعليقات طوال » •

قلت : ولكن الحواشي في بعض المطبوع من مجلدات التاريخ قد أثقلت فعلا بتلك التعليقات الطوال ، في تراجم الرجال وتصحيفات بعض الاصول • أفيكون ذلك أجلّ من تخريج الأحاديث ؟!

وقد يقول قائل عن التاريخ : انه معدن الأحاديث الضعيفة ، يحط بذلك ، في زعمه ، من

قدر ذخيرته الحديثية ، ويزهد بالتالي في الاشتغال بتخريج تلك الاحاديث .

وقد يحتاج بيان خطل هذا القول الى شيء من البسط والاتساع ليس هذا أوانه ، ولكن حسبنا أن نقول :ان هذا الكتاب العظيم قد ضم بين دفتيه مكتبة حديثية ضخمة ، جمعت نفائس من هذا العلم قلّ لها نظير ، وبذلك فان تخريج أحاديثه يفتح ـ باذن الله ـ آفاقا رحبة في ميدان علم الحديث ، ويلقي أضواء مبصرة على كثير من كتب الملخصات التي جمعها المتأخرون ، تلك الملخصات التي أوردت المتون وسكتت عن الاسانيد ، فعم على الباحثين أمر كثير من تلك المتون ، وما مثال « الدر المنثور » للسيوطي عنا ببعيد .

ثانيا ـ وهم التجزئة والمراحل الثلاث :

كان للقدماء في هذا المجال بعض أوهام ، سحبت ظلالها على الباحثين المحدثين ، فأثمرت فروضا غير صحيحة ، ينفيها واقع الحال في هذا الكتاب . وهذه القصة من أولها :

ـ قال العماد الاصبهاني في خريدة القصر(١) : « فلما وصلت الى الشام ، وأقمت بدمشق ، ترددت اليه (يعني : الى الحافظ ابن عساكر) ورأيته قد صنّف تاريخ دمشق ، وذكر أنه في سبعمائة كراسة ، كل كراسة عشرون ورقة . »

قلت : وهذا هو الوهم الاول . ولعله سهو قلب « السبعين وخمسمائة » الى « سبعمائة » في ذاكرة العماد .

ـ ثم جاء الذهبي فقال في « سير أعلام النبلاء »(٢) ـ وهو يعدد مصنفات الحافظ ابن عساكر : « فمن ذلك تاريخه في ثمانمائة جزء ـ الجزء عشرون ورقة ، فيكون ستة عشر ألف ورقة » .

فأضاف وهما ثانيا، حين ظن أن جزء التجزئة الثمانينية يبلغ عشرين ورقة .

ـ أما الوهم الثالث فجاء من أحمد بن مصطفى ، المعروف بطاشكبري زاده ، قال في مفتاح السعادة ، أثناء حديثه عن الحافظ أبي القاسم(٣) :

« صنّف التاريخ الكبير لدمشق في ثمانين مجلدة بخطه » فزعم أن أبا القاسم كتب الثمانين بخطه ، وهذا هو الوهم الثالث .

هذا ما كان من أمر القدماء ، ولكنه لم يقتصر عليهم ، فكان من ثمره بين المحدثين فكرة المراحل الثلاث التي افترضها الاستاذ الدكتور صلاح الدين المنجد في مقدمته للمجلدة الاولى من « تاريخ مدينة دمشق »(١) قال :

« ولا شك أن التاريخ مرّ في تأليفه بثلاث مراحل : فقد كان في أول الأمر في خمسمائة وسبعين جزءا ، أي أنه كان في سبع وخمسين مجلدة . فلما وصل العماد الأصبهاني الى دمشق في سنة اثنتين وستين وجد الحافظ قد صنّف التاريخ « وذكر الحافظ أنه في سبعمائة كراسة ، كل كراسة عشرون ورقة » ومعنى ذلك أنه صار سبعين

(١) قسم شعراء الشام : ٢٧٦/١ .
(٢) سير النبلاء : ٢٧٩/١٢ أ .
(٣) مفتاح السعادة : ٢١٦/١ .
(١) المقدمة : ٣٢ .

مجلدة . ثم ازدادت أجزاء التاريخ ، واذا بابنه القاسم يقول : « والنسخة الجديدة ثمانمائة جزء » . وقد بيّضه القاسم بخطه في ثمانين مجلدة .

ثم اعادها مع بعض زيادة في دائرة معارف البستاني(٢) ، أذ جعل جزء النسخة الثمانينية عشرين ورقة ، وعزا التجزئة الاخيرة الى أبي القاسم نفسه .

ورحلت فكرة المراحل الثلاث هذه ، فاستفادها المستشرق الاستاذ « إليسييف » في مقدمة كتابه : « وصف مدينة دمشق »(٣) ثم كررها في ترجمته لابن عساكر في الموسوعة الاسلامية الجديدة (٤) .

أما الاستاذ محمد كرد علي ، رحمه الله ، فقد حسِب أن التجزئة الثمانينية من عمل المصنّف ، فقال في تصديره للمجلدة الأولى من التاريخ(٥) : « حافظ المجمع على تجزئة المصنف ، وسيكون التاريخ في ثمانين مجلدة ، كل مجلدة في عشرة أجزاء من الأصل » .

ـ وعلى المنوال نفسه نسج الاستاذ الدكتور شكري فيصل في مقدمته لمجلد (عاصم ـ عايذ)(١) ، إذ اعتمد التحريف الوارد في نص الخريدة ، فأعاد ذكر السبعمائة كراسة ، وجعل التجزئات ثلاثا ، واعتبر جزء النسخة الثمانينية عشرين ورقة .

هذا ما كان من أمر الاوهام سابقة ولاحقة ، ولا بد في معالجتها من بيان أمر التجزئة في الكتاب على حقيقته فنقول :

للتاريخ تجزئتان فحسب : تجزئة المصنف ، في خمسمائة وسبعين جزءا ، كل جزء في عشرين ورقة .

ثم تجزئة ابنه القاسم في النسخة المستجدة ، ثمانمائة جزء ، كل جزء في خمس عشر ورقة .

والفرق بين التجزئتين فرق تجليد فحسب ، أما عدد أوراق التاريخ فمتقارب : (خمسمائة وسبعون) في (عشرين) تساوي أحد عشر ألفا ، وأربعمائة ورقة . (ثمانمائة) في (خمسة عشر) تساوي اثني عشر ألف ورقة .

ان هذا الذي قلناه ، هو ما نطقت به الأصول المخطوطة للتاريخ ، لم تتخلف عنه قط في كل مواضع التجزئة التي اطلعت عليها من التاريخ .

وهذا الامام البرزالي ، الناسخ الأوثق للتاريخ يقول في ختام بعض الأجزاء (١) :

« آخر الجزء السابع والخمسين بعد المائتين من الاصل . وهو آخر المجلدة الرابعة والثلاثين من تجليد النسخة المستجدة . » فأوضح بصريح العبارة أن الفارق بين الاصل والنسخة المستجدة انما كان أمر تجليد(٢) .

وكيف يصح هذا المذكور في الخريدة من أمر السبعمائة كراسة ؟ بل كيف يصح فرض المراحل الثلاث بناء على ذلك؟ وقد دخل العماد الاصبهاني دمشق في شعبان من عام (خمسمائة واثنين وستين) ، وفي آخر جمادى الاولى من العام نفسه(٣) ـ أي قبل وصول العماد بشهرين ـ كان التاريخ قد

(٢) طبعة بيروت ١٩٦٠م : مج ٢٧٦/٣ .
(٣) ط . ١٩٥٩م : ص ٢٩ .
(٤) الطبعة الفرنسية ١٩٧٥م : مج ٧٣٦/٣ .
(٥) المقدمة : ج .
(١) المقدمة : ٢٣ .

(١) مجلد من (العبادلة) : لم يصدر بعد .
(٢) الروضتين ١٤٤/١ .
(٣) مجلد (عاصم ـ عايذ) : ٥٢٢ .

جاوز ثلثه ۰ أعني قد بلغ آخر مجلد (عاصم ـ عايذ) قراءة وسماعاً على الملأ في جامع بني أمية؟ وهذا المجلد مطبوع ، ليس فيه ولا في أصوله أية اشارة الى السبعمائة المزعومة ؟

وهذا هو المجلد الثالث والخمسون بآخر الكتاب، وفيه حرف الياء [من يحيى ـ الى يزيد] ينتهي عند هذين الرقمين : « الجزء الثلاثون بعد الخمسمائة من تجزئة الأصل ـ والسابع والأربعون بعد السبعمائة من تجزئة الفرع » ۰ واذن فقد بقي (أربعون جزءا) فحسب من تجزئة الأصل ، يقابلها (ثلاثة وخمسون) من تجزئة الفرع ، ليبلغ الكتاب غايته ۰ وهذا هو القول الفصل في التجليد الكامل للأصل والفرع من تاريخ دمشق الكبير ۰

ولو أردنا تطبيق تجزئة الثمانين مجلدا على المطبوع من تاريخ دمشق لوجب أن نسمي المجلدة الأولى وبعض الثانية فحسب: المجلدتين الاولين، وأن نسمي المجلدة العاشرة : المجلد الثالث عشر ۰

يؤيد هذا ما ذكره الاستاذ محمد أحمد دهمان في حاشية الصفحة (مائتين واثنتين وثلاثين) من المجلدة المذكورة ، قال : انه وجد في هامش نسخة الأصل هذه العبارة :

« آخر الحادي والعشرين بعد المائة » ۰

قلت : ومعنى هذا أنه (آخر الجزء الاول من المجلد الثالث عشر) بتجزئة القاسم للنسخة المستجدة ۰

والظاهر أن النسخة الجديدة بتجزئتها الجديدة ، انما صنعت بعد وفاة المصنف ، اذ نجد أول ذكر لها في سماع للجزء الرابع من المجلدة الاولى(١) يرجع تاريخه الى سنة احدى وسبعين وخمسمائة ، وقد سُميت النسخة المستجدة فيه بـ « الفرع المنقول عن هذا الأصل » ۰

وبعد ، فقد بقيت لنا كلمة صغيرة بشأن التسويد والتبييض ، وخط الأب وخط الابن : ان المصنّف أبا القاسم لم يبيض التاريخ البتة ، فهو كما قال عنه حفيده(٢) : « حين فرغ من تسويده ، عجز عن نقله وتجديده ، وضبط ما فيه من المشكل وتحديده ، فان نظره قد كلّ ، وبصره قد قلّ ، فلم يزل والدي يكتب وينقله من الأوراق الصغار والظهور ويهذب ۰۰۰ » ۰

« سماع التاريخ »

واذا كان فيما قلناه آنفا بلاغ في دفع تلك الأوهام ، فان فيما سنقوله في الفقرة التالية طرحا لحقائق جديدة لم يكشف النقاب عنها من قبل ۰

الصورة التالية التي سأعرضها قامت على تتبع مجالس السماع في مخطوط التاريخ ومطبوعه، ولقد خرجت بنتيجة محددة : كان سماعان على المصنف ، ثم سماعان على الابن من بعده ، ثم عدة سماعات بعدهما ۰ لكن السماعات الأربعة الأولى كانت كافية لتحكي لنا قصة التاريخ الكبير في ولادته وفجر طفولته في واقع الحياة ۰

١ ـ بدأ سماع التاريخ على المصنف في شهري ربيع من سنة (تسع وخمسين وخمسمائة) سماعا خاصا ، ضم المصنف وابنه بمنزله ، واحيانا ستة أشخاص من خاصة أهله ، في المنارة

(١) المجلدة الاولى : ٦٦٠ ۰
(٢) سير أعلام النبلاء : مج ١٢/ل ٩٤ ۰

الشرقية بجامع دمشق ، معتكف أبي القاسم ·

ويلاحظ أن سماع القاسم على أبيه بقي ملتزما حتى آخر الكتاب ، وكان يتقدم السماع العام ببضعة أشهر ، تبلغ ثمانية في بعض الأحيان على أن هذا الفرق الكبير بين السماعين قد انخفض في أواخر الكتاب ، فصار شهرا أو بعض شهر ·

٢ ـ ثم كان السماع العام للملأ في جامع دمشق الكبير ، وفق خطة مرسومة باحكام : انها ثلاثة مجالس في الاسبوع ، في أيام : الاثنين والخميس والجمعة · يقرأ في يومي الاثنين والخميس جزء ، وفي يوم الجمعة جزء [ويحسن هنا التنبه الى أن الجزء عشرون ورقة] ، وبذلك يقرأ في السنة الواحدة عشر مجلدات بالتمام والكمال · وبتنفيذ هذه الخطة تتم قراءة التاريخ ـ أي السبعة والخمسون مجلدا ـ في ست سنوات ، وكذلك كان باذن الله وتوفيقه ·

افتتح السماع العام في جامع بني أمية في مطلع عام (ستين وخمسمائة) ، وبالتحديد في الاسبوع الاول من المحرم ، ليختم في نهاية العام ومطلع العام الجديد ، عام واحد وستين ، سماع المجلدة العاشرة ·

ثم توالت السماعات تترى ، في ظل هذا النظام الدقيق ·

وفي عام (خمسمائة وخمسة وستين) كان سماع السبعة الاواخر من التاريخ ، فقد تم سماع المجلد الثالث والخمسين في يوم (الجمعة : الخامس من ربيع الآخر) في ذلك العام · وتبقى المجلدات الأربعة الأخيرة ، ولا يمكن أن يجاوز سماعها في هذا النظام أواخر العام المذكور ·

وكذلك تم سماع التاريخ على مصنفه حسب الخطة المرسومة،من مطلع عامستين وخمسمائة، الى أواخر عام خمسة وستين وخمسمائة · ولقد كانت مجالس السماع العامة هذه حافلة ، ضمت سبعين ، وأحيانا خمسة وثمانين ، من فقهاء القوم وعلمائهم وأعيانهم ·

٣ ـ ثمكان السماع علىالقاسم ابن المصنف، بعد وفاة أبيه بثلاثة أسابيع فحسب : توفي أبو القاسم رحمه الله يوم الأحد بين العشائين في الحادي عشر من رجب سنة (احدى وسبعين وخمسمائة) ، وبدأ السماع على ابنه القاسم ـ في دار السنّة مدرسة الأب ـ في يوم الاحد الثاني من شعبان سنة (احدى وسبعين وخمسمائة) ، واستمر حتى بلغ غاية المجلد الثالث والخمسين من التاريخ في العشر الأخير من ربيع الاول سنة (اثنتين وثمانين وخمسمائة)،في الجامع الكبير ·

واذا ما قدرنا أن الفراغ من سماع التاريخ على الابن قد وقع في أواخر ذلك العام ، أي اثنين وثمانين ، فيكون ذلك السماع قد استغرق أحد عشر عاما وبضعة أشهر ·

٤ ـ ثم أعيد السماع ثانية على الابن : بدأ في عشر ذيالحجةسنة (سبع وثمانينوخمسمائة) ، وبلغ غاية المجلد الثالث والخمسين في أول يوم من عام (ستة وتسعين وخمسمائة) · واستغرق سماع التاريخ في هذه المرة ثماني سنوات وبضعة أشهر ، كانت خاتمة المطاف في عمل

القاسم في هذا الكتاب، فقد توفي بعد أربع سنوات رحمه الله .

هذه هي الصورة ، فما النتائج المستفادة منها ؟.

ان صورة السماع هذه قد ألغت تماما فكرة المراحل الثلاث السابقة ، لتحل محلها مراحل ثلاثا جديدة : مرحلة الجمع والتسويد ، مرحلة التبييض والتسميع ، مرحلة الاكمال والتجديد .

واذا كانت مرحلة الجمع والتسويد أمرا مفروغا منه ، فان فترة ست السنوات : ما بين مطلع خمسمائة وستين ـ ونهاية خمسمائةوخمسة وستين قد ميزت المراحل الجديدة بشكل جلي .

فمن الواضح أن تبييض التاريخ قد تم أثناء فترة السماع هذه ، ولنتأمل مجالس السماع الخاصة التي كانت تتم بين المصنف وابنه في المنزل ، سابقة مجالس السماع العام ببضعة أشهر ، ألم تك ايذانا بالفراغ من التبييض تمهيدا للسماع العام ؟ .

وما لنا نذهب بعيدا ؟ وهذه شهادة من حفيد المصنف الذي جالس أباه وجده في السماع الخاص والعام ، قال(١) : « فلم يزل والدي يكتب وينقله من الأوراق الصغار والظهور ويهذب ، الى أن نجز منه نحو مائة وخمسين جزءا . وكان بينهما نفرة ، فكان لا يحضر السماع تلك المدة .

فحكى لي والدي قال : ضاق صدري ، فأتيت الوالد ليلة النصف في المنارة الشرقية ، وزال ما في قلبه . وسمعت أبا جعفر القرطبي [يقول : سمعت جدك] كثيرا يقول ـ عند غيبة والدك عنه ـ : « جزاه الله عني خيرا » ، فلولاه ما تم التاريخ .

فقال : ان الحافظ أبا القاسم حلف أنه لا يكلم ابنه حتى يكتب التاريخ ، فكتبه . »

وكذلك كان القاسم مثلا طيبا في البر والعلم معا ، أبر قسم أبيه فغدا في شغل شاغل من أمر التبييض ، صرفه في بعض الاحيان عن حضور مجالس السماع حتى ضاق صدره ، ولقد أثنى عليه أبوه بحق « فلولاه ما تم التاريخ » .

ثم تأتي المرحلة الثالثة ـ مرحلة الاكمال والتجديد ـ بعد سنة خمس وستين وخمسمائة : وقبل الخوض في هذه المرحلة يجب أن نبادر الى ابعاد شبهة ربما علقت بالاذهان ، من أن نموا أو تنقيحا أو تجديدا حدث في التاريخ خلال هذه الفترة ، فالحق أنه لم يحدث شيء من ذلك بالمعنى الكامل ، وانما هي ملحقات مستدركة في هوامش الاصل تارة ، ومسجلة في جذاذات مقحمة بين الصحف تارة أخرى ، تحمل أسطرا بخط مرتعش ، انه خط أبي القاسم وقد شارف السبعين . ثم النسخة المستجدة التي صنعها القاسم ، وهذه التي أملت عليّ ذكر التجديد ، للجناس اللفظي فحسب، فليس هنالك من جديد.

ولنتأمل صورة (الملحق) التالي ـ انها ترجمة في أربعة أسطر ، لكنها تسجل بدقة تاريخ (الالحاق) الذي تم بعد سماع التاريخ :

« (١) محمد بن بركة بن خلف بن كرما ، أبو بكر الصلحي . سمع ببغداد أبا طالب بن يوسف . [وآخرين] ثم قدم دمشق وحدّث بها ببعض مسموعاته ، وكان مواظبا على السماع منّي ،

---

(١) سير اعلام النبلاء : مج ١٣/ل ٩٤ .

(١) نسخة ب : مج ٦٢/١٨ ب .

وسمع أكثر هذا التاريخ ، وكان مولده بفم الصلح [قلت : هي قرية قريبة من واسط في العراق] ، ومات ليلة الخميس ، ودفن يوم الخميس ، الحادي عشر من المحرم سنة ست وستين وخمسمائة ، ودفن بمقبرة جبل قاسيون • »

وكذلك نستنتج أن ملحقات الاب كانت بين عامي ستة وستين وواحد وسبعين •• ويقع هنا اشكال طريف بشأن السلطان المجاهد صلاح الدين الايوبي، فكأن أبا القاسم رحمه الله أغفل ترجمته في التاريخ اغفالا ، وانتقده أبو شامة لذلك فقال : « لم يذكر له الحافظ أبو القاسم ترجمة مع أنه ملك دمشق في سنة سبعين » ، ويبدو أن أبا القاسم كان أكثر اعجابا بنور الدين ، ولقد عاتب صلاح الدين مرة بحدة ، ووصف مجلسه بأنه « (٢) كبعض مجالس السوقة لا يستمع فيه الى قائل ولا يرد جواب متكلم » ، والغريب أن العتاب نفسه أو قريبا منه ، قد صدر عن الحافظ السلفي في الاسكندرية بحق السلطان نفسه (٣) • على أن صلة القاسم بصلاح الدين كانت أوثق فيما يبدو ، فقد صنع القاسم كتابا في الجهاد ، سمعه منه السلطان صلاح الدين في سنة ست وسبعين • قال القاسم (١) : « فدعوت في أوله وآخره بفتح بيت المقدس فاستجاب الله ذلك وله الحمد، وفتح بيت المقدس في السادس والعشرين من رجب ، سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة وأنا حاضر فتحه » •

وقد يبرز هنا سؤال وجيه : لماذا لم يلحق القاسم ترجمة لصلاح الدين ؟ والجواب على ذلك يدخلنا في صميم عمل القاسم وطبيعة الحاقه في التاريخ •

ان صنيع القاسم في التاريخ الكبير مثل أعلى عجيب في التكامل العلمي المتوازن والالتزام الادبي الأمين • صحيح أنه صنع النسخة الجديدة بتجزئة جديدة ، لكنه ما غير ولا بدل ، بل لقد التزم في مجالس السماع عليه التجزئة الاولى للكتاب ، ليقع التنسيق بين السماع عليه والسماع السابق على أبيه •

كل ما صنع في النسخة الجديدة : أن الجزء الذي كان في عشرين ورقة ، نزّله في خمس عشرة ورقة ، وأن ملحقات أبيه التي كانت في الهوامش أو منثورة في الجذاذات ، أحلها حاق مواضعها من المتون •

أما ملحقاته هو فقد كانت ـ في معظمها ـ « وصلا » بينه وبين مصادر التاريخ الكبير ، تؤذن بسماعه تلك الاصول تارة ، وتبين طرقه اليها تارة أخرى •

ولذلك نلاحظ في السماعات المتأخرة للتاريخ أمرا طريفا ، وصحيحا في الوقت نفسه ، وهو اعتبار السماع على القاسم بمنزلة السماع على والده المصنف •

وبعد ، لكم كان بودي الحديث عن طرائف وحقائق من تاريخ ابن عساكر ، طالما كنت ادخرتها لامثال هذه المناسبات، ولكن الوقت ضيق حرج ، وعسى أن ييسر الله لهذا البحث اكتمالا في كتاب، انه خير مسؤول، والحمد لله رب العالمين•

---

(٢) الروضتين : ١/١٠ •
(٣) مقدمة سؤالات السلفي : ص ١٣ •
(١) سير أعلام النبلاء : مج ١٢/ل ٩٤ •

ابن النفيس واكتشاف الدّورة الدّمويّة

د. سلمان قطاية
كلية الطب - ج. حلب

ظـل العرب فترة طويلة لا يهتمون اهتماما كليا وجديا بتراثهم العلمي ، بل تركوا امر العناية به الى المستشرقين من مختلف اطـراف المعمورة ... فراح هؤلاء يجمعون المخطوطات في جامعاتهم وعواصم بلدانهم . وبدأ البعض منهم يكتب ويحقق وينشر . . ولكن وبكل اسف اذا ما تفحصنا النتاج الذي صدر عنهم وجدنا قسما منهم مغرضا يدس السم في الدسم .

وكانت نتائج دراساتهم عموما هي : توزيع نتاج الحضارة العربية على الفرس والهنود والاتراك . . او حتى على اليهود . ويزعمون ان دور العرب كان النقل فقط . اما فيما يخص تاريخ الطب العربي فالأمر ينطبق على ماذكرناه فيؤكد ذلك ليون بينيه، وجاريسون، وبراون وغيرهم ، ما عدا قلة نادرة أمثال الفرنسي لوسيان كلير .

وبدأ العرب يهتمون بهذا التراث شيئا فشيئا واذا بالأمر على غير ما قيل . ورغم هذا الاهتمام فلا تزال الجهود قليلة ومبعثرة وتحتاج الى المزيد من العناية والبذل والعطاء على الصعيدين الفردي والدولي ومن اجل هذا اسس معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب، ومركز احياء التراث العلمي العربي بجامعة بغداد، ومركز ابحاث التراث الاسلامي في مكة ، ومعهد المخطوطات العربية في القاهرة .

واستطاع بعض العرب أن يبرهنوا على ان اكتشاف الدورة الدموية لا يعود الى العالم الانكليزي هارفي كما يدّعي علماء الغرب، بل الى عالم عربي هو ابن النفيس. وابن النفيس هو علي بن أبي الحزم علاء الدين بن النفيس القرشـي (نسبة الى قرية دمشق (١)) الدمشـقي ، ولد حوالي عام ٦٠٧هـ/١٢١٠م، وكان يحكم دمشق آنئذ السلطان العادل سيف الدين اخو صلاح الدين الأيوبي. وكان في دمشق في ذلك الحين عالم كبير جليل يدعى مهذب الدين عبد الرحيم علي الملقب بالدخوار . أمضى كل حياته في خدمة الطب والعلم وجعل بيته الكبير مدرسـة طبية

(١) توجد منطقة في حي الميدان بدمشق تعرف حاليا باسم : جـي القرشي او حارة القرشي وهي واقعة بعيدا عن اسوار المدينة القديمة . وربما كانت مسقط راس ابن النفيس .

سميت بالدخوارية تخرج منها علماء كبار أمثال موفق الدين بن أبي أصيبعة وعلاء الدين بن النفيس .

وكان الدخوار يعنى بأمراض العيون في البيمارستان (المستشفى) النوري في دمشق ثم عينه السلطان سيف الدين رئيسا لأطباء دمشق .

نشأ ابن النفيس في جو علمي صحيح مبني على الخبرة والأصالة في التفكير والمناقشة الحرة المستمرة .

ونظرا لما كانت القاهرة تتمتع به ، في ذلك الحين ، من شهرة لما فيها من كبار العلماء الأطباء أمثال : علي بن رضوان وابن جميّع ، وابراهيم ابن عيسى ، والحسن برزيرك ، وابن ميمون ، وموسى بن عازار، وابن أبي حليقة، وضياء الدين البيطار .

وكل منهم علم من أعلام الطب والفلسفة والصيدلة .

فشد ابن النفيس رحاله اليها وانخرط في سلك أطباء السلطان ولم يلبث ان اشتهر فأصبح رئيسا للأطباء .

وكان شديد الذكاء ، عالي الهمة ، كثير الانتاج ويقال انه عندما كانت تتملكه فكرة التأليف كان ينقض على القلم والورق ولا يزال يكتب حتى ينهي ما يريده ، وكان يكتب دون انقطاع ، كالسيل الجارف ، ويحضّر له مساعدوه أكداس الورق ويبرون له عدة أقلام حتى لا يتوقف عن الكتابة لبريها . ويروى أنه دخل الحمام ذات مرة ولكنه سرعان ما خرج وطلب ورقا وقلما وكتب ، ولما انهى ما كان يريد ان يكتبه عاد الى الحمام فأغتسل .

ولقد ألّف من الكتب الشيء الكثير ومن أهمها : كتاب « الشامل في الطب » ويقال ان الأصل يقع في ثلاثمائة سفر ، بيض منها ثمانين، وكتاب شرح فصول بقراط ، وشرح تشريح جالينوس ، والموجز و « شرح تشريح القانون » أي شرح ما جاء في كتاب القانون للشيخ الرئيس ابن سينا حول علم التشريح . وهو كتاب هام جدا نظرا لأنه وضع فيه آراء جديدة ومكتشفات هامة وانتقد كل ما جاء قبله .

وله كتب أخرى عن الفلسفة والمنطق وأصول الحديث . لأن العرب كانوا لا يطلقون اسم الطبيب الا على من تعلم الطب وأتقن الفلسفة ، أما اذا اقتصر علمه على الطب سمي : متطببا لاطبيبا .

وتوفي ابن النفيس في القاهرة وقد جاوز الثمانين وذلك اثر مرض أقعده مدة ستة أيام وكان ذلك عام ٦٨٧ هـ / ١٢٨٨ م .

وكتاب شرح التشريح غير مطبوع حتى الآن ، وتوجد منه نسخ مخطوطة : في المكتبة الظاهرية بدمشق ، والمكتبة الوطنية في باريس ، ومكتبة قصر الاسكوريال في اسبانيا ، والمكتبة البودلية في اكسفورد بانكلترا ، ومكتبة جامعة برلين .

وظل هذا الكتاب راقدا على رفوف المكتبات .

وذات يوم كان طبيب مصري شاب يدعى محي الدين التطاوي يطالع مخطوطات مكتبة برلين فعثر صدفة على المخطوط رقم ٦٢٢٤٣ وعنوانه « شرح تشريح القانون » فخطرت له فكرة دراسة المخطوط وتدبيج رسالة عنه ينال عليها شهادة الدكتوراة في الطب من جامعة فرايبورغ في المانيا حيث كان يدرس . وانكب على الدراسة بحماسة شديدة اذ تبين له ان ابن النفيس قد تحدث بوضوح عن الدورة الدموية ... بل أكثر من ذلك بالامكان

القول بأنه هو مكتشف الدورة الدموية ، فصاغ اطروحته بعنوان : « الدورة الرئوية تبعا للقرشي » ... ولكن اساتذته رفضوا تصديقه ، وأمام الحاحه الشديد ، ونظرا لجهلهم باللغة العربية أرسلوا صورا عن المخطوطة الى المستشرق الألماني ماكس مايرهوف (١٨٧٤ – ١٩٤٥) وكان يقيم في القاهرة ، ويتعاطى أمراض العيون .

فدرس ما يرهوف الموضوع وأرسل يؤيد أقوال التطاوي . وبلغ المؤرخ جورج سارتون فأدرج الموضوع في آخر جزء من مؤلفه الضخم عن تاريخ العلوم . ونشر مايرهوف الكثير من المقالات حول هذا الموضوع .

أما الدكتور محي الدين التطاوي (١٨٩٦ – ١٩٤٥) فعندما عاد الى بلاده عين طبيبا في الصعيد (؟) ولم تقدر مواهبه وكفاءاته وأعماله ، وحدث ان هبت جائحة تيفوس على المنطقة التي كان فيها فأصيب وتوفي اثر أصابته ... ؟

وبدأ علماء الغرب يعترفون بتردد بفضل ابن النفيس . اذ لا زال سؤال مطروح : كيف انتقل اكتشاف ابن النفيس الى الغرب وعلمائه ؟ ..

وتصدى للجواب على هذا السؤال لفيف من الباحثين من بينهم الدكتور عبد الكريم شحادة (من حلب) فكرس اطروحة لنيل الدكتوراة من باريس لهذا الموضوع عام ١٩٥٢ . (*)

وهو اليوم استاذ الأمراض الجلدية في كلية الطب بحلب .

وهكذا وجد على ان ابن النفيس كان معروفا لدى الأوروبيين اذ قد ترجم كتابه هذا الى اللاتينية خلال القرن السادس عشر في دمشق ومن قبل الباغوس ونشر الكتاب في البندقية عام ١٥٤٧ . ويبدو أن ثمة ترجمات أخرى لابن النفيس .

والمعلوم ان عصر النهضة بدأ في ايطاليا وكان لمدرستها تأثير عظيم . والمعروف أيضا ان الكتب الطبية العربية قد ترجمة الى اللاتينية وانتشرت بسرعة فائقة .

وكان أول من تكلم عن الدورة الدموية كما جاءت في كتاب ابن النفيس ، لكن دون ذكر له ، هو سيرفيتوس أو ميشيل سيرفيه .

وكان سيرفيتوس قد ولد في فيلانورفا في مقاطعة اراجون في اسبانيا ولا بد انه ، كاسباني، قد اطلع على أعمال ومؤلفات ابن النفيس ، فذكرها وكررها دون ذكر المصدر كما جرت العادة في أيامه .

كذلك فعل طبيب ايطالي يدعى كولومبو اذ نشر المعلومات نفسها .

فاذا ما قارنا النصوص الثلاثة ، كما يقول ماير هوف ، وجدناها مشابهة بل فيها تطابقاً مدهشاً ، لا يدع للشك مكان في أن الايطالي والاسباني نقلا كلام العربي .

كان القدماء يعتقدون بآراء جالينوس في التشريح ويكررونها في مؤلفاتهم . وفيما يخص القلب ودوران الدم ، فقد كانوا يقولون بأن القلب عضو لحمي صلب ، مخروط الشكل ، وقاعدته في وسط الصدر ورأسه يميل الى الجانب الأيسر ، وله ثلاثة أنواع من الألياف ، وثلاثة بطون : أوسط ، وأيمن وأيسر . وله أربع منافذ : اثنان

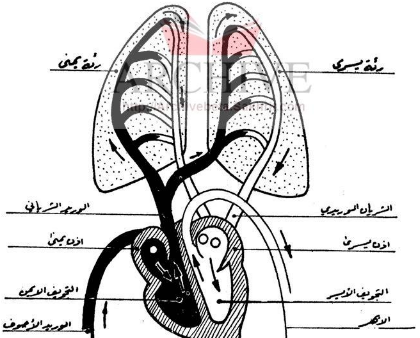
(*) تأمل « مجلة التراث العربي » ان تنشر في العدد القادم هذه الاطروحة الهامة ، خاصة وان اطروحة الدكتور التطاوي قد ضاعت في مكتبة الجامعة الالمانية المذكورة !! — التحرير .

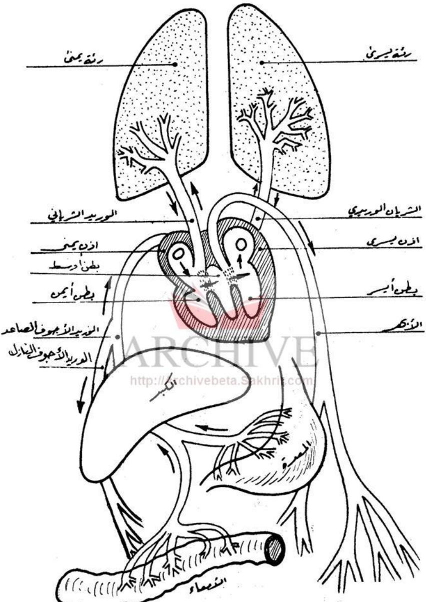
الى اليمين : أحدهما ينفذ فيه الدم من الكبد والآتي عن طريق الوريد الأجوف ، والثاني هو الذي يتصل به الوريد الشرياني (ما نسميه حاليا : الشريان الرئوي) • واثنان الى اليسار : أحدهما منفذ الأبهر ، والثاني : منفذ الشريان الوريدي (ما نسميه حاليا : الوريد الرئوي) • وللقلب اذنان • ويحيط بالقلب غشاء صلب • ويعلوه شحم كثير ، وتتصل به رباطات كثيرة •

ويعطي القلب لسائر اعضاء البدن : الحياة، والحرارة ، وسائر القوى • وهو دائم الحركة • وينتقل الدم من البطون الثلاثة بالتدريج : ينصب ويجتمع في الأيمن ، ويستعد في الوسط ، ويصير روحا PNEUMA في الأيسر • وتنغلق الفتحات بين البطون اثناء الانقباض •

والقلب يجذب الهواء البارد من الرئتين ، ويدفع البخار الدخاني • ويتحرك في النفس الطبيعي عشر مرات : خمسة انبساط ، وخمسة انقباض • وحركة الدم كحركة مد البحر والجزر (أي لا دوران) • والدم نوعان : مروّح ، ودخاني أو مدخن أو متدخّن •

لكن ابن النفيس نقض هذا الكلام فقال في كتابه « شرح التشريح » اذا لطف الدم فلا بد من





جريان الدم حسب مفهوم جالينوس

نفوذه الى التجويف الأيسر حيث يتولد الروح ٠

ولكن ليس بينهما منفذ ، فان جرم القلب هناك مصمت ليس فيه منفذ ظاهر ، كما ظنه جماعة،ولا منفذ غير ظاهر يصلحنفوذ هذاالدم،كما ظنه جالينوس ٠ فان مسام القلب هناك متحصفة، وجرم غليظ فلا بد ان يكون هذا الدم اذا لطف نفذ في الوريد الشرياني الى الرئة لينبث في جرمها ، ويخالط الهواء ، ويصفي ألطف ما فيه ، وينفذ الى الشريان الوريدي ليوصله الى التجويف الأيسر من تجويفي القلب ، وقد خالط الهواء وصلح لأن يتولد منه الروح « ويقول أيضا » فان القلب له بطنان فقط أحدهما مملوء من الدم وهو الأيمن ، والآخر مملوء من الروح وهو الأيسر ، ولا منفذ بين هذين المنفذين البتة » ٠

وهكذا فقد برهن ابن النفيس على ان القلب يحتوي على بطينين فقط غير متصلين ببعضهما البعض ٠

وان الدم يذهب من البطين الأيمن الى الرئة « فيتروح » ثم يعود الى البطين الأيسر ٠

أما كيف توصل الى ذلك ، فلا بد أنه قام بتشريح الحيوان ، والانسان ٠ اذ نجده يقول « والتشريح يكذّب ما قالوه » ٠ وهذا يعني ، بالطبع ، التشريح العملي على الجثة ٠ ولا بد انه كان يقوم بذلكسرا خيفة رجال الدينومعارضتهم٠

ثم جاء وليام هارفي (١٥٧٨ ـ ١٦٥٧) فأكمل الصورة ووضعها في شكلها العلمي الحالي ٠ فنسبت اليه ، كما نسبت قبلا الى سيرفيتوس ٠ والواقع ان المكتشف هو العربي ابن النفيس ٠

وخلاصة القول :

ـ ان مكتشفالدورةالدموية الرئويةهو عربي مسلم وهو علاء الدين بن النفيس الدمشقي٠وهذه حقيقة اعترف بها علماء العالم أجمع ٠

ـ ان السبب في الاكتشاف هو اهتمام علماء عرب بالموضوع ، وكل ما ألفه وكتبه المستشرقون كان سلبيا في معظم الحالات ٠ لذا : كان من أولى واجبات علماء العرب الاهتمام بالتراث ودراسته، وأولى واجبات الدول العربية تخصيص الأموال وتكريس الجهود في سبيل ذلك وتأسيس المعاهد ، وتشجيع البحث (وهو ما يجري حاليا) من أهم الأسباب الداعية الى أمثال ذلك الاكتشاف ٠

ملاحظة :

قامت المؤسسة العامة للسينما في دمشق بالتعاون مع معهد التراث العلمي العربي بحلب ، بانتاج فيلم وثائقي عن ابن النفيس أخرجه الأستاذ صلاح دهني ٠ وعرض لأول مرة بمناسبة انعقاد الندوة العالمية الثانية لتاريخ العلوم عند العرب « في جامعة حلب في نيسان ١٩٧٩ ٠ شارك في اعداد مادته العلمية الاساتذة : د ٠ عبد الكريم شحادة ، د ٠ نشأت حمارنة ، د ٠ سلمان قطاية ٠

المصادر العربية :

ـ غليونجي د . بول ابن النفيس ـ سلسلة : اعلام العرب .
ـ شموط د . محمد نزار : ابحاث اسبوع العلم الثامن ـ الكتاب الاول (الطب) دمشق ـ ١٩٧٠ .
ـ ابن ابي اصيبعه : عيون الانباء في طبقات الاطباء ـ دار الحياة ـ بيروت ١٩٦٥ .
ـ عيسى د . أحمد : معجم الاطباء ـ القاهرة ـ ١٩٤٢ .

المصادر الاجنبية :

Chéhadé Dr. A.K. : Ibn An-Nafis, Et La Découverte De La Circulation Pulmonaire Institut Français De DAMAS — 1952.

افتتاحية الندوة

الدكتور عفيف بهنسي

مليون عام على الاقل مرت على وجود الانسان في شمالي الساحل السوري ، لقد اكتشفت آثار هذا الانسان واضحة على ضفاف نهر الكبير الشمالي . ولسنا ندري كيف تطور هذا الوجود الانساني حتى بداية العصر الحجري الحديث Néolithique ، الا اننا أصبحنا نعرف المزيد من المعلومات عن الفترة القائمة في الألف السابع ق.م وعن ظهور شعوب عربية سامية استطاعت أن تكون بداية الحضارة ، فتبني من الحجر بيوتا منتظمة وتستفيد من الطلاء الكلسي لاكساء الجدران ، وتصنع الفخار الذي تتطور صناعته بسرعة .

وفي الألف الرابع تتوضح شيئا فشيئا الشعوب التي استوطنت الساحل السوري وبخاصة رأس الشمرة ، وذلك من خلال صناعة الفخار التي تماثل فخار تل حلف وحسونة وتأخذ المنطقة اسم اوغاريت وتصبح مركزا لكنعانيي الشمال .

لقد ساعد اكتشاف أرشيف ايبلا في تحديد هوية الشعوب الكنعانية وأصلها . فلقد تبين أن اللغة التي استعملت في ايبلا ما هي الا الوسيط بين لغة أكاد وكنعان ، ويفسر هذا انتقال الشعوب السامية من بلاد الرافدين الى الساحل السوري ، كما يفسر انتقال الحضارة معها ، مما يحدد شخصية متميزة لحضارة واسعة ومستمرة . وليست الحضارات اللاحقة الآرامية ثم العربية الاسلامية الا استكمالا لتلك الأصول القديمة التي ابتدأت مع بداية التاريخ .

لقد وصلت اوغاريت الى قمة ازدهارها بعد منتصف الألف الثاني قبل الميلاد ويدل على ذلك ما اكتشف من مباني هامة كالقصر الملكي والأحياء الرسمية والحرفية ، وما عثر عليه من تماثيل هامة مثل تماثيل بعل والرأس العاجي وألوف الرقم Tablettes التي حملت أخبار الحضارة الأوغاريتية فعرفتنا على سياسة اوغاريت وعلاقاتها بسكان وادي النيل والحثيين والحوريين . كما عرفتنا على القوانين السائدة والآداب والعقائد التي تعتبر أصلا للآداب التوراتية .

ولعل أهم حدث هو اكتشاف رقيم فيه ثلاثون رمزا أبان لنا أن أوغاريت كانت قد ابتكرت أقدم أبجدية في العالم . وطور سكان جبيل هذه الأبجدية فكانت أساسا للأبجدية الآرامية والنبطية والعربية ثم انتقلت الى الاغريقية الأولى ثم اللاتينية . ولعل النقد الاغريقي الذي يحمل صورة قدموس وهو يعلم أهل طيبة الأبجدية أكبر دليل على انتقال الأبجدية الكنعانية الى العالم . ومن بين الرقم المكتشفة في أوغاريت رقيم يحوي أقدم قطعة موسيقية ترجع الى القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، أي قبل ألف عام من ظهور علم الموسيقى على يد فيثاغورس . ولقد أثبتت العالمة كيلمر Kilmer أن موسيقى رأس الشمرة التي تقوم على السلم السباعي الدياتوني هي أساس الموسيقى الغربية .

خلال خمسين عاما متصلة كانت مجموعة من العلماء الفرنسيين على رأسهم البروفسور كلود شيفر فورير ، تعمل في موقع رأس الشمرة لمتابعة التنقيب والكشف عن حضارة هذه المنطقة وايضاح تاريخها بل تاريخ جزء هام من العالم القديم • ولقد قدمت لنا الدراسات التي نشرت في سلسلة اوغاريتيكا Ugaritica معلومات هامة وأساسية لكتابة تاريخ سورية بل تاريخ الانسانية في الألف الثاني •

ولكن ، وليست اوغاريت هي الموقع الوحيد الذي كشف المراحل الناقصة من التاريخ القديم ، بل ان تل حلف وماري وتل خويرة Khouéra وايبلا وعمريت وتل سوكاس ، ثم رأس البسيط ورأس ابن هاني وأفاميا وتدمر وبصرى وشهبا والرصافة وقصور الحير •• وعشرات غيرها هي مراكز حضارية متتابعة اكتشفت خلال هذا القرن وزودتنا بروائع الآثار والأخبار •

ولكننا اليوم وبعد خمسين سنة من بداية الحفريات في اوغاريت لابد أن نحيي هذه الجهود التي عملت بصبر واخلاص • ولا بد أن نذكر بالتكريم جميع الأثريين الذين تعاقبوا في رأس الشمرة باحثين عن حضارتها وتاريخها ولا بد أن نحيي زملاء لنا خدموا العمل الأثري في اوغاريت وغيرها وتركوا أثر جهودهم ورعايتهم لاعمال الكشف واضحة فيما قدموا من دراسات وتراجم نشرت في حوليتنا الأثرية •

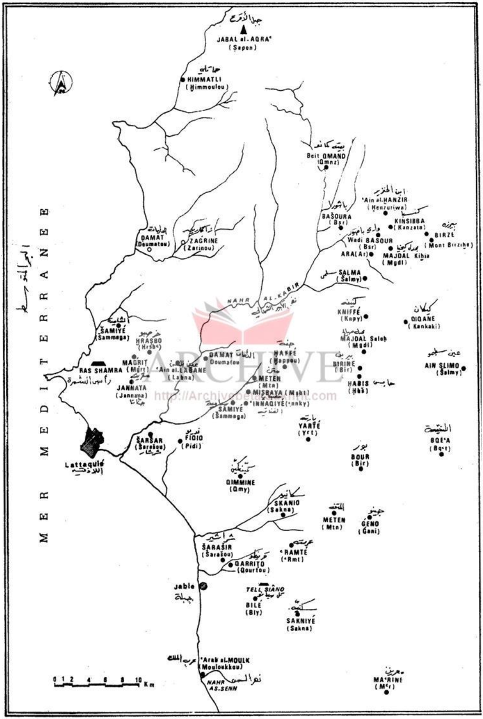
ملف الندوة العالمية للدراسات الأوغاريتية

في الفترة الواقعة بين ١٠ ـ ١٣ تشرين الاول ١٩٧٩ عقدت في مدينة اللاذقية تحت رعاية السيد الرئيس حافظ الاسد رئيس الجمهورية العربية السورية الندوة العالمية للدراسات الاوغاريتية بمناسبة مرور خمسين عاما على بدء العمل الاثري في أوغاريت •• ولقد شارك في هذه التظاهرة العلمية الهامة ما ناف على تسعين عالما أثريا من القطر العربي السوري والاقطار العربية وفرنسا وايطاليا وانكلترا والولايات المتحدة الامريكية واليابان واسبانيا والمانيا الاتحادية وبلجيكا •••

ونشير قبل استعراض المحاضرات الهامة التي سلطت ضوءا جديدا على اوغاريت ومستقبل الدراسات الاوغاريتية الى أن المديرية العامة للآثار والمتاحف سوف تقوم باصدار عدد خاص من مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية يتضمن كافة الابحاث التي ألقيت في هذه الندوة العالمية ••• لذا فان ماتقدمه في هذا الملف الخاص لن يتعدى عرضا سريعا لابحاثها وتترك الافاضة لمجلة الحوليات الأثرية وعددها الخاص عن الندوة ••

مقدمة ولمحة تاريخية عن اوغاريت :

لم يكن اسم اوغاريت معلوما قبل عام ١٩٢٩ إلا بواسطة بعض الكتابات القديمة النادرة الى أن جاء الثاني من نيسان من ذلك العام ، يوم بدأت البعثة الفرنسية برئاسة السيد كلود شيفر العمل في التل المسمى (رأس الشمرا) حيث اكتشفت اوغاريت في موقعها الذي يبعد حوالي عشرة كيلو مترات الى الجهة


JABAL al-AQRAʿ
(Ṣapon)
HIMMATLI
(Ḥimmoulou)
Beit QMAND
(Qmnz)
ʿAin al-ḪANZIR
(Ḥenzuriwa)
BAŠOURA
(Bsr)
KINSIBBA
(Kanzata)
BIRZE
(Mont Birziḥe)
Wadi BASOUR
(Bsr)
ARA(Ar)
MAJDAL Kibia
(Mgdl)
DAMAT
(Doumatou)
ZAGRINE
(Zarinou)
MER MEDITERRANEE
SALMA
(Šalmy)
NAHR AL-KABIR
KNIFFÉ
(Knpy)
QIQANE
(Kankaki)
ŠAMIYE
(Šammega)
HRASBO
(Hrsbʿ)
MAJDAL Saloḥ
(Mgdl)
DAMAT
Doumatou
HAFFÉ
(Ḥappou)
AIN SLIMO
(Šalmy)
BIRINE
(Bir)
MAGRIT
(Mgrt)
RAS SHAMRA
ʿAin al-LABANE
(Labna)
METEN
(Mtn)
HABIS
(Ḥbš)
JANNATA
(Jannana)
MISBAYA (Mṣbt)
ʿINNAQIYE (ʿnnky)
ŠAMIYE
(Šammega)
YARTE
(Yrt)
ŠARSAR
(Šarašou)
FIDIO
(Pidi)
BQEʿA
(Bqʿt)
BOUR
(Bir)
Lattaquié
QIMMINE
(Qmy)
SKANIO
(Sakna)
METEN
(Mtn)
GENO
(Gani)
ŠARAŠIR
(Šarašou)
ʿRAMTE
(ʿRmt)
QARRITO
(Qourtou)
Jable
TELL SIANO
BILE
(Bly)
SAKNIYE
(Sakna)
ʿArab al-MOULK
(Mouloukkou)
NAHR AS-SENN
0 1 2 4 6 8 10 Km
MAʿRINE
(Mʿr)

الشمالية من مدينة اللاذقية على الساحل السوري واكتشفت فيها أقدم أبجدية معروفة في العالم وتعود الى القرن الرابع عشر قبل الميلاد (في زمن اكتشافها). ويعود تاريخ اوغاريت الى العهد الحجري الجديد أي الألف الخامس ق.م وقد وصلت الى عهدها الذهبي في القرنين الخامس عشر والرابع عشر قبل الميلاد الى أن غزتها (شعوب البحر) في القرن الثالث عشر وبدء القرن الثاني عشر قبل الميلاد وقد جاءت هذه الشعوب من البلقان والسواحل الشمالية والبحر الاسود واستولى الغزاة على اوغاريت وهدموها وتابعوا سيرهم نحو الجنوب بعد أن أتموا عملهم الهدام ...

وموقع اوغاريت حاليا نجده فوق تل يدعى (رأس شمرا) يعلو حوالي ١٧ مترا عن سطح البحر ، يحيط به من الشمال والجنوب مجرى نهر الفيض الذي يصب في البحر المتوسط في موقع هام جدا بالنسبة لمدينة اوغاريت (مينا البيضا) الذي كان يتألف من حوضين: الكبير والصغير وهو المنفذ البحري لهذه المدينة العظيمة التي اشتهرت بتجارتها .. فكانت المراكب تصل اليها من البحر تحمل معها البضائع كالذهب والعطور والبخور برسم التصدير الى سوريا الشمالية وبلاد ما بين النهرين وتعود منها محملة بالاخشاب والنحاس والأواني البرونزية والأسلحة ، كما ازدهرت تجارة الجياد بين اوغاريت من جهة ومصر من جهة أخرى .

ابجدية اوغاريت وكتابتها :

اكتشفت أبجدية اوغاريت عام ١٩٤٩ .. فأثارت اهتمام العلماء الاثريين في العالم أجمع ... بسبب كون اللغات الاخرى كالمسمارية والهيروغليفية والحورية وغيرها من اللغات التي كانت تستعمل في ذلك العهد كانت تتطلب ١٥٠ ــ ٢٠٠ إشارة لتدوين الكلام الا أن اللغة الأوغاريتية كانت لاتتضمن أكثر من ثلاثين اشارة .. فهي اذن أبجدية بالمعنى المعطى اليوم لهذه الكلمة.. ومما زاد من أهمية هذه الأبجدية اكتشاف لوحة صغيرة نقشت عليها أحرف اللغة الاوغاريتية بالترتيب التي كانت تلفظ به عادة وهو نفس ترتيب (ابجد هوز حطي ...) وهذا الترتيب هو على وجه التقريب نفس ترتيب الأبجدية اليونانية التي هي أساس جميع أبجديات العالم الحديث .. وهذا ماثبت بصورة حازمة الأصل السوري للأبجدية اليونانية .. وبعد حل رموز هذه اللغة أمكن معرفة مضمون اللوحات العديدة المكتشفة في اوغاريت وتضمنت : الملاحم والقصائد الميتولوجية وكتابات تتعلق بالمحاسبة وكتابات مدرسية للتعليم ولوائح بأسماء الاعلام وكتابات تتعلق بممارسة الطقوس الدينية ونصوص قضائية ومستندات تجارية ولوائح بأسماء المدن والقرى في مملكة اوغاريت ، ونصوص رسمية ومحفوظات دبلوماسية وأخرى تتعلق بالتنظيم العسكري وغير ذلك من اللوحات الهامة ...

ابحاث الندوة :

قسمت أبحاث الندوة حسب مواضيعها الى أربع مجموعات ... الاولى منها خصصت للغة والنصوص الاوغاريتية والثانية خصصت لآثار اوغاريت والثالثة للديانة والاساطير الاوغاريتية ، والرابعة خصصت لتاريخ اوغاريت ...

ونستعرض فيما يلي أهم الابحاث والمحاضرات التي ألقيت في هذه الندوة العالمية حسب مواضيعها...

(١) اللغة والنصوص :

افتتحت الندوة بالدراسة التي أعدها الدكتور علي أبو عساف (سورية) حول شرح معاني بعض المفردات



ابجدية راس شمرا

OUGARIT	LATIN	ARABE	OUGARIT	LATIN	ARABE	OUGARIT	LATIN	ARABE
𐎀	A	أ	𐎊	Y	ي	𐎔	P (F)	ف
𐎁	B	ب	𐎋	K	ك	𐎕	= ṣ	ص
𐎂	G	ج	𐎌	= š	ش	𐎖	Q	ق
𐎃	ḫ =	خ	𐎍	L	ل	𐎗	R	ر
𐎄	D	د	𐎎	M	م	𐎘	ṯ =	ث
𐎅	H	ه	𐎏	= ḏ	ذ	𐎙	ġ =	غ
𐎆	W	و	𐎐	N	ن	𐎚	T	ت
𐎇	Z	ز	𐎑	ẓ =	ظ	𐎛	I	إ
𐎈	ḥ =	ح	𐎒	S	س	𐎜	U	ؤ
𐎉	ṭ =	ط	𐎓	ʿ =	ع	𐎝	(s)	(س)

الاوغاريتية ومقارنتها بالعربية •• وقد أشار الدكتور أبو عساف في دراسته الى أن معظم العلمـاء المهتمين بدراسات اللغات الشرقية قـد قللوا في استشهادهم بمفردات اللغة العربية وقواعدها حين يدرسون نصـا اوغاريتيا أو آراميا واكتفوا في غالب الأحيان بايراد مرادفات عربية لكلمات واضحة المعنى وتجنبوا نهائيا مقارنة أية كلمـة ذات معنى غامض كما هو الحـال بالنسبة للأوغاريتية مع الكلمات العربية ومرد ذلك في رأيـه هو صعوبة الامساك بمفردات اللغة العربيـة وقواعدها المخزونة في قواميس كبيرة ، وأشار الى انه لولا اللغات الحية لما وصلنا الى النتائج التي بين أيدينا الآن ومن هنا يجب أن نعتمد أكثر فأكثر على اللغـة العربية في ازالة الغموض عن معاني كلمات كثيرة ويجب الاكثار من المقارنة بينها وبين ماسبقها من لهجات حتى نصل الى غايتنا • وان اللغة العربية التي تتحدث بهـا ليست الا المرحلة النهائية التي تطورت اليها لغات بلادنا القديمة التي وصلت الينـا مكتوبة بالخط المسماري أو بالحروف الأبجدية ، وهي وريثة تلك اللهجات بكل مافي هذه الكلمة من معنى ، اذ حفظت مفرداتها وصقلت معانيها وهذبت ألفاظها على قواعد علمية وصـاغت قواعدها على نحو شامل • لقد مكننا هذا في كـافة أرجاء الوطن العربي من الكتابة بلغة موحدة والتحدث في غالب الاحيان بلغـة فصحى واحـدة ، ونحن في الوطن العربي كغيرنا من الأمم لانتكلم فقط بلغة عربية فصحى موحدة بل لدينا لهجات نسميها عامية تعود في أصولها « حسب رأي الدكتور أبو عساف » الى تلك اللهجات القديمة من أكادية وكنعانية وآرامية ويمنية ••• والعربية الفصحى والعـامية شعرهـا ونثرهـا وقواعدها ومفرداتهـا تطورت عن تلك اللهجـات أو اللغات ولا يستطيع أحد أن ينكر بأنها المرجع الأهم في دراساتنا لتراثنا اللغوي القديم ، ونحن نحسن صنعا فيما اذا زدنا من اهتمامنا بدراسة لغاتنا الشرقية القديمة وربطناها باللغة العربية حفاظا على تراثنا الى جانب ان مثل هذا الامر يقود الى اجلاء الغموض عن مفردات كنعانية ، آرامية ، اوغاريتية ••• ليس لها ترجمـة مرضية حتى الآن ••• وللوصول الى هذه الغاية قام الدكتور ابو عساف « كما نوه » بما يلي :

١ ـ جمع المفردات الاوغاريتيـة ذات المعـنى الغامض مرقمة وفق تسجيل العالمين ايستلير وغوردن •

٢ ـ العودة الى النصوص التي وردت فيها تلك المفردات فشاهد أن من هذه النصوص ماهو شبه تام ويمكن فهم معناه وما هو مشوه لايمكن فهم معنـاه أو حتى فحواه •• وكان امام أمرين اثنين : اولهما انه بالامكـان في حال كون النص تامـا أو شبه تام فهم محتوى النص وبالتالي تقدير معنى الكلمة لم تترجم ، وثانيهما وجد أنه ليس من المستحيل وجود قرائن عربية لمفردات أوغاريتية وردت في نصوص مشوهة •

وكانت هنالك صعوبات منها :

١ ـ من العسير ان نجد جملا متطابقة استعملت فيها نفس الكلمة في الاوغاريتية والعربية ، بل نجـد تقاربا في المعنى •

٢ ـ رغم اسهاب قواميس اللغة العربية في ايضاح معاني الكلمات فان شواهدها من الجمل قليلة •

٣ ـ ان الرجوع الى العامية صعب بسبب عـدم توفر تدوين لها وتعذر التنقل في الريف بغيـة البحث والدراسـة •

وقام الدكتور أبو عساف في نهـاية بحثه بعرض موجز لأهم النتائج التي توصل اليها وعرض كلمـات مختارة أوغاريتية مع مقارنتها بالعربية •••



●● الاستاذ لؤي عجان (سورية) قدم بحثا بعنوان « ايضاح بعض التعابير الغامضة من نص اقهت على ضوء اللغة العربية » حيث قام الاستاذ عجان بمقارنة بعض التعابير التي وردت في نص « اقهت » الاوغاريتي ببعض التعابير العربية ، وأشار الى أنه خرج بنتائج لعلها حلت بعض العقد ومنها مثلا تفسير كلمة وردت في مطلع النص الاوغاريتي حيث نجد « دانل لم يرزق ابنا يطعم ويسقي الآلهة (اوزر) ، اوزر ايلم يلحم و اوزر يشقي بن قدش » •

وأشار الاستاذ عجان الى أن ترجمة كلمة (اوزر) ظلت غامضة وان اقترب بعضهم الى المعنى الصحيح حين اعتبروها نوعا من التقدمة للآلهة ، ولكن عند العودة الى اللغة العربية وجدنا ان الاعذار والعذار والعذير كلها تعني الطعام الذي يقدم بمناسبة الختان • ودانل المحروم من الولد يقدم ذلك الطعام للآلهة لحثها على منحه الولد وكأنه يقول « هذا هو الطعام فأين الولد» •

واستعرض الاستاذ عجان في بحثه حوالي عشرين عبارة استخرجت من نص « اقهت » الاوغاريتي عرض ترجماتها السابقة ثم قدم الترجمة التي اعتقدها الأصح مستندا بالدرجة الاولى الى اللغة العربية مع اللجوء في بعض الاحيان الى لغات سامية أخرى •

● بيير بورد روي الاستاذ في المركز الوطني للبحث العلمي في باريس (فرنسا) قدم بحثا حول « نصوص أبجدية لم تنشر عن رأس الشمرا ونصوص أبجدية جديدة في رأس ابن هاني » • حيث أشار الاستاذ بورد روي في بحثه الى نص أبجدي واحد قد بقي حتى اليوم غير منشور اكتشف صدفة على سطح تل رأس الشمره في عام ١٩٧٤ وقدم تفسيرا جديدا له ويرى فيه مايدل على نظام في الوزن وفيه « الفرس » يعادل ثلث الشاتل •

اما النصوص الابجدية المكتشفة في رأس ابن هاني عام ١٩٧٧ وعام ١٩٧٨ فهي تماثل في مواضيعها ماكتشف في العاصمة اوغاريت ، ومن هذه النصوص المجزأة في الغالب :

ـ قوائم اسماء، وأسماء اماكن، واعطيات ونذور •

ـ رسائل تذكر الملك أو الملكة •• واحداها تعتبر من المراسلات الدولية •

ـ نصوص طقسية بعضها يذكر الملك أو الملكة •

ـ نصوص ميثولوجية ، اثنان منها من طبيعة ، طبية ، سحرية •

● الاستاذ جون هيلي من جامعة ويلز (بريطانيا) قدم بحثا حول « الاوغاريتية ودراسة اللغات السامية » تطرق فيه الى مواضيع هامة بالنسبة للدراسات الاوغاريتية اللغوية منها :

١ ـ وقع اكتشاف اللغة الاوغاريتية على دراسة مقارنة للغات السامية من (عام ١٩٢٩ حتى عام ١٩٧٩) •

٢ ـ تصنيف اللغة الاوغاريتية بين اللغات السامية •

٣ ــ أهمية اللغة العربية في دراسة اللغة الاوغاريتية
تقرير خاص باستخدام اللغة العربية الدارجة في
ورية .

● الدكتور دينيس باردي من جامعة شيكاغو (الولايات المتحدة) قدم بحثا بعنوان « كتاب بنحات ير مخاد الى معلميها » وهو من ضمن بحث واسع عن كتابة الرسائل الاوغاريتية قام به المؤلف بالاشتراك مع (جاري توتل) و (دافيد وورتمان) من جامعة (يل) وهذه الرسالة هي من الخادمين (بنهت) و (يرمحد) موجهة الى سيدهما الذي لم يذكر اسمه ، وتتضمن الرسالة تسعة وعشرين سطرا موزعة في ثلاثة مقاطع بخطوط أفقية ، يتضمن المقطع الأول عبارات العنوان والتحية ، في حين أن المقطعين الآخرين يشكلان صلب الرسالة ، وهدفت هذه الدراسة الى فحص عبارات هذه الرسالة بالمقارنة مع الشكل الرسائلي العام الدارج في اوغاريت باللغة الاوغاريتية والاكادية ومحاولة تفسير بعض التعابير الموجودة في صلب الرسالة .

● الاستاذ راوول فيتالي (سورية) قدم بحثا حول « اللوحة الموسيقية الاوغاريتية وبعض الملاحظات حول ترجمتها وتفسير معناها » وتضمن البحث :

(١) ــ وصفا للوحة : وهي نشيد باللغة الحورية مؤلف من ٤ أبيات تبدأ كتابتها على وجه اللوحة وتكتمل على الوجه الآخر .

(٢) ــ معلومات عن اللوحة الموسيقية الاكادية : لوحة تعطي اسماء اوتار القيثاره ، ولوحة أخرى تعطي اسماء الأبعاد الموسيقية وموقعها على الاوتار ولوحة تعطي معلومات على توافق اصوات القيثارة .

والنتيجة التي توصل اليها الباحث في بحثه هي : أن السلم الموسيقي المستعمل هو السلم المسمى بالفيثاغوري ذي ابعاد الخمس متتالية (أو أبعاد بالخمس وابعاد بالاربعة متناوبة) . البعد بالثلاثة شديد التنافر لايمكن استعماله عند تعدد الاصوات والمحتمل انه لهذا السبب تعدد الاصوات غيرمستعمل بالشرق .

(٢) آثار اوغاريت :

افتتحت الجلسة المخصصة للابحاث المقدمة حول آثار اوغاريت بالبحث المقدم من الدكتور عدنان البني (سورية) حول « القصر الملكي الاوغاريتي في ابن هاني » تحدث فيه عن الظروف التي أدت الى الكشف عن موقع ابن هاني وعن مواسم التنقيب الخمسة التي قامت بها بعثة التنقيب المشتركة (عربية ــ فرنسية)



مدخل القصر الملكي

والتي اوضحت في التل وما حوله خمس سويات أثرية هامة .. واشار الى أن السوية الخامسة هي أقـدم السويات المعروفة حتى الآن وتعود الى عصر البرونز الحديث الثاني ، والثالث (القرن الرابع عشر والقرن الثالث عشر قبل الميلاد) وقد انجلت عن قصرين جنوبي وشمالي وبينهما منشآت مختلفة الطبيعة عرف منها بعض المنازل .

والقصر الجنوبي تبلغ مساحتـه حوالي ٥٠٠٠م٢ وهو موجه بزواياه الى الجهـات الأربعة يصونه من الجهة الشرقية سور للدفاع والدعم يشبهالسور الغربي الاوغاريتي وشيد هذا القصر بطريقة السطوح المتدرجة التي عرفت في ايمار (مسكنه) على الفرات ، وكل من السطوح مشكل من الرمل والتربة الغضارية الحمراء ... ولكن هذا القصر لم يعثر فيه على لقى كثيرة ويبدو انه قـد أفرغ من اثاثه ومحتوياتـه من أجل الاصلاح أو خوفا من اجتياح شعوب البحر التي كانت تهدد القسم الشرقي من البحر المتوسط حوالي نهايـة القرن الثالث عشر قبل الميلاد .

أما القصر الشمالي فهو كالقصر الجنوبي كـان مخططا واتجاهـا وشيد على خط الساحل ولكنه في



مخطط القصر الملكي

وضع اسلم .. وهذا القصر أغنى من الجنوبي باللقى وفيه فخار وبعض اجزاء أواني الألباتر والعاج .. ونصوص هذا القصر ذات قيمة فائقة لانها أكبر مجموعة بين النصوص الاوغاريتية ولانها من ناحية ثانية ذات محتوى هام اذ تضم مراسلات داخلية وخارجية كما تضم نصوصا اقتصادية ودينية وميثولوجية وطبية وسحرية .

● جاك لاغارس من المركز الوطني للبحث العلمي في باريس (فرنسا) قدم بحثا حول « منشآت الدعم والدفاع في رأس الشمرا رأس ابن هاني » قال فيه « انه في سبيل تدعيم الانقاض التي كانت تقوم عليها أرض القصر الجنوبي في رأس ابن هاني ، قام معماريو عصر البرونز الحديث باحداث ركام بارتفاع ثلاثة أو أربعة امتار يحميه من الخارج جدار استنادي من الحجر بشكل سور شديد الميلان . وهذا الاسلوب على أهميته الدفاعية هو عمراني قبل كل شيء اذ بدونه لم يكن بالامكان تعلية القصر عن الصخور الطبيعية التي بني عليها .

وان اكتشاف السور المائل في ابن هاني قد حدا بنا الى اعادة النظر في السور المائل برأس الشمره والتحصينات المتصلة به . وقد لاحظنا ان سور رأس الشمرة المائل يحمي هو نفسه أيضا ، ركاما من ترابة بيضاء مرصوصة واضحة وهنا نجد أن السور المائل له وظيفة تدعيم الطرف الغربي من التل .

● الاستاذ روجيه صيدح (لبنان) قدم بحثا بعنوان « اوغاريت وصيرون : بعض أوجه التشابه » تحدث فيه عن أعمال الحفر والتنقيب التي اجريت منذ بضع سنوات في ضواحي مدينة صيدا والتي كشفت النقاب عن مقبرة قديمة العهد استعملت خلال ما يقرب



(رأس امير او اميرة من اوغاريت)

من ألف وخمسمائة عام .. ويمكن القول ان القبور التي تعود الى عصر البرونز الحديث بالرغم من انها أقل أهمية من قبور اوغاريت ، فقد تم العثور فيها على أثاث جنائزي غزير من الفخار وأدوات الزينة والتي تنتمي الى أصول متعددة : قبرصية ، الميسينية ، مصرية وكذلك محلية .

ولقد جاء هذا الاكتشاف ليؤكد وجود مركز تجاري هام في صيدا بين عامي ١٤٠٠ — ١٣٠٠ ق م وانه لعب دورا كبيرا في جنوبي البلاد الفينيقية ومن الممكن مقارنته بدور اوغاريت .

أما المقبرة التي ترقى الى نهاية العصر الحديدي فقد عثر فيها على قبور تذكرنا بالقبور التي عثر عليها

الاستاذ شيفر في ربيع عام ١٩٣٢ والتي تعود الى العصر الحديدي ايضا .

ومنه يمكن القول ان الأثاث الجنائزي وما أضيف اليه من الكتابات اتاحت تحديد تاريخها بدقة بمقارنته بتاريخ القبور المعاصرة التي وجدت في اوغاريت .

● الاستاذ نسيب صليبي (سورية) قدم بحثا حول « المدفن الأوغاريتي الذي اكتشف صدفة عام ١٩٧٠ » وهو من القبور المعروفة جيدا في أوغاريت ويذكرنا بالقبور الميسينية الكبيرة . وقد أدت عمليات الكشف التي قامت في هذا المدفن الكبير الى اكتشاف الكثير من القطع والفخاريات التي قامت المديرية العامة للآثار والمتاحف بترميمها .. كما اكتشفت بالاضافة الى ذلك في المدفن جرة من حجر الالباتر من مصدر مصري .

● الاستاذ سي ايشي ماسودا من جامعة طوكيو (اليابان) . قدم بحثا حول « فخار تل الرميلة في حوض الفرات وعلاقته مع حضارة العصر البرونزي في الساحل الشرقي للبحر المتوسط » . استعرض فيه الباحث اعمال التنقيب الاثري الذي قامت به البعثة الاثرية اليابانية خلال خمسة مواسم تنقيبية منذ عام ١٩٧٤ بتل الرميله وتل المشرفة الواقعين في حوض الفرات الى جانب تحريات واسبار في عدد من المواقع المحيطة بهما مثل : مدافن العصر البرونزي بما فيها مقابر الدولمن ومدافن من العصرين الرومانيوالبيزنطي .. كما بين في بحثه أوجه التشابه بين الفخار المكتشف في تل الرميله وفخار مواقع العصر البرونزي الوسيط والمتأخر على ساحل البحر المتوسط في سورية بما فيها (اوغاريت) .

(٢) الديانة والاساطير :

من ضمن الابحاث المقدمة والتي تتعلق بديانة وأساطير اوغاريت قدم الاستاذ باولو كسيلا من جامعة روما (ايطاليا) بحثا بعنوان « الرب ، رشف ، في أوغاريت » قال فيه « خصص للرب السوري «رشف» حتى الآن عدد هام من الصفات والدراسات ورغم ذلك يمكن التأكيد بأن شخصية هذا الرب مازالت غامضة حيث المعطيات بمجملها بخصوصه تدلنا على سلسلة من الصفات المعقدة كثيرا أو المتناقضة لتوافق الحقيقة التاريخية ، ويعود كل هذا الى عادة اعتبار المعطيات (المصرية الاوغاريتية والفينيقية ..) ككل تعود الى عصور مختلفة جدا ... وباعطائنا الافضلية للوثائق السورية من الألف الثاني قبل الميلاد فاننا نفترض هنا اقترابا من ــ رشف ــ الذي يأخذ بعين الاعتبار العنصر التاريخي ويهدف أيضا الى اقامة شخصية الرب في البيئة والعصر الذين تدل عليهما المصادر ...

إن نصوص رأس الشمرا ونصوص رأس ابن هاني تقدم لنا عدة معلومات عن حضوره في العبادة وعن دوره في مجتمع آلهة اوغاريت ، وعن شعبيته على الصعيد الشعبي ، وان تحليل صفاته (م ح ب ن) و (ح ج ب) و (س ب ي) و (م ل ك) و (ي د ر ب) مع الصفة موضع الجدال (ر ش ف ج ن) الموحدة مع (ر ا ش ف ج و ن و) من (نصوص تل مرديخ-ايبلا) تعرض لنا لائحة غنية ومغرية وتؤدي الى نتائج بعضها جديد » .

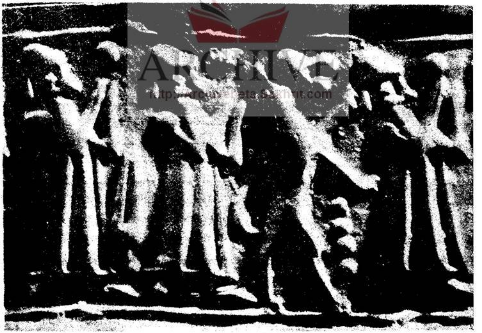
● الاستاذ بشير زهدي (سورية) قدم بحثا بعنوان « اوغاريت والفكر » قال فيه « ان نصوص اوغاريت المكتشفة من قبل البعثة الاثرية الفرنسية في رأس الشمرا ، قد اغنت معرفتنا عن التاريخ الثقافي للشعب الكنعاني العربي الاصل » .

وقد هدفت دراسة الاستاذ زهدي الى عرض

اسهام شعب اوغاريت في نشوء الفكر وتطوره ومحاولة دراسة بعض خصائص الفكرة الميتولوجية والدينية والسياسية والحقوقية ، والاقتصادية والأدبية والفلسفية والاخلاقية والجمالية ... ان الفكرة لدى المثقف الاوغاريتي تبدو وراء البحث عن مبادىء قادرة على تفسير قوانين الكون... ان النصوص الاوغاريتية تعكس نشاطا ثقافيا كبيرا للفكر الانساني يتميز بغنى التجربة وعمق التأمل .

● مارلين كيلي بوتشيلاتي الاستاذة في جامعة لوس انجلوس (الولايات المتحدة الامريكية) قدمت بحثا بعنوان « ختم السلالة الاوغاريتي » تناولت فيه بالبحث والتحليل الاختام الاسطوانية السورية ـ الرافدية من حيث الاسلوب والصور ، وأوضحت في هذا البحث الطرائق المتبعة ، ونوعية المطبوعة ونمط النتائج مع اشارة خاصة الى اوغاريت .

● الاستاذ وحيد خياطه (سورية) قدم بحثاً حول « الديانة الكنعانية على ضوء النصوص المكتشفة في أوغاريت » . وقد أشار الاستاذ خياطة في بحثه الى أنه قبل اكتشاف أوغاريت لم نكن نعرف شيئاً مهماً عن الحضارة الكنعانية ولم تكن النصوص التي عثر عليها في أوغاريت مكتوبة باللغة الاوغاريتية ، فالى جانب اللغة المحلية هناك السومرية والبابلية والحورية



(ختم اسطواني)

الحتيانية والحثية الهيروغليفية والهيروغليفية المصرية والقبرصية القديمة ••• وقد جاءت اللقى والنصوص الاوغاريتية لتزودنا ببعض الافكار الواضحة نسبياً عن الديانة الكنعانية السورية القديمة •• وعرفتنا نصوص اوغاريت على الديانة الرسمية للدولة •• وان الديانة الكنعانيـة لم تتأثر بجو عـدم الاستقرار السياسي الداخلي الذي كانت تعاني منه سورية عبـر تاريخها الطويل كما هو الحال في حضارتها التي تأثرت تأثيراً كبـيراً بالحضارات المجاورة فنرى أن الدين يشكل وحدة متماسكة واستمراراً ثابتاً فريداً قلما يشذ عن المتعارف عليه •

لقد أعطانا الانسان الاوغاريتي أدباً انسانياً شموليا يمتد من الساحل السوري الى مصب الرافدين الـى وادي النيل وهضبة الاناضول الى البحر الايجي دون أن ينقص من خصائصه المحلية المميزة ••• واذا كنا لم نعثر في نصوص أوغاريت على أساطير وافدية المنشأ الا أن الاكتشافات المدهشة الاخيرة في تل مرديخ سوف تساعدنا كثيراً في فهم الكثير عن الديانة الكنعانية التي لم تبدأ قطعاً في نصوص رأس شمرة من النصف الثاني من الألف الثاني ق•م وانما تمتد جذورها حتماً الى فترات اقدم •

(٤) تاريخ اوغاريت :

من ضمن الابحاث التي قدمت في الندوة ضمن هذا الاطار البحث المقدم من جيورجيو بوتشيلاتـي الاستاذ في جامعة لوس انجلوس (الولايات المتحدة الامريكية) • حول « الغجر والبداوة : مسألة الخبيرو من خلال التطور السياسي لسورية القديمة » • ومما تناوله في هذا البحث ••

« ان تطور المدن في الشرق الادنى القديم قـد أدى الى تطور المؤسسات السياسية فضلاً عن ممارسة السلطة داخل الجماعـات البشرية وتحديـد السيادة بصورة متبادلة بين الدول • وبالنسبة لاكثر المجموعات البشريـة كانت السلطة تتجلى بشكل دويلـة ذات أراضٍ • والبداة ، من بين الجماعات البشرية الاخرى وصلوا أيضاً الى مفهوم خاص للعلاقـة بين الارض والسلطة السياسية •

ويجب أن نميز بين نمطين اساسيين من البداوة ، البداوة على طريقة الدارة المغلقة ، والبداوة على طريقة الدارة المفتوحة • الحالة الاولى تقوم على وجود عشائر ترعى الماشية وتحط رحالها نظامياً في أماكن محددة في فصول السنة ، أما في الحالة الثانية ليس للبداوة ، ما يهدي الى خط سيرهم فتحركاتهم ليس لها ابـداً منهج محدد ، ولا يعودون الى منتجعاتهم السابقة الا صدفة ، فهم يتنقلون في دارة مفتوحة تماماً ، وهـذا النمط من البداوة يماثل مبدئياً لما نراه لـدى الغجر في وقتنا الحاضر •

وهؤلاء الغجر كظاهرة اجتماعية نوعية ميزوا في اللغة بدقة بدلالة أنه اطلق عليهم اسم واحد في مناطق لغوية مختلفة : ومن ذلك « حبيرو » في اللغة الاكادية• و « عفر » في اللغة الاوغاريتية ، و « عبريم » بالعبرية، وهم كالغجر تماماً ، كانت لهم هوية محـددة ، ولكن ليس لهم وحدة لغوية أو اجتماعية أو سياسية • كانت هويتهم سلبية ، لانهم كانوا اصلاً من المشردين وبقوا بالتالي اناس بلا وطن • كانوا يعيشون على هوامش المجتمع المدني والمستقر (بما في ذلك مجتمع البداة الذين يعيشون على طريقة الدارة المغلقة فهؤلاء كانوا مرتبطين بالحدود الارضية ان لم يكونـوا مرتبطـين بالحياة المدنية) • ان تحديد هوية « الغجر » هو نتيجة

وعي حاد في الحضارة التي تمثلها أوغاريت أروع تمثيل » .

● الأستاذ فريد جحا (سورية) قدم بحثاً حول « مكانة أوغاريت بين المدن » تناول فيه بالبحث مكانة أوغاريت كمدينة كنعانية وعربية وتحدث عن ازدهارها وحضارتها وسبل انتشارها ، وتأثرها فيما حولها من مدن .. وتحدث مطولاً عما كتب حولها من مؤلفات ومقالات وعن كتاب « أوغاريتيكا » السنوي الخاص بها وعن مواسم التنقيب فيها .. ثم عدد ما فيها من مرافق وشوارع وصفات هذه الشوارع وتلكم المرافق .. وعرض الى ما تجلى من ذوق أهالي أوغاريت في اللقى التي عثر عليها ، وموضوع الاهتمام بالحياة بعد الموت ، ذلك الاهتمام الذي تجلى في العناية بالمدافن ، وفي كثرة الكهنة وفي وجود كاهن أكبر يدير مدرسة عالية يتمرن فيها الطلاب على القراءة والكتابة وعلى الترجمة خاصة . كما تحدث عن مكتبات مدينة أوغاريت الكثيرة وما حوت من تراث وما قدمت لنا من معلومات لم تفد منها نحن فقط بل أفادت منها الانسانية كذلك . انها مكتبات ان دلت على شيء ، فعلى ان سكان أوغاريت قد كانوا الى جانب ما تمتعوا به من ذوق فني علماء ورواد حضارة ضمت الجوانب المادية والفكرية منها في آن واحد .

● الاستاذ آلان ميلارد من جامعة ليفربول بانكلترا . كان بحثه بعنوان « قادش وأوغاريت » تحدث فيه عما لهاتين المدينتين من أهمية كبرى في عصر البرونز الحديث وعن الدور الهام الذي لعبتهما من الناحية الاقتصادية والسياسية .. كذلك تحدث عن العلاقة بين المدينتين في ميدان الكتابات ، ذلك أن قطعة صغيرة من جرة فخارية كبيرة عثر عليها في قادش تحمل اشارات مسمارية ابجدية ، والحروف العشرة تشكل نهاية لنمط من أنماط الاهداء .. غير أن وجودها في قادش يشير الى انتشار الابجدية المسمارية، وهي ليست بالطبع ابجدية أوغاريت المعروفة وانما هي نمط آخر أكثر اختصاراً .

● الدكتور شوقي شعث (سورية) قدم بحثاً حول « العلاقة بين مملكة يمحاض (حلب) وأوغاريت في مطلع الألف الثانية قبل الميلاد » . تحدث فيه عن المصدر الرئيسي لهذه العلاقة وهو أحد الرقم المكتشف في مدينة ماري على الفرات (تل حريري) ، هذا الرقيم عبارة عن رسالة موجهة من ملك يمحاض (حلب) الى زمر يليم ملك ماري يتوسط فيها لرجل أوغاريت، بناءعلى طلب الأخير بأن يشاهد القصر الملكي في ماري الذي كان زمر يليم قد رممه أو أكمل بناؤه وكان ذلك القصر ذائع الصيت في عصره في المنطقة الواقعة ما بين نهر الفرات والبحر المتوسط .. هذه الرسالة تدلنا على ما يلي :

١ ــ ان مملكة ماري كانت موجودة باسمها في مطلع الألف الثانية .

٢ ــ ان العلاقة بين أوغاريت ويمحاض كانت علاقة تبعية أو صداقة وأن لاعلاقة مباشرة بين ماري وأوغاريت والا لكتب أي ملك أوغاريت الى ملك ماري مباشرة دون الحاجة الى وسيط ...

٣ ــ سيطرة يمحاض في عصرها على جزء كبير من البلاد .

« خلاصة القول يمكن الافتراض أن أوغاريت كانت في عصر قوة يمحاض (القرن الثامن عشر) الذي لم تبلغها دولة معاصرة لها حتى في بلاد ما بين النهرين تابعة لها ، ومن الممكن ان يظل هذا الافتراض قائماً حتى يتسنى للمنقبين الاثريين العثور على مدينة حلب

القديمة التي كانت عاصمة لمملكة يمحاض تحت المدينة الحديثة وعلى وثائقها المكتوبة » .

● الدكتور محمد منظر الاستاذ في قسم التاريخ بالجامعة التونسية ومدير قسم الدراسات الكنعانية في المعهد القومي للآثار (تونس) قدم بحثاً بعنوان « من أوغاريت الى قرطاج » تناول فيه بعض أوجه القرابة بين العناصر الحضارية التي اينعت في أوغاريت خلال الألف الثانية قبل الميلاد والعناصر الحضارية التي برزت في البلاد المغربية تحت تأثير الفينيقيين أحفاد الكنعانيين والاوغاريتيين عرقاً وحضارة .. اشار في بحثه الى عنصرين أولهما يتعلق بالعمارة السكنية والثاني يتصل بشؤون الآخرة ..



(١) العمارة السكنية :

أشار الى أن من بين النتائج التي اسفرت عنها الحفريات في الاقطار المغربية وفي بعض جزر غربي البحر المتوسط معطيات تتعلق بالمسكن .. فعلى اختلاف هذه البيوت من حيث حجمها وعناصرها ومن حيث منزلة أصحابها الاجتماعية والاقتصادية نراها تتخذ في مخططها الاساسي التالي : يفتح البيت على الطريق تفصله عنه مصطبة تقيه شر بعض الملوثات كمياه الخنادق وغيرها من أوساخ الشوارع ومن الباب يتوغل الداخل في سقيفة أو معبر طويل منعطف حتى لا يستطيع المارة ذوي الفضول اختلاس النظر داخل البيت ومن المعبر يصل الى فناء تحيط به الغرف ولهذا الفناء وظائف عديدة منها تزويد الغرف نوراً وهواءً نقياً وفي الفناء تقوم ربة البيت بانجاز الكثير من أشغالها المنزلية ، ثم نجد في الفناء البئر أو الصهريج لخزن مياه المطر وتجد فيه مدرجاً يدفع الى الطابق العلوي أو الى علية ولعلهم كانوا يستخدمونه للصعود الى السطوح لترميمها أو لعرض بعض المواد المنزلية من مونة وغيرها لأشعة الشمس ... » . « تلك هي أهم العناصر في البيت اليونيقي [1] كما وضعتها الحفريات وتوجد نفس هذه العناصر منذ أقدم العصور في بيوت وادي الرافدين الى مدة ساحل البحر المتوسط ومنها مدينة أوغاريت » .

(٢) مدينة الاموات :

ما يتصل بهذا الموضوع اشار الدكتور منظر الى « أنه كان في معتقد الكنعانيين عامة والاوغاريتين

١ ـ الحضارة اليونيقية : اسم يطلق على الحضارة التي امتزجت فيها العناصر الفينيقية والكنعانية مع العناصر الحضارية الافريقية العربية .

بالخصوص عقيدة تتعلق بشؤون الآخرة مضمونها أن الاموات يتعمقون فيمدينة خاصة بهم مدينة (الأموات) ولكن كيف كان الكنعانيون وسكان أو غاريت يتصورون تلك المدينة ؟ ليس في الرقم ما قد يفيد بما فيه الكفاية للاجابة على هذا السؤال • أليس من الطريف والمثير كذلك أن نجد في تونس وثيقة تصور مدينة الاموات تعود الى القرن الرابع ق٠م » •

● عما نويل لاروش ، الاستاذ في الجامعة الفرنسية (باريس) قدم بحثاً حول « أهمية العنصر الحوري في أوغاريت القديمة » تحدث فيه عن وجود بقايا بشرية غير سامية اكتشفت في أوغاريت وهي تنتمي الى الشعب الحوري وحاول تقييم هذا الوضع من خلال دراسة اسماء الاعلام « ما هي الشخصيات التي تحمل اسماء حورية صحيحة وماهو مركزها الاجتماعي ومهنتها » ؟ ومن دراسة الدين « من خلال معرفتنا مجمع الآلهة الحورية في رأس الشمرة » • والحضارة، من خلال مظهر سلبي « يبدو أن الشعب الحوري لم يكن ذا حضارة مادية خاصة به » • ومظهر ايجابي « ينتمي الحوريون في رأس الشمرة مع حوري ايمار (مسكنه) الى مجموعة غربية من الوحدة العرقية التي تأثرت تأثراً عميقاً بالثقافة البابلية » •

● ماريو ليفراني (ايطاليا) قدم بحثا حول « المدينة والريف في مملكة أوغاريت ، محاولة في التحليل الاقتصادي » تناول فيه بالبحث مسألة (الوزن الاقتصادي) للمدينة في الشرق القديم • في حالة أوغاريت الخاصة • وما هي التكاليف الاجتماعية للمنجزات المعمارية والفنية ولمعيشة فئات الاختصاصيين غير المنتجين للغذاء؟ ثم تطرق لدراسة النمط الاقتصادي لمملكة أوغاريت الذي يقوم على ثلاثة عناصر :

١ ــ القرى ومنها يؤخذ فائض غذائي ضئيل (١٠ بالمائة من المحصول) •

٢ ــ مزارع القصر ومنها يؤخذ فائض غذائي مرتفع (٥٠ بالمائة من المحصول) •

٣ ــ القصر مع اختصاصييه غير المنتجين للغذاء •

● الدكتور هشام الصفدي (جامعة دمشق) قدم بحثاً لم يكن مدرجاً في قائمة أبحاث الندوة بعنوان « انطباعات منقب في رأس الشمرا ومدينة البيضا » • تحدث فيه عن انطباعاته كمنقب عن الآثار وكمشارك في البعثات الوطنية الاثرية في رأس الشمرا ومينة البيضا منذ عام ١٩٥٦ ، وطالب من خلال بحثه بزيادة الاهتمام بالدراسات الأثرية والاستفادة من الطلاب الجامعيين العرب السوريين وزيادة التعاون بين المديرية العامة للآثار والمتاحف والبعثات الأثرية الاجنبية وجامعات القطر العربي السوري •

● الاستاذ جبرائيل سعادة (عاشق أوغاريت المتيم) قدم بحثاً عن « مدن وقرى المملكة الاوغاريتية » وقد ألقت البحث بالنيابة عنه الدكتورة ليلى بدر بسبب حادث بسيط ألم بالاستاذ سعادة منعه من القيام بذلك ••• وقد تضمنت الدراسة ثلاثة أقسام :

القسم الاول :

تناول فيه بالبحث النصوص المكتشفة في رأس الشمرة والتي تذكر أسماء مدن المملكة الاوغاريتية وقراها •

القسم الثاني :

تناول فيه معطيات الاسماء الحديثة للمدن والقرى الموجودة حالياً في الاراضي التي كانت تتألف منها في الماضي مملكة أوغاريت •

وقام بمقارنة اسماء المئتي مدينة وقرية الواردة في النصوص القديمة مع أسماء الـ (١٢٣٦) قرية ومدينة الموجودة حالياً في المنطقة نفسها ووجد بعض التشابه بين عدد منها وبين الاسماء القديمة .

القسم الثالث :

قدم فيه لمحة عن التلال الموجودة في المنطقة وعما يجب أن يتم فيها من أعمال تنقيبية .

آراء في هذه التظاهرة الحضارية الهامة .

● « هذه الندوة فضلاً عن المساهمات العلمية التي قدمها المشاركون سـواء في ميدان الكتابـات المسمارية أو في ميدان العمارة فانني أعتقد أن لهـا مغزى أو ينبغي أن يكون لها مغزى .. ذلك أن تجعل منّا نحن العرب واعين لمدى المساهمات التي قدمناها في سبك الحضارة المتوسطية والبشرية عامة » .

ــ الدكتور محمد منظر (تونس)

● « لقد دفعت هذه الندوة العالمية بالدراسات الاوغاريتية الى الأمام وأعطتها زخماً جديداً خاصة وأن أبحاثاً جديدة قد قدمت ، وطرحت أيضاً أفكاراً جديدة حول الديانة والفنون » .

ــ آن ميلارد ــ جامعة ليفربول ــ انكلترا ــ

● « هذه الندوة كانت مناسبة جد موفقة لجمع علماء الدراسات الاوغاريتية » والكثير من الابحاث تطرقت الى مواضيع جديدة سواء في حقل اللغة أو في حقل الآثار .. وان الكثير من الابحاث قد فتحت أمامي آفاق جديدة » .

ــ د. جون هيلي ــ بريطانيا ــ

● « هذه الندوة منظمة بشكل جيد ومريحة وقد أتاحت الفرصة لاعطاء أحدث الدراسات عن الشرق القديم وذلك لقدوم عدد كبير من العلماء . ومن خلال ذلك تبادلنا الآراء والخبرات في مجال أعمال التنقيب والدراسات وهو يعود بالنفـع على كل المشاركين في هذه الندوة .. ونحن شاكرين جداً للسلطات العربية السورية التي أتاحت لنا مثل هذه الفرصة » .

د. هارت موت كونه (المانيا الغربية)

● « ان الندوة العالميـة للدراسات الاوغاريتية كانت على غاية من النجاح وآمل أن تعاد ثانية .. ولدى نشر جميع المحاضرات والابحاث التي ألقيت في هذه المناسـبة سيتعرف العالم الى وجهـات نظر العلمـاء القادمين من بلاد مختلفة .. حيث أن الابحاث لا تتركز على فئة واحدة بل على الفئات المختلفة التي من خلال لقائها أعطت ثمرات جديدة للباحثين » .

د. ادمون سولبرجيه ــ المتحف البريطاني

● « لقد تعلمت كثيراً مما ألقي في هذه النـدوة العالمية لأنها حوت الكثير ... وعلمت لاول مرة عن ابن هاني وهو شيء هام » .

هنري كازيل (استاذ في معهد الدراسات العليا في باريس) .



□ □

الجليس والأنيس للمعافى بن زكريا القاضي الجريري

سكينة الشهابي

حين يسألنا سائل عن أمهات كتب الأدب العربية نجيب على الفور وبدون تردد : البيان والتبيين للجاحظ ، والكامل للمبرد ، والأمالي لأبي علي القالي هـذا ما حفظنـاه في دراستنا ، حفظنـا إيـاه مدرسونا وحفظناه بدورنا لتلامذتنا. ولم اسمع ولو من قبيل الاشارة العابرة من ذكـر : « الجليس والأنيس » للمعافى بن زكريا القاضي ، لم اسمع استاذا من اساتذتي نوه باسم هذا الكتاب وذكر مؤلفه بالاجلال والاكبار ، أو اقترح ان تدرس نصوص منه في مدارسنا ، لان اخباره الادبية مثلا تعرض بطريقة شيقة وهي حافلة بمفردات اتقن المؤلف عرضها عقب الأخبار منسقة ومشروحة .

بقيت أجهل الكتاب الى أن عملت في تحقيق تاريخ دمشق لابن عساكر فوجدت في أخبار هذا التاريخ كتابا في الأدب يتخذه الحافظ أصلا غير الكتب التـي ألفت ، ومؤلفا يعلي من ذكر غير المؤلفين الذين عرفت . توالى أمام بصري اسم المعافى بن زكريا القاضي وتوالت النقول من كتاب أثار اهتمامي ، لأنني وجدت مؤشرا ضخما يدل على قوة شخصية المؤلف وغزارة مادته في اللغـة . ووضعت في تفكيري منذ ذلك الوقت انه كتاب يضاهي « كامل المبرد » و « أمالي القالي » ، والا لما اختاره الحافظ ووضعه في حسابه قبل ذينك الكتابين . ظل ذلك الى أن تم لي التعرف بالكتاب ومؤلفه ، بالكتاب عن طريق تلك القطعة الموجودة منه في المكتبة الظاهرية ، وبالمؤلف بواسطة الكتب الكثيرة التي ترجمت له ونوهت بمؤلفاته الكثيرة ومن بينها « الجليس والأنيس » .

التعريف بالمؤلف :

هو المعافى بن زكريا بن يحيى بن حميد بن حماد ، أبو الفرج النهرواني القاضي ، علم من أعلام القرن الرابع الهجري ، قال عنه الخطيب البغدادي (١) : « كان من أعلم النـاس في وقته بالفقه والنحو واللغة وأصنـاف الأدب » ، ونقل عن أبي محمد الباقي قوله : « اذا حضر القاضي أبو الفرج فقد حضرت العلوم كلها . . ولو اوصى رجل بثلث ماله أن يدفع الى أعلم الناس لوجب ان يدفع الى المعافى بن زكريا (٢) » .

قصر المعافى حياته على علم والأدب ، فلم يرغب في منصب ولم تستبد به محبة الجاه والسلطان ، بل ربما كان يدفع المراتب عن نفسه عملا بحديث رسول الله ﷺ وما أكثر ماحذر من السعي الى امارة وانـذر الساعـي بسوء العاقبة ووبال المصير(٣) ، وربما من أجل ذلـك أحبه معاصروه ، وصدقوا في وصفه بما هو أهله ، قال الخطيب البغدادي : « سألت البرقاني عن المعافى فقال: كان أعلم الناس(٤) » . وهذه العبارة يقولها البرقانـي تدلنا على المكانة الكبير التي كان يحتلها المعافى فـي نفوس تلامذته ومعاصريه .

وتحدثنا أخباره انه ولي القضاء بباب الطـاق في الجانب الشرقي من بغداد نيابة عن القاضي ابن صبر ، ولاندري متى كان ذلك ولاشك ان مدة توليه هـذا المنصب لم تطل ، وظل شغله الشاغل في حياته التفسير والحديث والأدب وكل مايمت الى اللغة والدين بصلة، فلم يصب حظا من الدنيا لانه ما كان يهتم بان يصيب . قال الذهبي(٥) : « وقيل : كان قليل الشيء متعففا». واظن أن قارىء الجليس والأنيس يحس بما كان يتمتع

به صاحبه من ثروة علمية وخلقية عالية تعبر عنها تلك التعليقات الكثيرة المتناثرة عقب الأخبار .

كان المعافى أحد اثنين في القرن الرابع ، فهو صنو أبي حيان التوحيدي معاصره ، يذكرنا بـه في روعـة الأسلوب وإشراق البيان وفصاحة المنطق ، وقد نسرع الى تفضيلـه على أبي حيان اذا كنـا نميـل الى الادب واللغة والفقه ولانحب ان نضيع في متاهات التصـوف والفلسفـــة .

ويخيل إلي ان نوعا من التعاطف كان يربط بين الرجلين ، ربما كان ذلك بسبب القاسم المشترك الذي الف بينهما الا وهو الفقر ، حدثنـا ياقـوت قال(٦) : « قال أبو حيان التوحيدي : رايته ـ اي المعافى ـ في جامع الرصافة وقد نام مستدبر الشمس في يوم شات وبه من اثر الفقر والبؤس والضر امر عظيم ، مع غزارة علمه ، واتساع أدبه، وفضله المشهور ومعرفته بأصناف العلوم ولاسيما علم الأثر والأخبار وسير العرب وأيامها، فقلت له : مهلا أيهاالشيخ وصبرا فإنك بعين من اللـه ومرأى منه ومسمع »، هذه العبارات التي نقلها ياقوت وأعادها بايجاز الذهبي(٧) توحي لنا بشيء من الود كان يربط الاديبين الكبيرين ، كما انها تلقي ظلالا شاهبة من البؤس على حياة المعافى . وكان حظه من الدنيا لم يكن احسن من حظ أبي حيان ، ولكنه لم يرشاكيا ، ولابرما ساخطا ، كان ذا نفس كريمة وروح راضية ، اذاغضب لايغضب لنفسه ولكنه يغضب لواقع يريد اصلاحـه وأمور يراها معوجة فيسعى الى تقويمها(٨) ، ومن هنا يختلف طريقـه عن طريـق أبي حيان ذاك الذي أحس بمرارة الواقع ، ونظر الى مفاسد عصره فلم يأخذهـا ككل ولكنـه صب سياط غضبـه على أفراد استثاروا غضبه ، وحركوا نيران نقمته .

هذا أديبنا المعافى بن زكريا الجريري الذيناصر مذهب ابن جرير الطبري ونسـج على منوالـه فنسب اليه ، وقد ذكرت المصادر انه الف كثيرا من الكتب ، وذكر له كل من ابن النديم والذهبي تفسيرا في ستـة مجلدات(٩) ، ولم يصل الينا من كتبه سوى الجليس والأنيس .

امتدت حياة المعافى على القسم الاكبر من القرن الرابع فقد ولد سنة ٣٠٥ على أصـح الروايات التـي نقلت عنـه وتوفي باجمـاع المراجع في النهروان سنـة ٣٩٠ هـ .

واحب ان أعرف القارىء الكريم بالأصول التـي وصلت الينا من هذا الكتاب وان استعرض معـه بعض الاخبار فاطلعه على أسلوب المعافى وطريقتـه في عرض الاخبار وتفسيرها عليّ اضع بين يديه الدليل الكافيعلى أهمية الكتاب وضرورة الاسراع في نشره .

أصول الكتاب :

يوجد في خزانة مخطوطات الظاهرية قطعتان من الكتـاب :

١ ـ مجلدة تضم خمسـة وعشرين مجلسا مـن المجالس المائة التي يتألف منها الكتاب جاءت بعنوان : « الجزء الثالث من كتـاب الجليس والأنيس من أمالي القاضي أبي الفرج المعافى بن زكرياالنهرواني رحمـة الله عليه » .

تبدأ هذه المجلدة بالمجلس الثامن والاربعينوتنتهي بالمجلس الثاني والسبعين وتتألف من ١٩٩ ورقـة ذات وجهين ، وهي جيـدة الخط خاليـة من السماعات



والتعليقات معجمة ومشكولة ولكنهـا كثيرة التصحيف والتحريـف .

رقم هذه المخطوطة في خزانة الظاهرية ٣٢٠١عام/ وهي واضحة البداية والنهايـة فيهـا كثير من الخروم ولايشنعر بهذه الخروم توالي ترقيم المخطوطة . امـا طريقها فقد جـاء في بداية المجلس السادس والستين كما يلي : « اخبرنا الشيخ الامام تاج الدين بهاء الاسلام ابو سعيد ـ ويكنى ابا عبد الله(١٠) ـ محمد بن عبـد الرحمـن بن محمـد بن أبي الحسن مسعود المسعودي قال : انبأ الشيخ الامام ابو العز احمد بن عبيـد اللـه ابن كادش العكبري فيمـا اجازه قـال : انبأ ابو علي الحسين بن محمد الجازري قال : ... » .

وأما ابو العز بن كادش الذي أجاز المسعودي في



النسخة : فهو : شيخ ابن عساكر الذي تلقى عنه كتاب « الجليس والأنيس » إذنا ومناولة وقرأ عليـه اسناده وقال له : اروه عني . فالطريق اذا هو طريق نسخـة ابن عساكر التي استقى منها في تاريخه الكبير ولكنهـا ليست نسخة ابن عساكر فقد رواها عن ابي العز رجل آخـر .

ولاتبدأ المجالس في هذه المجلدة بداية واحـدة ، فقد نجد في بعض المجالس الرواية المباشرة عن المعافى من غير ذكر اسـم الراوي(١١) ، وقـد يبـدأ المجلس بـ « اخبرنا ابوعلي محمدبن الحسين بن محمد الجازري قال : اخبرنا القاضي أبو الفرج(١٢) .. » . وربمـا بدات طرق بعض المجالس بشيخ المعافى مباشرة(١٣) .

والذي يبدو لي أن هذه القطعة من الكتاب نقلت من اصل موثق روى عن ابي العز بن كادش ، وليس من المعقول أن تكون قطعـة من الكتـاب ذاته الـذي اذن بروايته ابو العز لمعاصر ابن عساكر ابي سعيد محمـد ابن عبد الرحمن المسعودي .

ب ـ في الظاهرية أيضا مجلس مفرد من مجالس الجليس والأنيس هـو المجلس الخمسون جـاء برقـم ٤٥٥٤ . وهو مستل من نسخة جيـدة قديمـة كتبت سنة ٥٤٢ .

حـ ـ وهناك ثلاثة اصول لكتاب الجليس والأنيس حدثنا الأستاذ أكرم العمري حديثا وافيـا عنها(١٤) ، وهي : صورة بالفوتستات موجودة بالمكتبة المركزيـة التابعة لجامعة بغداد ، واصـل مخطوط محفوظ فـي خزانة احمد الثالث بتركيا وآخر فيمكتبة الحـرم المكي الشريـف .

وماذا عن طبع الكتاب :

اصول هذا الكتاب متوفرة بشكل جيد فلماذا لم يطبع الى الآن ؟ سؤال طرحته على نفسي عشرات المرات وانا اسمع الأنباء المتضاربة عن تحقيقه : كان الأستـاذ احمد صقر يعمل في تحقيقه منذ فترة طويلة ، وحقـق حوالي ثلثه في العراق(١٥) ، وهناك أنباء تقول انه يحقق في الهند . . .

ولكن لماذا لم يطبع الى الآن ، الا يساوي هـذا الكتاب في القيمة كامل المبرد وامالي القالي وعيون اخبار ابن قتيبة وبيان الجاحظ . وفي اعتقادي انه يفوق هذه الكتب في غزارة المادة التي يضمها بين دفتيه وفي طرافة

عرضه للمادة اللغوية ، وفي سعة الفترة التي يرويعون اخبارها . ثم ان اسم المعافى في عالم الادب والنحو والفقه ليس اقل إشراقا من اسماء أولئك الأعلام الذين الفوا قبله (توفي الجاحظ سنة ٢٥٥ ، وابن قتيبة سنة ٢٧٦ ، والمبرد سنة ٢٨٥ ، والقالي سنة ٣٥٦) .

انني لا أجد سببا في حبس هذا الكتاب عن ايدي القراء الا المصادفة المحضة فهل نسمح للمصادفة ان تحرمنا من علم كثير وثروة لغوية نادرة قد لايسهل علينا هضمها وابتلاعها من غير كتاب المعافى لانها ستعرض بطريقة معجمية تجعل القارىء غير الباحث زاهدا فيها منصرفا عنها .

ولعل الاوان قد حان ان يخرج هذا الكتاب بحلة جديدة ونحن نعمل في بعث تراثنا والتنقيب عن مخبآته في زوايا المكتبات كخطوة أولى في الوصول الى سابق عزمنا وسالف حضارتنا .

اهمية الكتاب ومنهجية المعافى في عرض مادته :

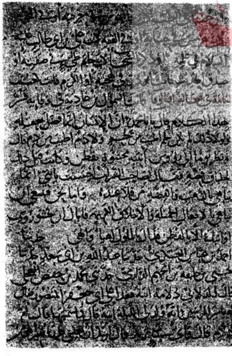
نوهت المصادر القديمة بمؤلفات ابي الفرج الجريري ومن بينها كتابه هذا ، فقد وصفه ابن النديم بانه من خير كتبه وقال : « يذكر فيه فضائل جمة واخبارا مستحسنة وغير ذلك من الفوائد(١٦) » .

والحقيقة ان للكتاب اهمية كبيرة فهو حافل بالأخبار الأدبية الطريفة والاشعار المستملحة والنوادر التاريخية والشروح اللغوية ، ولانغالي حين نقول انه يعطينا صورة حية صادقة لجوانب من الحياة العربية قلما جادت بها مصادرنا الأخرى التاريخية والادبية بالاضافة الى الشروح اللغوية المستفيضة والتعليقات الادبية النفيسة التي تؤكد لنا ان المعافى لم يكن رجل لغة ونحو وانما كان اديبا ذواقة يميز بين النصوص ويفاضل ويقارن ليضع يدنا على مواطن الجمال . ولعلنا نلمح بعض هذا في عرضنا نماذج من الكتاب .

لايجد قارىء الجليس والانيس موضوعا سار عليهمؤلفه ، ولكنه قسمه تقسيما هندسيا يذكرنا بكتاب الامتاع والمؤانسة لابي حيان التوحيدي معاصر المعافى ، فالكتاب مائة مجلس وكل مجلس من هذه المجالس يبدؤه المعافى بحديث يرويه عن الرسول صلى الله عليه وسلم يفسر ماجاء فيه من الغريب ثم يسترسل فيما شاء الله له من اخبار لاتقيده في ذلك وحدة الموضوع الا ما جاء عفوالخاطركما جاء في الباب الحادي والسبعين

حيث ربط بين حديث الرسول صلى الله عليه وسلم عن الغناء وبين خبر طويل عن المغني اسماعيل بن جامع نفيد منه أن الرشيد كان ذواقة للغناء يشجع المغنين ويبعد عنهم الفاقة والعوز ويكفيهم السعي في طلب الرزق ، وكأني بالمعافى اراد حين قدم هذا الخبر – ان يقارن بين حال الأدباء والعلماء وما كانوا يلقون من رعاية وتكريم في عصر الرشيد وبين البؤس والفاقة التي كانوا يعانون منها في القرن الرابع يقول : « فرأيت ان أرسمه هاهنا اذ هو مما يستحسنه ويصغي الى استماعه ذوو الفضل من الادباء ، وينشط للوقوف عليه أولو الحجى من الرؤساء » .

والحقيقة اننا نخرج من الخبر وملء اسماعنا وابصارنا صور من حضارتنا العربية ومجالس انسها . وربما اغمض احدنا عينيه علـه يفلت من عنصر الزمن



فيعيش ، ولو فترة قصيرة في ذلك العز المسيطر والحضارة الوارفة ، او يسمع على الاقل صوت ابن جامع ، هذا الذي احيا الرشيد ووزيره جعفر ليلهما في الاستماع اليه .

والمعافى لاينسى تفسير الألفاظ الغريبة كلما وجد ضرورة لذلك ، ويستعرض في تفسيرها أمثلة من الشعر والحديث والقرآن الكريم ، وهو في ذلك تلميذابن قتيبة، ربما كان ذلك عن قصد منه او عن غير قصد ، وفي اعتقادي ان طريقته هي الطريقة المثلى لأستاذ العربية في عصرنا الحاضر إن أحسن استخدامها ، وتمكن من السير على نهجها ، فأحدث المناهج التربوية تنادي بطريقة المعافى من غير أن تدري ، إنه استاذ العربية الأصيل وأبو بجدة تلك الدروس النموذجية التي ينادي بها اساتذة التربية . وحبذا لو اتسع المقال لأعرض على القارىء بعض أخبار المعافى كاملةليحس باللذة التي احس بها ، ولكن المقال لايتسع لاستعراض النماذج الكاملة لذلك اكتفي بعرض المقتطفات واحيله الى المصدر عل أصواتا كثيرة تنضم الى صوتي مطالبة بطبع الكتاب .

يروي لنا المصنف في المجلس الثاني والسبعين خبر رجل اشتهى الحلوى فخرج الى الطريق فاذا : « .. اخاوين حلوى فنودي : يا اسماعيل هذا الذي اشتهيت وان تركته خير لك .. » وبعد ان ينتهي المعافى من سرد الخبر يقول : « قوله : اخاوين حلوى ، يقال لما يجعل عليه الطعام قبل جعله : خوان ، فاذا جعل عليه فهو مائدة ، فاذا رفع الطعام عنه عاد الى تسميته : خوانا. وزعم بعضهم أن المائدة انما تسمى بهذا الاسم اذا خف ماعليها من الطعام لانها حينئذ تميد .. » . وقال بعضهم : الخِوان بالكسر كلام العرب ، وهو خُوان بالضم باللسان الفارسي ، وروي لنا عن الفراء الكسر والضم في الخوان من كلام العرب وجمعه اخاوين مثل سِوَار وأساوير . وبجمع السوار ايضا على أسورة وأساورة ، والهاء في أساورة عوض عن الياء في أساوير، وذكر نحو هذا سيبويه في زنديق وزنادقة ... وقال الاخفش في قوله تعالى : فلولا ألقي عليه أساورة » لانه جمع اسوار وأسورة ... قال القاضي : وقد قال الله جل ذكره : « وحلو اساور من فضة ، وقال تعالى : يحلون فيها من أساور من ذهب فأتى الجمع هاهنا على أساور . وحكى ثعلب ان الفراء قال : أسورة جماعة سوار للذي في اليد يضم ويكسر » .

ويقيني أن القارىء لن ينسى ابدا معنى كلمة الخوان ولن يخطىء في جمعها ، ولن ينسى الأمثلة التي ضربهاالمعافى لقياس هذا الجمع. ولورجعنا الى معاجمنا ولنأخذ اكثرها تفصيلا وامثلة الا وهو لسان العرب . حين نستعرض مادة « خون » في اللسان لانجد فيها هذا التفصيل الدقيق « للخوان » وجموعه وماجاء عن العلماء فيه هذا بالاضافة الى أن قارىء الخبر يشعر كأن التفسير جاء طلبا منه فلا يجده ثقيلا مملا جافا لأنه كان نابعا من الخبر احتجنا اليه في معنى اللفظة فعرفناه وعرفنا موضع استعماله .

وليس تعقيب المعافى على الأخبار تعليقات ادبية وشروح لغوية فقط ، لقد عودنا أن يكون معلما ماهرا يعطي لكل مقام مقاله المناسب ويعقب على كل خبر بما يحتاج اليه طالب العلم النهم .

يبدأ المعافى في مجلسه الخمسين بحديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم معناه أن رجلا دخل على النبي صلى الله عليه وسلم فقال له : استعملني فقال : « إنا لانستعمل على عملنا من طلبه ، ولامن حرص عليه » . ويعقب المعافى : « تأملوا رحمنا الله واياكم ماورد به هذا الخبر عن نبينا صلى الله عليه وسلم في اخباره أنه لايستعمل على الناس من طلب العمل عليهم، ولا من حرص على ولاية أمورهم ، لأن من سأل هذا وحرص عليه لم يؤمن زيغه عن العدل في من يلي عليه ، ومحاباته لمن يوليه، وشفاء غيظه ممن يعاديه والاستطالة بما بسط فيه على من بسط عليه فيجور في حكمه ويستعين في سلطانه على ظلمه » .

أرانا أي أسلوب بسيط واضح بعيد عن التكلف فسر به قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وبمعنى آخر أرانا هذا الثوب من الالفاظ والتراكيب الذي ألبسه المعافى لمعانيه ، كانت المعاني شافية وافية ؛ وكانت الالفاظ رداء ليس بالواسع الفضفاض ولا بالضيق الحرج ، لم تثقله الصنعة ، ولم يخل من التأنق والذوق، وكأن هذا الاسلوب أخرجته يد صناع عملت فيه بآلة سحرية فبدت فيه السهولة الممتنعة التي تستسلم لكل قارىء وتعجز كل كاتب ، وهي البلاغة التي وصفها ابن المقفع بقوله : « اذا رآها الجاهل ظن انه يحسن مثلها ».

بهذا الاسلوب البليغ يقيس المعافى بجراة ماورثنا إياه الرسول الاعظم والسلف الصالح بما يراه ويسمعه ، ويقول معقبا : « والى الله المشتكى مما نراه في زماننا هذا من غلبة السفلة والجهال والسخفاء الضلال للاحكام، وإجلاسهم مجالس الائمة الاعلام ، مع عظيم جهالتهم ، وسقوط عدالتهم ، وفساد اماناتهم ، وقبح الظاهر والباطن من امرهم ، والله ولي الانتقام ممن يطوي في هذا الباب نصيحة الامام ويسعى الى مايساق اليه من الاحكام في حد شريعة الاسلام ، ونستعين بالله على تمكيننا من إيضاح هذا الامر وانهائه الى من اليه الامر ، من ساسة الامة ، ومدبري الملة » .

والمعافى في اسلوبه اللفظي يذكرنا بمعاصره ابي حيان التوحيدي ، فهو واضح العبارة، مشرق الديباجة، حريص في جمله على نوع من التناغم الموسيقى ، والتآلف الصوتي ، اما في المنهج الفكري فان طبيعة عالم اللغة والادب تختلف عن طبيعة الفيلسوف .

يقول المعافى(١٧) معلقا على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اي الخلق اعجب ايمانا » : « قال القاضي فالحمد لله الذي هدانا لدينه والايمان بنبيه ، وتصديقنا بكتابه ووحيه ووفقنا لموالاة من تقدمنا من السابقين الاولين وتابعيهم باحسان من السلف الصالحين وبصرنا فضل أئمتنا الخلفاء الراشدين المهديين الذين سبقونا بالايمان ، ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم » . من هذا المقطع يتضح لنا أن المعافى كان على سنة السلف الصالح وهديهم ينكر على من عاداهم ولا يتعصب لبعضهم على بعض .

ويلاحظ كل قارىء لاخبار الكتاب وتعقيبات المعافى عليها أن المؤلف كان يتبع منهجا موضوعيا ، ولكنه لايستطيع أن يتخلى عن نزعة هاشمية تبدو واضحة في كثير من أخبار الكتاب ، ففي أكثر من موضع نسمع ثناءه على بني هاشم وتعريضه السافر ببني امية، بل إنه يصل الى اعتبار فضائل بني هاشم وعيوب بني امية من الامور البديهية يقول(١٨) « ولو شرعنا في استقصاء هذا الباب – يريد بذلك باب تعداد مزايا بني هاشم الحميدة وفضائلهم – واحصينا مايوجد فيه من مناقب – الهاشميين ومعايب الامويين لاصبحنا الى انشاء كتاب فضلا عن الاقتصار على باب » ومن المؤسف حقا أن خرما في الكتاب حال بيننا وبين معرفة الاخبار التي كان يرويها عهد بني هاشم وبني امية ، ولكن الاخبار المتفرقة في المجلدة التي بين يدي وما رواه ابن عساكر من اخبار نقلا عن اقسام الكتاب التي ليست بين يدي تدلنا بوضوح على قناعة الرجل التامة بما يقول وتبين ذلك الهوى الهاشمي الذي لم يستطع اخفاءه .

يروي المعافى(١٩) أن عبد الملك بن مروان طلب من الشعبي أن ينشده أحكم ماقالت العرب فينشده مجموعة من الابيات يقول عبد الملك بعد سماعها : « حججتك ياشعبي » يقول طفيل الغنوي :

ولا اخالس جاري في حليلته
ولا ابن عمي غالتني إذاً غول
حتى يقال اذا وليت في جدث
أين ابن عوف أبو قرآن مجعول

قال القاضي أبو الفرج : بيتا طفيل اللذين انشدهما عبد الملك وفضلهما وزعم انه حج الشعبي ، من أشعار الشعراء غير مقصر عنهما ، ومن تأمل ماوصفنا وجده على ماذكرنا من غير ان يحتاج الى تكلف تفسير ذلك واطناب الاحتجاج له » . وسامع قول المعافى هذا لايسعه إلا أن يقول : ان الحق معه فقول طفيل لايمكن أن يقف لاقوال اولئك الشعراء الذين استشهد بهم الشعبي ، ولكنه حين يتأمل عبارة المعافى وقوله عن عبد الملك : « وزعم انه حج الشعبي » ، يلاحظ شيئا من التحامل على الخليفة الاموي . هذا من جهة ومن جهة ثانية فان هذا الخبر نقله ابن عساكر عن غير المعافى ، ولم نجد بين من روى الخبر احدا عاب ذوق عبد الملك او سفه حكمه ، واين موقف المعافى هذا من موقفه من المأمون مثلا(٢٠) والاشادة بكل مايصدر عنه من قول أو فعل ، ومن قوله في الرشيد معلقا على استحسانه لهذه الابيات لأبي عبد الله بن مصعب الزبيري(٢١) :

وإني وإن قصرت عن غير بغضة
مراعٍ لأسباب المودة حافظ
وانتظر العتبى واغضي على القذى
الاين طوراً امره واغالظ
وانتظر الاقبال بالود منكم
واصبر حتى أوجعتني المغائظ
وجربت مايسلي المحب على الهوى
واقصرت والتجريب للمرء واعظ

قال القاضي رحمه الله : ولعمري إن هذه الابيات لمن مستحسن الشعر في معناها ، واعجاب الرشيد بها مما يثني على خلوص أدبه وصفاء قريحته » . لقد حدثنا المعافى بأن هذه الابيات جيدة المعنى ولكنه لم يعلق على المبنى لان ذلك التعليق سيكون صادقا ، وسيضعف من ثنائه على الرشيد وحسن انتقائه ، وليت شعري لو كان المستحسن لهذه الأبيات عبد الملك فماذا سيقول وقتها المعافى ؟ :

والجدير بالذكر ان المعافى قد احسن انتقاء الاخبار التاريخية والنوادر الادبية التي فضلت بني هاشم في الشرف والشجاعة ، ولعل من افضل هذه الاخبار مانقله ابن عساكر في تاريخه عن المعافى(٢٢) في أخبار عبد الله بن جعفر مما لانعثر له على ذكر في الكتب الادبية المعروفة ولا اريد أن اقتبس بعض هذه القصة خشية أن افقدها روعة العرض الذي قدمها به المعافى وأنى لي في هذه الاسطر أن آتي على تلك الجولات التاريخية واللغوية التي جالها وهو يفسر الالفاظ ويستحضر في تفسيره لها الامثلة والشواهد .

ورغم هذه النزعة الهاشمية التي عرضنا نماذج منها في هذا المقال تظل النزعة العلمية الموضوعية غالبة على الجليس والانيس فتطالعنا فيه من حين الى آخر اخبار نجد انفسنا بأشد الحاجة اليها ونحن بخلو وجه ماضينا المشرق . ولعل خير مااختم به مقالي هذا الخبر الذي رواه ابن عساكر في التاريخ(٢٣) عن الجليس والأنيس : « وفد عبد الله بن جعفر على معاوية بن أبي سفيان فانزله في داره ، فقالت له ابنة قرظة امرأته : إن جارك هذا يسمع الغناء ، قال : فاذا كان ذلك فاعلميني فاعلمته ، فاطلع عليه ، وجارية له تغنيه وهي تقول :

إنك والله لذو مَلّة يطرفك الادنى عن الأبعد

وهو يقول : ياصدقاه . قال ثم قال : اسقني ، قالت: ما اسقيك ؟ قال : ماء وعسلا . قال : فانصرف معاوية وهو يقول : ما ارى بأسا . فلما كان بعد ذلك قالت له : إن جارك هذا لايدعنا ننام الليل من قراءة القرآن ، قال: هكذا قومي رهبان بالليل ملوك بالنهار » . لقد صدق الخبر في تصوير معاوية فاذا هو الخليفة الكبير ينصف ابناء عمومته ويسهر على رعايتهم واكرامهم ، وهناك اخبار كثيرة تصور جرائم عليه وحلمه معهم مما يمكن ان يكون ملحمة رائعة تحكي سيرة هذا الخليفة الكبير وحسن سياسته للامور .

وبعد اليس من حق هذا الكتاب ان يطبع لقد احسسنا بأهميته من النواحي اللغوية والادبية والتاريخية ورأينا ان طريقته في عرض المادة اللغوية كانت جيدة لانها تسهل على القارىء هضم هذه المادة وتسوغ له طعمها وهذا مالم نألفه في كتب اللغة المعروفة ولم تحسن استعماله كتب الادب كما أحسن المعافى . واذا اضفنا الى هذا مكانة المعافى في القرن الرابع الهجري والمنزلة التي وضعه فيها معاصروه وفي مقدمتهم أبو حيان التوحيدي ، وتلامذته وفي مقدمتهم ابو بكر البرقاني شيخ الخطيب البغدادي ايقنا بالضرورة الملحة التي تستحثنا لاخراج هذا الكتاب .

---

(١) انظر تاريخ بغداد ٢٣٠/١٣
(٢) المصدر السابق .
(٣) انظر المجلس الخمسين ورقة ١٤ ب
(٤) انظر تاريخ بغداد ٢٣٠/١٣
(٥) انظر تذكرة الحفاظ ٢٠٤/٣ .
(٦) انظر معجم الادباء ١٥١/١٩
(٧) انظر سير الاعلام النبلاء ١٠/ ٥٦٨ .
(٨) انظر الجليس والانيس المجلس ٥ ورقة ١٤ ب
(٩) انظر الفهرست ٢٣٦ وتذكرة الحفاظ ١٥١/٣ .
(١٠) هو الفقيه اللغوي المسند تاج الدين ابو عبد الله وابو سعيد محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن مسعود المسعودي المروزي الصوفي ولد سنة ٥٢٢ هـ ، وتوفي سنة ٥٨٤ هـ ، اجاز له ابو العز ابن عادش . انظر سير أعلام النبلاء ٤٠/١٣ .
(١١) انظر المجلس الثامن والاربعين .
(١٢) انظر المجلس الستين .
(١٣) انظر المجلس الحادي والخمسين .
(١٤) انظر موارد الخطيب البغدادي ٢٤١ .
(١٥) حقق السيد محمد مصطفى ارسلان حوالي ثلث الكتاب في رسالته للماجستير . انظر موارد الخطيب البغدادي ٢٤١ .
(١٦) انظر الفهرست ٢٣٦ .
(١٧) انظر المجلس الحادي والخمسين .
(١٨) انظر الورقة ١٩٩ المجلس ٧٢ .
(١٩) انظر الجليس والانيس ورقة ٤٢ ، والمطبوع من تاريخ دمشق عاصم — عايذ ص ٢٠٢ .
(٢٠) انظر على سبيل المقال ورقة ١٠٠ من الجليس والانيس .
(٢١) انظر الجليس والانيس ورقة ١٩٤ م
(٢٢) انظر المطبوع من تاريخ دمشق ص ٣٦ (عبد الله بن جابر — عبد الله بن زيد) ، والجليس والانيس من ١٤٣ .
(٢٣) انظر تاريخدمشق ٣٣ (عبد الله بن جابر — عبد الله ابن زيد).

السّيرة النّبويّة في التراث الأندلسيّ

د. محمد رضوان الداية
كلية الآداب - جامعة دمشق

— ١ —

كانت الأندلس ، على بعدها النائي عن المشرق ، موصولة الاسباب به ، وثيقة الصلة . وكانت الحياة الثقافية بخاصّة ، والحضارية بعامة ، وجهاً في جملة وجوه الثقافة العربية الاسلامية : تتشابه منجزاته وصوره حيناً ، وتختلف وتستقل حيناً آخر ، ولكنها على كل حال . كانت دائمة الاشتباك بالثقافة المشرقية .

وكان (انقطاع) الأندلس السياسيّ عن المشرق منذ أوائل الاستقرار — أي منذ عهد عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) معيد دولة بني مروان ... كان إيذاناً بقضايا كثيرة ، ومرشحاً لنتائج خطيرة ترتبت على ذلك الانقطاع . ولكن هذا الموقف السياسي المحض لم يؤثر في طبيعة العلاقات الثقافية بين المشرق والاندلس ، واتصلت الحضارة (في المشرق) ومنجزات الفكر فيه ببلاد المغرب والأندلس من ثلاث جهات :

الجهة الأولى : حركة الكتاب على الوجه الذي كان يخترق فيه أقطار الدولة الكبرى ويستقر عند طلابه وراغبيه . ولا ننسى أن سيطرة العرب بعد فتح المغرب والأندلس امتدت الى طرق التجارة البرية والبحرية ، ولا ننسى أيضا صيرورة بغداد العاصمة الثقافية الاولى بالاضافة الى عدد من المدن والمراكز الثقافية الأخرى . ومن جهة ثانية كان خروج الأندلسيين الى المشرق متلاحقاً لأداء فريضة الحج ، ولقاء العلماء ، وأفذاذ الرجال ، على اختلاف معارفهم وما اشتهروا به ، ولتلقي العلم وروايته . وكان انتشار المذهب المالكي وغلبته في الأندلس — والمغرب — حافزا لمتابعة تراثه ولقاء رجاله ... ومن جهة ثالثة فان الأندلس منذ استقرار الامور فيها في عصر الامارة المروانية كانت تستقبل الوافدين اليها رغبة منهم ، والشخصيات التي كان يطلب اليها من قبل السلطة الأندلسية الحضور الى قرطبة وغيرها . وكان القصد العلمي هو الغالب المعروف في مثل هذه الدعوات . ويلحق بذلك — من المقاصد والدوافع — الرغبة في بناء الأندلس فكريا وحضاريا ، ومنافسة بغداد وغيرها من عواصم الفكر التي نبغت معها أو بعدها ...

وقد أثبت عدد كبير من العلماء والأدباء الأندلسيين في برامج وفهارس خاصة مروياتهم ومسموعاتهم من الكتب والنصوص ، وذكروا شيوخهم الذين

أخذوا عنهم القراءات والتفاسير والأصول ... الخ، وسلسلوا طرق أخذهم ، ولو وصلت الينا كتب برامج العلماء الأندلسية جميعاً إذن لاجتمعت لدينا معلومات كاملة تقريبا عن حركة الكتاب ، وعن التطوّر الثقافي، وعن سيادة كتب — دون سواها — في زمان ومكان معينين في البلاد الأندلسية . ومع ضياع كثير من تلك البرامج والفهارس نجد المتبقي منها كافيا للدلالة على ماذهب اليه من اتصال الثقافة المشرقية بالأندلس ، ومن اقتداء الأندلسيين زمانا بالكتاب المشرقي ، في الوقت نفسه الذي كانت الاندلس تخرّج كبار العلماء والفقهاء والأدباء .

ومرّ زمان" قبل أن نرى مؤلفات الأندلسيين أنفسهم في بيان الكتب المقررة ، أو التي تشارك نظائرها من الكتب المشرقية وتسايرها .

...   .

ويصدق هذا الحكم العام ، الغالب ، على قضية تأليف الأندلسيين في موضوع السيرة النبويّة . وعلى رغم استمرار رواية كتب السير والمغازي والأصحاب مما وصل الى الأندلس منذ وقت مبكر ، نجد للأندلسيين باعا في هذا المجال ، يصح أن نعرض له ، وندرسه ، ونبيّن شيئا من خصائصه ومزاياه ، وأبرز أعلامه .

...   .

— ٢ —

إذا اهتمّ الأندلسيون — كالمشارقة — ومن مداخل مختلفة بالكتب المؤلفة في السيرة النبوية ، والمغازي ، وأعلام النبوة ، والشمائل ، والمعجزات ... كما اهتموا بالتأليف في صحابته (ص) . وكانت الاصول المشرقية قد انتقلت الى الأندلس ، ورواها جيل عن جيل في متابعة ومواصلة . ونجد في فهرسة ابن خير الاشبيلي أسماء عدد من هذه المؤلفات[1] مثل أعلام النبوة لأبي داود السجستاني ، ودلائل النبوة لأبي ذرّ الهروي ، وشمائل النبي (ص) لأبي عيسى الترمذي، ومغازي ابن عقبة ، والمغازي والسير لابن إسحاق ، وسيرة رسول الله ومغازيه للواقدي ، وسيرة رسول الله لابن اسحاق .. الى غير ذلك من الكتب والمصنّفات .

وكان الى جانب هذه المؤلفات وما جرى مجراها كتب السنّة وكتب الطبّقات ، وكتب الأصحاب ، ممّا يقدم مادة غزيرة في بيان حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودلائل النبوة ، وأحواله ، وشمائله، ومعجزاته . وأسهمت كتب الأدب أيضا في الحديث عن بلاغته (ص) وما 'أوتيه من جوامع الكلم .

واكتفى الأندلسيون زمانا بما وصل اليهم من المصنّفات الشاملة والمؤلفات الخاصة فيما يخص السيرة النبوية . حتى إذا كان القرن الخامس — على الأرجح وبحسب ما وقع لي في المصادر والمراجع المتوفرة — ظهر في الاندلس من يخرج على الاكتفاء بالمؤلفات المشرقية في السيرة النبوية وما يتعلق بها . ونعني بذلك ابن عبد البر ، وابن حزم ، العالمين القرطبيين الشهيرين . ثم توالت المؤلفات بعد ذلك على توالي الاجيال ، بالإضافة الى العناية برواية الأصول المشرقية ، فكأن المؤلفات الاندلسية إضافة الى الأصل، أو ايضاح له ، أو انتقاء منه أو غير ذلك من الوجوه التي سأتحدث عنها .

في الفصل الذي عقده ابن خير لما رواه « من كتب السير والأنساب ونحو ذلك مما يتصل به » نجد الكتب المشرقية المعروفة ، كما نجد بعض المؤلفات الأندلسية متداولة متناقلة . فقد ذكر مثلاً كتاب

مغازي رسول الله ﷺ تأليف موسى بن عقبة ، وكتاب السيرة لسليمان بن طرخان التيمي ، وكتاب المغازي للواقدي وكتاب المغازي والسير لابن إسحاق • وسيرة ابن اسحاق برواية ابن هشام ، وكتاب المغازي لعبد الرزاق بن همام ، وكتاب السير لأبي إسحاق الغزاري ، وكتاب السير لسعيد بن يحيى الأموي •

وذكر فيما رواه عن شيوخه كتاب « الدّرر في اختصار المغازي والسير » لأبي عمر ابن عبد البر القرطبي • وكتاب سيرة رسول الله ﷺ تأليف أبي عيسى يحيى بن عبد الله بن أبي عيسى اللّيثي • أما الأول فمعروف مشهور وأما الثاني فترجم له في جذور المقتبس (٣٥٤) ، ونقل الترجمة بحروفها الضبي في بغية الملتمس [٢] • وكانت وفاة ابن خير الاشبيلي سنة ٥٧٥ هـ •

وفي برنامج شيوخ الرّعيني ، في ترجمة أبي زكريا يحيى بن عصفور، أنه قرأ على شيخه أبي العباس اللورقي كتاب حجّة الوداع لابن حزم [٣] • وفيه أيضاً في ترجمة أبي القاسم أحمد بن أبي الوليد الأموي ـ أنه قرأ على أبي القاسم السهيلي (من سهيل قرب مالقة بالأندلس) كتاب الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام [٤] • وسمع أبو الحسن سهل بن مالك الأزدي كتاب السهيلي في شرح السيرة [٥] • ومثله أبو العباس أحمد بن محمد بن مفرج اللخمي [٦] • وفي برنامج الرعيني نفسه في ترجمة ابن أبي عزفة (أبي العباس اللخمي) أنه سمع كتاب الشفا للقاضي عياض اليحصبي الأندلسي السبتي على شيخه أبي عبد الله الجزامي [٧] وسمعه أبو زيد القمارشي [٨] • وتلقى الرعيني كتاب الاكتفاء للكلاعي منه مباشرة [٩] وقال الرّعيني في ترجمة أبي عبد الله محمد بن عبد الله الأزدي • سمعت عليه جميع كتاب الشفا للقاضي عياض • وكانت وفاة الرعيني سنة ٦٦٦ هـ •

وتحدث ابن أبي الربيع (أبو الحسين عبيد الله ابن محمد بن أبي الربيع القرشي المتوفى سنة ٦٨٨ هـ) عن مروياته ، فذكر في جملتها كتاب الشفا للقاضي عياض [١٠] •

وكان المؤلفون الأندلسيون يعتمدون في جملة مراجعهم ومصادرهم عدداً من الأصول الأندلسية المتقدمة عليهم ، أخذاً منها ، ووثوقاً بها ، وتقديراً لصنيع أصحابها ، وصحة رواياتهم ، ودقة تصنيفهم ، وحسن تبويبهم ، الى غير ذلك مما يدخل في باب العلم والتأليف وما يتعلق به •

فمن ذلك اعتماد ابن حزم على استاذه ابن عبد البرّ، في مواضع لايدركها الحصر في هذه العجالة [١١]• واعتماد أبي الربيع الكلاعي في كتابه الاكتفا على كتاب شيخه أبي القاسم بن حبيش [١٢] •

ومنه اعتماد القاضي عياض في (الشفا) على جمهرة من شيوخه ، من أشهرهم أبو علي الصدفي الأندلسي ، وعدد من المصادر الأندلسية •

أما ابن سيّد الناس اليعمري الأندلسي الأصل ، المصري ، فيذكر من أصوله الأندلسية التي اعتمد عليها كتاب الأنساب للرشاطي (ت ٥٤٢) المسمى : اقتباس الأنوار والتماس الأزهار في أنساب الصحابة ورواة الآثار • وكتاب الدرر في اختصار المغازي والسير لابن عبد البرّ القرطبي ، وكتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ • وكتاب : الروض الأنف للسهيلي • ونقل أيضاً عن طرر (حواش وتقييدات) للشلوبين اللغوي النحوي الأندلسي (ت ٦٤٥) •

ولاشك في أن كتب (السّيرة) الاولى التي رويت

وتنوقلت من بلد الى بلد هي الأصل الأول الذي اعتمد عليه كتاب السيرة اللاحقون . ويلخص هذا ما قاله ابن سيد الناس في مقدمة سيرته (١ : ٧) « وعمدتنا فيما نورده من ذلك — في سيرته — على محمد ابن اسحاق اذ هو العمدة في هذا الباب لنا ولغيرنا » . وهذا الاعتماد الكبير على ابن اسحاق لا يعني الاكتفاء بها والوقوف عندها ، فقد كان في كتب السير والمغازي والشمائل والاصحاب وفي كتب السنن وغيرها ما يفتح المجال واسعاً للتأليف والتصنيف والتهذيب . وكان لطبيعة الظروف الثقافية في بلد دون آخر ، وفي زمان دون زمان ما يدعو الى الشرح والايضاح واضافة الحواشي والطرر والتعليقات أو ما يدعو الى كتابة المختصرات التعليمية والمنظومات والأراجيز ... الخ .

فالمادة التي يرجع اليها كتاب السيرة متقاربة ، وتختلف طريقة التناول ، والعرض ، ورغبة المؤلف في الاسهاب أو الاختصار ، والسرد التاريخي أو الاعتماد على التفصيل والتبويب ، وذكر الأسانيد وحذفها ، والاستطراد بالشعر والنسب والخبر أو الاكتفاء بالنزر اليسير من ذلك كله ... والقصد الى تناول السيرة بجملتها أو الوقوف عند أعلام نبوته ، أو خصائصه وشمائله أو غزواته أو غير ذلك من أحواله وأفعاله ﷺ .

ويبقى لسيرة ابن عبد البر (الدرر) مكانة خاصة ، وصدى في كتب السيرة وما يلحق بها ، كما تبقى له شخصيته النافذة المؤثرة . ولانكاد نجد واحداً في المؤلفين الأندلسيين استغنى عن كتاب (الدرر) في تأليفه لكتاب في السيرة بالإضافة الى استفادتهم من كتبه الأخرى . وانتقل الكتاب الى المغرب ، والمشرق أيضاً مع الأندلسيين . الذين لم تنقطع رحلاتهم المستمرة الى المشرق واستمرار بعضهم فيه .

وكتب للمؤلفات الأندلسية في السيرة وشرو ذيوع وانتشار ، وأغلب هذه الكتب طارت لها شهرة حياة مؤلفيها . فكتاب الدرر كان المعتمد الكبير الذ رجع اليه ابن حزم في تأليف كتابه جوامع السيرة . وكتاب ابن حزم (جوامع السيرة) كان في جملة ما يقرؤه ويدرسه . وقال ابن فرحون في كتاب الشفا لعياض . » .

إنه : أبدع فيه كل الإبداع وسلم له كفاءته فيه ولم ينازعه أحد في الانفراد به ولا أنكروا مزية السبق اليه بل تشوّفوا للوقوف عليه وأنصفوا في الاستزادة منه وحمله الناس عنه وطارت نسخه شرقاً وغرباً » . وتحدث الرعيني عن كتاب الكلاعي الاكتفاء فوصفه بالكتاب الجليل ، ووصف المؤلف بأنه أجل من كان بقي من الأعلام الأكابر .

وقال الشوكاني في البدر الطالع (١ : ٢٥٠) في ترجمة ابن سيد الناس : « وله تصانيف منها السيرة النبوية المشهورة التي انتفع بها الناس من أهل عصره فمن بعدهم » . وكانت شهرة كتاب الروض الأنف للسهيلي سبباً في تقريب أمراء الموحدين له واستدعائه الى حضرتهم في مراكش (المطرب ٢٣٢) ...

وكان مؤلفو كتب السيرة وما يلحق بها من الاندلسيين ، في الجملة ، من الشخصيات ذوي المكانة العلمية — الفكرية ، المنظور اليهم في فنون من العلم والثقافة والمعرفة وكانوا يشتركون في :

— ضبط الرواية ، واتقانها ، والتقدم في علوم الحديث ، والسير والأصحاب ، والرجال ، والتواريخ .

— التقدم في علوم القرآن والتفسير والقراءات والأصول والفقه ...

— التقدم في علوم اللغة وما يتعلق بها ، والبراعة

الآداب والاشعار والبصر بطبقات الشعراء ونقد الشعر .

ـ وكانوا ـ في الجملة ـ رؤوس أزمانهم في معارفهم ، واليهم كانت الرحلة ، وقصد التلقي والإفادة .

ـ واشتهرت عنهم مؤلفات مختلفة كان لأكثرها شهرة ، ومكانة في فنونها وأبوابها . وكانت المؤلفات في السيرة من مشهور مؤلفاتهم ، بل قد يكون كتاب السيرة ، أبرز أعمال بعضهم فالشفا لعياض والروض الأنف للسهيلي وعيون الأثر لابن سيد الناس تعدّ أشهر ما ألفوا وأكثرها ذيوعاً .

وكانوا في الجملة من الشخصيات الفذة في العلم، وفي جوانب من النشاط الثقافي، والسياسي، والعقائدي، فقد كان ابن حزم إماماً للمذهب الظاهري، وكان الكلاعي مثالاً للعالم العامل المجاهد .(مات شهيداً في وقعة أنيشة عند بلنسية) . وسأبسط في تراجم المؤلفين ، فيما يتبع من هذا المقال ، ما يوضح هذا الجانب ويبينّه .

ولو نظرت في الدوافع التي حفزت أولئك المؤلفين على الكتابة في السيرة لاجتمعت دوافع مشتركة فيما بينهم ، وربما ظهرت دوافع خاصة بمؤلف دون آخر . فمن الدوافع المشتركة : ما قصد اليه المؤلفون من التعبير عن محبة رسول الله ﷺ في صبره ، والتقرب الى الله سبحانه بإظهار محبته(*) .والدعوة الى الاقتداء به ﷺ في صبره ، وكفاحه ، وثباته ، وفي أحواله جميعا . والغرض التعليمي الذي يقف وراء وازع عدم كتمان العلم وضرورة بثه في الناس ، والذي يهدف الى تقريب السيرة الى الناشئة أو الكبار ، وتعليمها ، وايضاح ما فيها . وهناك بعد ذلك كله : طبيعة البحث العلمي التي تدفع وتحفز ، وتحرّك الاقلام ،

ومن جهة ثانية نجد ابن عبد البرّ ـ مثلاً ـ يقصد الى تأليف مختصر للسيرة النبوية « سيرة محررة لا تعتمد على كتب السيرة المشهورة وحدها بل تعتمد أيضاً على كتب الحديث ورواية الموثقين مع الموازنة بين الاخبار والأحاديث واستخلاص الآراء الصحيحة ومع الوفاء بالدقة في أسماء الأعلام ، ومع التوقف في موضع التوقف والنفوذ الى الرأي السليم ومع المعرفة الواسعة بالحديث ورجاله وتمييز صحيحه من زائفه .» من مقدمة الدكتور ضيف .

ونجد ابن حزم في جوامع السيرة كان يرمي «الى وضع مختصر قريب المأخذ سهل المتناول في أيدي طلابه كما فعل في كثير من رسائله التاريخية مثل رسالة نقط العروس ورسائله في رجال القراءات والحديث والفتوح وتواريخ الخلفاء ، وأنه كان في هذا المختصر يضع الاصول التي لا يستغني عن تذكرها أو استظهارها كل من اشتغل بالسيرة النبوية من طلاب العلم » ـ من مقدمة المحققين ـ . ولابن حزم غرض آخر : فإن من يعرف قيمة النقل والاستكثار من السنن في مذهب أهل الظاهر عامة وعند ابن حزم خاصة ـ والسيرة جزء هام من هذا النقل ـ يجد أن تناول ابن حزم للسيرة بالنظر

---

* ومنذ القرن الخامس فيما وقع لي من الاخبار ـ وربما من قبل ذلك ـ تبدو لنا ظاهرة كتابة الرسائل وارسالها الى مقام النبي (ص) محبة فيه وتشوقا الى زيارته ، وتطلعا الى اداء فريضة الحج والعمرة والزيارة. فمن ذلك رسالة لابي محمد السيد البطليوسي (ت ٥٢١) ورسالة للقاضي عياض (ت ٥٤٤) وتزداد هذه الظاهرة انتشارا مع الاعصر التالية أيام الموحدين والنصريين ، كما ترافق اشتداد الحملة على بلاد الاندلس واهلها من تحالف الدول الشمالية ، ومددها الخارجي ... واشتداد المقاومة الاندلسية ـ المغربية .

(وهذه ظاهرة تصح دراستها مستقصاة في الاندلس والمشرق)

الجديد والتحديد والتقيد إنما هو جزء من مذهبه ... والسيرة صورة عليا من الكمال الانساني في نفس ابن حزم ،ولذلك فلا غرابة في أن يجعلها موضوعه المحبب، وأن يحاول وضعها للناس وضعاً ميسراً قريباً بيّن الحقائق .. » .

وقصد القاضي عياض في جملة ما قصد اليه : التعريف بقدر المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وما يجب له من توقير وإكرام ، وما حكم من لم يوف واجب عظيم ذلك القدر أو قصر في منصبه الجليل قلامة ظفر ، وأن يجمع ما لأسلافنا وأئمتنا في ذلك من مقال ... » وذهب الى بيان خصائصه ﷺ التي لم تجتمع قبل في مخلوق » .. مقدمة الشفا للقاضي عياض ٣ — ٥ .

أما الكلاعي فقد عاش في مدة اشتدت فيها الحرب بين اجتماع الاندلسيين والمغاربة من جهة ، وبين جمع الدول المعادية في شمال الجزيرة الاندلسية ومن اجتمع اليهم من دول أوربة من جهة أخرى . وتجد في مقدمة سيرة الكلاعي (الاكتفا) صدى لأمرين اثنين .

أحدهما : الدعوة الى سلوك الطريق القويم ، ونبذ الفساد ، والدّعة المفرطة . ودعوة أصحاب القلوب البطالة الى الابتعاد عن موارد الجهالة والضلالة ... فان في السيرة النبوية ما يحفز على الفضل ونبذ المفاسد بالقدوة والاسوة .

والثاني : الدعوة الى الثبات في وجه العدو ، والى جهاده في عقر داره وقد كانت الاندلس في أيام الكلاعي في شدة مواجهة الحرب الصليبية المماثلة للحرب الأخرى على الجهة الشرقية (بلاد الشام والمشرق) . قال في مقدمة الاكتفا : وإنه لايخلو الناظرون في هذا الكتاب من أن يسمعوا ما صنع الله لرسوله ﷺ في اعداد تنزيله فيستجزلوا ثواب الله بنصر الله أو يسمعوا ما امتحنه الله به من المحن التي لا يطيق احتمالها الا نفوس أنبياء الله بتأييد الله فيعتبروا بعظيم ما لقيه من شدائد الخطوب ويصطبروا لعوارض الكروب تأدباً بآدابه، وجرياً في الصبر على ما يصيبهم ، والاحتساب على ما ينوبهم على طريقة صبره واحتسابه . وتلك غاية لن نبلغ عفوها بجهدنا ولن نصل أدناها بنهاية ركضنا وشدنا ، وإنما علينا بذل الجهد في قصد الاهتداء ... » . (من المقدمة ١ : ٥٥) . وقد كانت حياة الكلاعي ومماته ، فيما بلغنا من تراجمه — من المقتدين ، الصابرين ، المحتسبين .

أما ابن سيد الناس فقد قصد الى التبرك بالدخول في جملة المعتنين بالسيرة ، وهدف أيضاً الى اعادة كتابة السيرة ، بحيث تحقق غرضين معاً : الاختصار والاقتصار على اللباب ، اللاصق بموضوع السيرة دون استطراد . ثم : الاحاطة — على قدر الاجتهاد — بأخبار النبي ﷺ وأحواله وشمائله ومجريات حياته ، وأهله ، ومغازيه ، وما يتعلق بذلك كله .

وجاءت سيرة ابن سيد الناس (عيون الاثر) جامعة ، وافية ، بالإضافة الى غزارة علمه ، وثقة نقله .

ولا بد من أن يلاحظ الدارس أن العناية بالسيرة النبوية ، وشروحها وإعادة التأليف فيها ، وفي مغازيه ﷺ ومغازي الصحابة (رض) من بعده مرتبط على أكثر من وجه بالموقف الفكري ، والانتباه العقيدي لمواجهة بعض الدعوات ، والفرق ، والدويلات ، التي ترددت أصداؤها في مواطن متفرقة من بلاد المغرب ، والمشرق ، مما يعد مخالفة لما كانت عليه الجماعة ، أو خروجاً على الفكر الإسلامي جملة .

وقد كان لجمهرة الفقهاء والعلماء والمحدثين بالأندلس دور فعال أساسي في مدة دول الطوائف لمنع

حدوث تدهور فكري أو عقيدي قد يرافق الانهيار السياسي والتقاعس الجهادي . وقد أسلفت ، فيما سبق ، أن التأليف الاندلسي في السيرة بدأ — على ما رجحت — في هذا العصر (القرن الخامس الهجري) .

ثم جاء المرابطون الذين اعتمدوا على جهود الفقهاء ، وأحيوا الجهاد ، ومكنوا أهل العلم والقضاء من مناصب الدولة .

فلما كان عهد الموحّدين ازدادت العناية بالعودة الى الأصول : الكتاب والسنة .

وقد كان العصر الموحّدي عصر ازدهار للكتابة في السيرة النبوية ، والمغازي ، وكتابة الشروح المطولة والمختصرة ، وازدهار فن المدائح النبوية وتسجيل أحداث السيرة في قصائد وأراجيز ... الخ .

وتبرز في هذا المجال ملاحظات وتعليلات عديدة ، أقف منها عند جانبين اثنين :

أحدهما : أن دولة الموحّدين التي قامت على أنقاض دولة المرابطين القوية ، هدفت الى العودة الى القرآن والسنة ، والاهتمام بالأصول دون الاستغراق في الفروع ، والى الأخذ بالظاهر من القرآن والحديث. ولا شك في أن نشر السيرة ، والتأليف فيها ، يعد في جملة ما يعين على الوقوف عند النصوص والآثار وما يعيد الى الأصول . ونذكر هنا جهود ابن حزم في السيرة وأخذ دولةالموحدين بالمذهب الظاهري وازدهار هذا المذهب في أيامهم من جديد (بالنثيا ٢٣٧ — ٢٣٩)

والثاني : أن الموحّدين كانوا يخوضون حرباً ضروساً في الاندلس ، للجهاد والدفاع . وكان خلفاء الموحّدين يحرضون العلماء والمحدثين على توعية الناس ، وتقريب الأحاديث اليهم في قضايا الجهاد والاستشهاد . وكانت (السيرة النبوية) القدوة المثلى والأسوة الحسنة ، لدفع الناس الى التضحية ، والبذل في سبيل الله .. بذل الأموال والأرواح .

ففي أخبارهم أنهم كانوا يحملون مصحفاً وصل اليهم من مصاحف عثمان (رض) أنى توجهوا على ناقة حمراء عليها من الحلي النفيس وثياب الديباج الفاخرة (المعجب ٣٢٦) .

وفي بعض أخبار أبي يعقوب يوسف أنه لما توجه الى غزو الروم أمر العلماء أن يجمعوا أحاديث في الجهاد تملى على الموحّدين ليدروسوها (المعجب ٣٢٨) .

وفي أخبار أبي يوسف يعقوب المنصور (الحلل الموشية ١٥٩) بعد انتصاره في موقعة الأرك (سنة ٥٩١) أمر كاتبه أبا الفضل بن أبي الطاهر أن يوجز في كتاب هذا الفتح ، وأن ينحو منحى كتب الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين .

وكان تأليف السهيلي (ت ٥٨١) كتابه الروض الأنف في شرح السيرة سبباً رئيساً في تقريب الخليفة الموحدي له ، واستقدامه الى العاصمة مراكش والمبالغة في إكرامه (المطرب لابن دحية ٢٣٢) .

إن نظرة سريعة الى الكتب والرسائل المؤلفة في غرض السيرة تظهر أن التأليف فيها تناول الجوانب المختلفة المتعلقة بالسيرة النبوية ابتداء من الطرر والتعليقات والشروح على كتب السيرة المشرقية ، مروراً بالتأليف في بعض خصائص النبي ﷺ من الشمائل والمعجزات والبلاغة النبوية ، وانتهاء الى التأليف الشامل في سيرته العطرة . وقد وصل الينا عدد من هذه الكتب ، وغاب عدد آخر فيما ضاع منها أو فيما نجهل حقيقة مكانه الى أن يظهر في يوم من الأيام.

فممّا ألف في السيرة الشاملة كتاب الدرر لابن عبد البر ، وجوامع السيرة لابن حزم ، والسيرة لأبي حفص الملاي[١٤] ، ومما ألف في معجزاته ﷺ الإحكام

في معجزات النبي عليه السلام لأبي الحسن الجياني[١٥] والدرر البهية في معجزات خير البريّة[١٦]، وكتاب في معجزات خير البريّة ذكره صاحب النفح في ترجمة ابن غصن الإشبيلي[١٧] والآيات البينات في ذكر ما في اعضاء (؟) رسول الله ﷺ من المعجزات[١٨].

ومما ألف في خصائصه ﷺ: ملاذ المستعين في بعض خصائص سيّد المرسلين للمنتشاقري[١٩] وخلاصة الصفا من خصائص المصطفى لأحمد بن ميمون الأشعري[٢٠].

ولابن دحية كتاب التنوير في مولد السّراج المنير[٢١]. وللإقليجي: الغرر من كلام سيد البشر[٢٢] والنجم من كلام سيد العرب والعجم، ولابن دحية ايضا رسالة في شرح أسماء النبي ﷺ.

ومن الشروح كتاب الرّوض الأنف للسهلي، وكتاب أبي ذرّ الخُشني. ومنها طرر للشلوبيني[٢٣] وكتاب لأبي الوليد المهري في تفسير مغازي الواقدي[٢٤].

ولا يمكن الاستقصاء هنا، وليس ذلك مقصودا، وإنما أنبه الى وفرة المؤلفات والمصنّفات في السيرة وما يتعلق بها، وأنّ التأليف في ذلك كان تيّارا من تيارات العناية بالسنة النبوية، والتاريخ الإسلامي بالاضافة الى أنّ في العناية بالسيرة قصدا واضحا الى التعرف الى السيرة العطرة، والاقتداء بالنبي ﷺ، والى إظهار محبّته ﷺ، والتشوق اليه والى روضته ومسجده، والى الارض المطهّرة.

واذا راجعنا المطبوع من الآثار الأندلسية في السيرة وما يتعلق بها، استطعنا أن نميّز الاتجاهات التالية:

آ ــ المؤلفات التي قصد أصحابها الى كتابة السّيرة النبوية من مبدئها الى منتهاها مما يخص تاريخ حياته ﷺ وأخباره وشمائله وخصائصه ... ونجد من هذه الكتب:

ــ الدرر في اختصار المغازي والسير لأبي عمر بن عبد البر القرطبي المتوفى سنة ٤٦٣ هـ.

ــ جوامع السّيرة لأبي محمد بن حزم القرطبي المتوفى سنة ٤٥٦

ــ الاكتفاء في مغازي المصطفى والثلاثة الخلفا لأبي الربيع سليمان بن موسى ابن سالم الكلاعي المتوفى سنة ٦٣٤ هـ.

ويضاف الى هذه المؤلفات كتابان آخران، ألّفهما عالمان ينتميان الى أصل أندلسي. وعاش أحدهما ــ وهو القاضي عياض(*) ــ مدة في الأندلس، واستقضي في بعض مدنها، وأخذ العلم الغزير عن شيوخها. أما الآخر فقد ولد في القاهرة لأب أندلسي، وهو ينتمي الى أسرة عريقة أندلسية اشتهر منها عدد جم من المحدثين والعلماء، وهو ابن سيّد الناس اليعمري.

وقد حفزني على اعتبارهما في المؤلفين الأندلسيين أنهما ينتميان الى أصل أندلسي قريب. وأنهما اعتمدا في مؤلفاتهما، وبخاصة الكتب الخاصة بالسيرة، في جملة ما اعتمدا عليه، على أصول أندلسية، فهما على أكثر من وجه، من المدرسة الاندلسية، إن صحّ هذا الاطلاق، ومن جهة ثالثة فاني وجدت كتب التراجم القديمة، وكتب تاريخ الادب الاندلسي المعاصرة تسلكهما في المؤلفين الاندلسيين كالذي نجده في تاريخ الفكر الأندلسي[٢٥].

(*) القاضي عياض أندلسي الاصل، موطنه (سبتة). وقد ارتبطت هذه المدينة بالاندلس سياسيا في مدد مختلفة، وهي تمثل مركزا متقدما من مراكز الحضارة الاندلسية وصلة هامة مع المغرب من النواحي السياسية والثقافية والتجارية والبشرية ...

والكتابان هما :

ـ الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض المتوفى سنة ٥٤٤ هـ •

ـ وعيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسّير لابن سيد الناس اليعمري المتوفى سنة ٧٣٤هـ•

ب • المؤلفات التي عُنيت بجانب من جوانب حياة النبي ﷺ أوسيرته ، وبين أيدينا من هذا النّوع كتاب حجة الوداع لابن حزم •

ج • كتب السيرة المختصرة ، التي يختصرها المؤلف عن كتاب مطول سبق أن ألفه • وبين أيدينا من هذا النوع : كتاب : نور العيون في سيرة الامين المأمون ، لابن سيد الناس اليعمري ، وهو أوراق ملخصة من كتابه الذي سبقت الاشارة اليه : عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسّير •

د • كتب الشروح على السّيرة النبويّة ، ولعلّ هذا النوع هو أوّل ماعرفته الأندلس من تقييدات على السيرة • وقرأت في طبقات اللغويين والنحويين للزبيدي أنّ أبا الوليد المهري صنف كتابا في تفسير مغازي الواقدي [٣٦] •

وبين أيدينا من هذا النوع :

ـ الرّوض الأنف لأبي القاسم السّهيلي، المتوفّى سنة ٥٨١ هـ •

ـ « شرح السّيرة النبّوية » لأبي ذر مصعب بن مسعود الخشني ، المتوفى سنة ٦٠٤ هـ •

وكلا الكتابين شرح على السيرة النبوية برواية ابن هشام •

هـ • المنظومات والأراجيز التي اختصر فيها أصحابها كتب السيرة النبويّة • وهي كثيرة ، ذكر منها أصحاب كتب التراجم ، والبرامج عددا ، وبعضها قد وصل الينا ، وإن كان المطبوع منها قليلا • ويلحق بهذا النوع فن المولديات الذي يختلط فيه المديح النبوي بسرد السيرة • (ويصح أن يستقل هذا النوع بدراسة مستقلة) •

فمن ذلك مانقله ابن عبد الملك المراكشي في الذيل والتكملة[٣٧] من أن احمد بن عيسى بن حجاج المعروف بأبي الوليد الأفيلح وضع أرجوزة مخمسة في السير سماها : « نظم الدرر ونثر الزهر » قال ابن عبد الملك: وهي من أحسن مانُظم في معناها ، أودعها نكت السير لأبي بكر محمد بن إسحاق بن يسار • وألّف أبو بكر ابن ابي الأفيلح المذكور : الدرر البهية في معجزات خير البريّة •

ولأحمد بن محمد بن ميمون الأشعري المالقي قصيدة مطولة سماها بـ « خلاصة الصفا من خصائص المصطفى »[٢٨] •

ومن المطبوع لابن سيد الناس اليعمري السابق الذكر قصيدة مطبوعة ، عنوانها « بشرى اللبيب في ذكرى الحبيب »[٢٩] •

يقتضي الترتيب الزمني ، وقد وصلت الى عرض كتب السيرة وما يتعلق بها ، أن أقدم الإمام ابن حزم (ت ٤٥٦) لانه توفي قبل ابن عبد البر القرطبي (ت ٤٦٣) . ولكنني سأبدأ بابن عبد البرّ لانه شيخ ابن حزم أولا ، ولأن ابن حزم اعتمد على كتاب شيخه (الدرر) اعتمادا كبيرا ، في جملة ما اعتمد عليه من مصادر ومراجع •

— ٤ —

ابن عبد البر (★) (٣٦٨ — ٤٦٣)

هو أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري • من أهل قرطبة ، ولد بها سنة ٣٦٨ ، ونشأ ، وتلقى علومه ، وسمع قبل الأربع مئة بمدة من جماعة من علماء الأندلس ورواتها • وقد تنقل في البلاد الأندلسية ، فخرج الى الغرب وأقام مدة • واستقضاه المظفر بن الأفطس (من بني الأفطس أصحاب بطليوس أيام الطوائف) فتولى قضاء الأشبونة وشنترين ، ثم تحوّل الى شرق الأندلس ، وكان ثمة مجاهد العامري ، من أمراء الطوائف ، وكان معروفا بحب العلم وتقريب العلماء ، فجال ابن عبد البر في دانية وبلنسية وشاطبة • وكانت وفاته بشاطبة عن سن متقدمة عام ٤٦٣ •

في ترجمة الحُميدي — تلميذ ابن عبد البر وتلميذ ابن حزم وصاحبه — في جذوة المقتبس لاستاذه ابي عمر ابن عبد البر : أبو عمر فقيه حافظ مكثر ، عالم بالقراءات وبالخلاف في الفقه ، وبعلوم الحديث والرجال ، قديم السماع ، كثير الشيوخ • وقد حرص الحميدي على إجازة شيخه ، فكتب اليه بذلك [٣٢] • وقد أثنى على ابن البرّ أبو الوليد الباجي فقال : لم يكن بالأندلس مثل أبي عمر في الحديث • وقال ابن بشكوال : هو إمام عصره وواحد دهره[٣٣] • وقال الحجاري : إمام الأندلس في علم الشريعة ورواية الحديث لا أستثني من أحد[٣٤] • وقال ابن حزم في معرض التعريف بكتاب ابن عبد البر « التمهيد لما في الموطأ من الأسانيد » : « لا أعلم في الكلام على فقه الحديث فكيف أحسن منه ؟ [٣٥] » • وقال ابن خلكان[٣٦] : تقدم في ترجمة الخطيب البغدادي أنه كان حافظ المشرق، وابن عبد البر حافظ المغرب ، وماتا في سنة واحدة • وهما إماما في هذا الفن •

وألف ابن عبد البرّ مما جمع تواليف نافعة سارت عنه[٣٧] كما قال الحميدي • فمن تواليفه : التمهيد ، (وقد سبقت الإشارة اليه) ، وكتاب في الصحابة سمّاه : الاستيعاب في أسماء الأصحاب ، وكتاب جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله ، وكتاب : بهجة المجالس وأُنس المجالس بما يجري في المذكرات من غرر الأبيات ونوادر الحكايات [٣٨] • وغير ذلك من الكتب • ومنها كتاب الدّرر •

سمّى ابن عبد البرّ كتابه « الدّرر في اختصار المغازي والسّير » • فهو قصد كما يظهر في العنوان الى وضع مختصر يفي بالغرض • وقد أوضح هذا في مقدمة الكتاب فافتتحه بذكر منهجه ومراجعه ومصادره الرئيسية فقال : هذا كتاب اختصرت فيه ذكر مبعث النبي ﷺ ، وابتداء نبوته ، وأول أمره في رسالته ومغازيه وسيرته فيها ، لأني ذكرت مولده وحاله في

(★) ترجمة ابن عبد البر في : جذوة المقتبس للحميدي : ٣٤٤ . والصلة لابن بشكوال ٢ : ٦٧٧ وبغية الملتمس للضبي : ٤٧٤ ، ومطمح الانفس لابن خاقان : ٦١ . والمغرب لابن سعيد ٢ : ٤٠٧ . ووفيات الاعيان لابن خلكان٦: ٦٤. والديباج المذهب لابن فرحون: ٣٥٧. وشذرات الذهب للحنبلي ٣ : ٣٤٤ . وتذكرة الحفاظ للذهبي ٣ : ٣٠٦ . والعبر في خبر من غبر ٣ : ٢٥٥ . وترتيب المدارك ٤ : ٨٠٨ .

وانظر دراسة آنخل بالنثيا : ٣٩٦ . ومقدمة التمهيد لما في الموطأ من المعاني والاسانيد (للمحققين) . ومقدمة الدرر للدكتور شوقي ضيف والاعلام للزركلي . ومقدمة بهجة المجالس (طبعة المجلس الاعلى بالقاهرة) تحقيق م. الخولي .

نشأتـه وعيونـاً من أخبـاره في صدر كـتـابي في الصحابة[٣٩] • وأفردت هذا الكتاب لسائر خبره في مبعثه وأوقاته ﷺ •

وتحدث ، بعد ، عن مصادره وأُصوله : واختصرت ذلك من كتاب موسى بن عقبة ، وكتاب ابن اسحاق ، رواية ابن هشام وغيره • وربما ذكرت فيه (الدّرر) خبرا ليس منهما ، والنسق كله على مارسمه ابن إسحاق، فذكرت مغازيه وسيره (جهاده) على التقريب والاختصار والاقتصـار على العيـون من ذلـك دون الحشـو والتخليط[٤٠] •

فكتاب الدّرر إذن وضع ليكون تهذيبا واختصارا لما رواه من كتب السير والمغازي والشمائل والأخبار، من الأُصول المعتمدة والروايات المختلفة • ولم يكتف بذلك بل أضاف الى التهذيب والاختصـار أخبـارا رواها ، وآراء نثرها في جوانب السيرة ، « وهي آراء علم من أعلام الفقه والحديث »[٤١] • وهو من جهة حذف بعض الأسانيد وبعض الحشو ، وكأنما رأى كتب السيرة تحتوي على حشو كثير فرأى أن يكتفي بالـدرر والفوائد التي تجعل منهـا خيطـا ممدودا متصلا[٤٢] •

وكما أسلفنا مما نقلناه من مقدمة المؤلف ، فان كتاب الدّرر يبدأ من البعثة النبوية • اما ماقبل ذلك من ولادة الرسول ﷺ ونسبه ووفاة أبيه وأمّه وجده وكفالة عمه أبي طالب ونشأتـه وأطواره قبل البعثـة وزواجه بالسيدة خديجة (رض) فقد أجمله في صدر كتابه : الاستيعاب في معرفة الأصحاب •

وهو ، على متـابعته في الخط العـام لسيرة ابن إسحاق ، كما أشار في المقدمة ، فانه خرج على ذلك بما حذفه منه ، وبما أضافه من مصادره الأُخرى مثل كتاب ابن عقبة في المغازي وكتـاب ابن أبي خيثمة ، وروايات شيوخه من الاحاديث •

وقد كان من مصادره الرئيسية سيرة ابن إسحاق برواية ابن هشام ، وبروايتين أخريين : رواية يونس ابن بكير[٤٢] مكرر ورواية ابراهيم بن سعد • واستعان بهذه الروايات على المقارنة والموازنة • ومن مصادره: مغازي الواقدي ، وطبقاته ، وكتاب أبي بكر بن أبـي خيثمة • قال الدكتور ضيف : ويظهر أنه كان له كتاب في السنن بجانب كتابه التاريخ الكبير في تعديل الرواة وتجريحهم[٤٣] • قال : ولا شكّ في أن وراءها مصادر أخر لم يعن بايرادها •

وخلاصـة القول أن ابن عبد الـبرّ اقتصر على العيون من الأخبار ، وألّفه بطريقة المحدّث الحافظ ، مبتعدا عما لم يصح من الروايات ، مع مناقشة ماروا‌ه من ضعيف الأخبار وذلك بميزان الجرح والتعديل ، وأداره بروح المؤرخ الأديب والناقد الخبير[٤٤] •

وقـد كانت السيرة التي صنفهـا ابن عبد الـبر (الدرر)(*) في أول مصـادر ابن حزم في (جوامـع السيرة) ، وفي أهم مصادر ابن سيد الناس في (عيون الأثر) مما يلحق الحديث به ، في مواضعه • ولا شكّ في أنها كانت بين يدي الأندلسيين الذين ألفوا في السيرة أو في شروحها أو الكتابة في جوانب تتعلّق بها ، كما كانت كتب ابن عبد البر الاخرى شائعة سائرة •

(*) طبع كتاب الدرر في القاهرة ١٣٦٨هـ — ١٩٦٦م عن لجنة احيـاء التراث في المجلس الاعلـى للشـؤون الاسلامية . واضطلع بتحقيقه الدكتور شـوقي ضيف . وجاء الكتاب في جزء واحد في نحو ٣٥٠ صفحـة كبيرة ، يذهب اقل من مئة صفحة منها للمقدمات والفهارس .

ابن حَزم * (٣٨٤ — ٤٥٦)

نقل المقري في نفح الطيب عن صاعد الأندلسي قوله في ابن حزم : كان ابن حزم أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الاسلام وأوسعهم معرفة مع توسعة في علم اللسان والبلاغة والشعر والسير والأخبار »(٤٥) .وقال الدكتور احسان عباس بعد ترجمته لابن حزم : كان نسيج وحده فيمن أنجبتهم الأندلس(٤٦) .

وأبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي ، فقيه الأندلس وعالمها ، وصاحب التصانيف في الفقه والجدل والتواريخ والسير والأصول والآداب. ومجدّد مذهب داود الظاهري ومقعّد أصوله ومبيّن أحكامه .. الفقيه الأديب الناقد المؤرخ الوزير .

ينتمي ابن حزم الى أسرة فارسية الأصل ، في أرجح الآراء ، ويحسب مانقل ابن حزم نفسه . وكانت أسرته ذات سابقة في خدمة الدولة المروانية ، والعامريّة . وكان أحمد (والده) مشهورا بالعلم والأدب والشعر، وكان وزيرا معدودا في دولة المنصور بن أبي عامر .

وحصل ابن حزم على العلوم الدينية والدنيويّة ، وكانت دائرة إحاطته وتحصيله العلميّ واسعة جدا ، شملتعلوم عصره، (عدا الحساب والهندسة)(٤٦) مكرر.

وبعد أن شارك في الحياة السياسية ، وصلي بنارها في مدة الفتنة بعد سقوط العامريين بقرطبة أقلع عن ذلك كلّه ، والتفت الى التأليف ، والدفاع عن الرسالة ومجادلة أهل الملل ، وتشعبت اهتماماته التي ألف فيها فكتب في المنطق ، والفقه ، والأصول والآداب ، والتاريخ ، وتراجم الرجال ، واتسع صدره ليكتب في الحبّ (طوق الحمامة) . وكان ابن حزم لسان المذهب الظاهري فألف فيه كتبا كثيرة ، وتعرّض لنقمة بعض الفقهاء ، وبعض من جاراهم من أمراء الطوائف .

واستمر ابن حزم ، ذا شخصية قوية متمكنة ، يدرس العلم لطلابه الذين يقصدون اليه حيث انتقل ، أو حيث أزعجه الأمراء ، ويؤلف الكتب لم يثنه احراق بعض كتبه ... أمر باحراقها المعتضد بن عباد متقربا الى بعض الفقهاء والعامّة ..

وكما كان تحصيله من الآداب والعلوم شاملا واسعا غزيراً ، كانت مؤلفاته انعكاسا لذلك الشمول والاتساع ، وكانت ، أيضا ، كتبا ذات قيمة علمية عالية من مؤلف مدقّق غزير متدفق القلم حاسم الرأي ،قوي الحجّة . وجمع الإمام ابن حزم العلوم النقلية الى العلوم العقلية ، وسمع سماعا جمّا كما قال تلميذه الحميدي(٤٧) . وقد روى الحديث عن علماءكثيرين ، وروى التاريخ للطبري وحدث به عن شيخه ابن الجسور الأموي. وكتب تراجمه تحفل بأسماء شيوخه، وهم كثرة من جهة ، وهم متعدّدو الاهتمام والاختصاص من جهة ثانية .

قال الحميدي إن ابن حزم ألف في فقه الحديث كتابا كبيرا سماه : الايصال الى فقه الخصال الجامعة

(*) ترجمته في جذوة المقتبس للحميدي ٢٩٠ ، بغية الملتمس رقم ١٢٠٤ صفحة ٤٠٣ ، والصلة لابن بشكوال ١ : ٣٩٥ طبقات الامم لصاعد الاندلسي ١١٧ ، المغرب لابن سعيد ١ : ٣٥٤ والذخيرة لابن بسام ١ـ١ : ١٤٠ ، والمعجب للمراكشي ٩٣ ، ومطمح الانفس لابن خاقان ٥٥ ونفح الطيب ١ : ٣٦٤ ، وتذكرة الحفاظ للذهبي ٣ : ٣٤١ وشذرات الذهب ٣ : ٢٩٩ . وتاريخ الحكماء للقفطي ١٥٦ .

للاستاذ سعيد الافغاني عناية بابن حزم . راجع مقدمة كتابة: ابن حزم ورسالته في المفاضلة بين الصحابة. ومصادر ابن حزم وكتبه في بروكلمان : الاصل ١ : ٤٠٠ والملحق ١ : ٦٩٢. وانظر تاريخ الادب الاندلسي ١: ٣٠٣ د . احسان عباس . وتاريخ النقد الادبي في الاندلس : د . رضوان الداية .

لجمل شرائع الاسلام في الواجب والحلال والحرام . وله الإحكام في أصول الأحكام ، والفصل في الملل والأهواء والنحل ، والتقريب لحدّ المنطق . قال وكان له في الآداب والشعر نفس واسع وباع طويل ... ونبه على عناية ابن حزم بالحديث ، وسماعه الكثير عن شيوخ كثيرين .

وإنما أريد في هذه المقدمة السريعة أن أبيّن عناية ابن حزم بالحديث والأصول وعنايته بمناقشة أهل الملل ، ومنافحته عن المذهب الظاهري الذي التزم به وكتب فيه . وأن عنايته بالسيرة النبوية لم يكن بعيدا عن منهجه الفكري العام ، ولم يكن مشاركة عارضة لمؤلف غزير الآثار .

ونبّه محققا كتاب ابن حزم « جوامع السيرة » في مقدمة الكتاب الى صنيع ابن حزم ، وما هدف اليه من كتابة السيرة ، ومزايا الكتاب وخصائصه[٤٨] . فالهدف العلمي والتعليمي أن يضع كتابا مختصرا ، قريب المأخذ سهل المتناول ، كما فعل في كثير من رسائله التاريخية لتقريب هذه الأغراض الى طلابه ، والدارسين .

وتناول ابن حزم للسيرة تدخل في جملة اهتمامه بالاستكثار من النقل والسنن متابعة لما يقتضيه الاحتجاج لمذهبه الظاهري ، فالنقل أساس من أسس المذهب الظاهري[٤٩] . والسيرة النبوية ــ الى ذلك ــ صورة عليا من الكمال الإنساني في نفس ابن حزم ، فالكتابة فيها حث على الاقتداء به ﷺ .

والسيرة دليل من الأدلة على ثبوت نبوته ﷺ . وفي هذا يقول ابن حزم : إن سيرة محمد ﷺ لمن تدبرها تقتضي تصديقه ضرورة بأنه رسول الله ﷺ حقا . فلو لم تكن له معجزة غير سيرته ﷺ لكفى[٥٠] . وميّز بالعناية فصلين هامين هما أعلام نبوته وخلقه وشمائله لأنهما شاهدا حق على نبوة الرسول ﷺ ولان خلقه وشمائله تمثل الجانب العملي في الكمال الخلقي .

وورد في كتاب « جوامع السيرة » ذكر اثنين من مصادر ابن حزم هما : تاريخ أبي حسان الزيادى ، وتاريخ خليفة بن خياط ، وقال المحققان إن البناء العام لكتاب السيرة يدل على أن ابن حزم يتكىء كثيرا على سيرة ابن اسحاق ، وأنه أفاد في كتابه هذا مما صنعه من قبله شيخه ومعاصره أبو عمر بن عبد البر مؤلف كتاب الدرر في اختصار المغازي والسّير ... بالإضافة الى كتب أخرى يمكن أن ترفد كتاب ابن حزم .

وتحدّث الدكتور شوقي ضيف في مقدمة «الدرر» عن استفادة ابن حزم في « جوامع السيرة » من كتاب أستاذه في الدّرر . ولكن نشر جوامع السيرة قبل كتاب الدرر لم يسمح لمحققي كتاب ابن حزم بالمقارنة بين الكتابين ، أو الإفادة منه في توثيق النص (مقدمة الدكتور ضيف للدرر صفحة ١٤ ــ ١٦)* . ويقدّر الدكتور ضيف في شيء من المقارنة والتمثيل بالأدلة أن ابن حزم أكثر من الاستفادة من كتاب (الدرر) ، وأنه « لايتابع ابن عبد البرّ في نسق كتابه وما تضمنه من الأحداث وأسماء الأعلام فحسب ، بل كثيرا مايتابعه في سرد كلامه ناقلا نص عباراته مع شيء من التصرّف أحيانا ، وقد يترك النص الذي ينقله عن أستاذه دون أي تصرّف ... »[٥١] .

وهذا اللقاء بينه وبين أستاذه يدل على وحدة المنهج ، واعتداد ابن حزم بأستاذه ، ومتابعته إياه . ويكون نقل بعض النصوص بأعيانها اكتفاء بالفحوى والنصّ عن المغايرة أو الخلاف .

(*) نشر كتاب جوامع السيرة لابن حزم في دار المعارف بمصر بتحقيق الدكتورين الاستاذين احسان عباس وناصر الدين الاسد ومراجعة الاستاذ العلامة أحمد محمد شاكر .

وتبقى لابن حزم دائما شخصيته ، وأسلوبه في المعالجة ، وقدرته على توحيد الأفكار المتشابهة وجمعها وتبويبها ، بالاضافة الى ماعرف عن ابن حزم من الدقّة ، ومن تمتّعه بصفات المؤرخ النزيه المنصف .

ولا يغيب عن قارىء كتب ابن حزم ، أنه يتمتع بالشخصية النافذة ، ذات الطبع الحادّ من جهة ، ويحاول أن يسرّب نظراته الفقهيّة حيث يمكن ذلك ، ويثبت مذهبه الظاهريّ ، من جهة أخرى .

كتاب حجة الوداع :

في ترجمة الرعيني لأبي زكريا يحيى بن أبي بكر ابن عصفور العبدري ذكر أنه ـ أي ابن عصفور ـ سمع على شيخه المحدث أبي العباس أحمد بن سلمة ابن أحمد الأنصاري اللورقي كتاب حجة الوداع لابن حزم . وأخذ الرعيني من شيخه ابن عصفور اجازة هذا الكتاب لمّا أجازه جميع ما يحمله . (برنامج الرعيني صفحة ١٧٢) .

وكتاب حجة الوداع سفر لطيف طبع في دمشق (بتحقيق د . ممدوح حقي في دار اليقظة العربية) .

وبين أبو محمد بن حزم في مقدمة هذا السفر غرضه من تأليفه فقال ان الأحاديث كثرت في وصف عمل رسول الله ﷺ في حجة الوداع ، وأتت من طرق شتى وبألفاظ مختلفة ووصف فصول من ذلك العمل المقدس في أخبار كثيرة حتى صار ذلك سبباً الى تعذر فهم تأليفها على أكثر الناس ، وحتى ظن قوم كثير أنها متعارضة . (صفحة ٤٣ ـ ٤٤) . قال : فلما تأملناها وتدبرناها بعون الله عز وجل لنا وتوفيقه إيانا لابحولنا وقوتنا رأيناها كلها متفقة ومؤتلفة ... لا إشكال في شيء منها حاشا فصلاً واحداً لم يلح لنا فيه فصل الحقيقة فيه أي النقلين هو منها فنبهنا عليه وهو : أين صلى رسول الله ﷺ الظهر يوم النحر أبمنى أم بمكة ... فلما وجدنا الآثار الواردة كما ذكرنا تكلفنا ذكرها وترتيبها وضمها واختصار التكرار الا ما لم نجد مندوحه عن تكراره لضرورة إيراد لفظة (ع) أو لفظ الراوي على نصه لئلا نحيل الرواية عمن أخذناها عليه .. (ص ٤٤) .

ولهذا فإن ابن حزم رأى أن يذكر بلفظه ذكر عمله ﷺ والوقوف عليه كأنه شاهده وأن يحكي ذلك منقله من حين خروجه ﷺ من المدينة الى مكة الى حين رجوعه (ع) الى المدينة . وقد جعل هذا فصلاً أول . وزاد بعده فصلين .

الفصل الثاني : لذكر الاحاديث الوادرة بكيفية ما ذكره من قبل من حكاية حجة الوداع .

والفصل الثالث : لنفي التعارض المتوهم في بعض الاحاديث .

قال « ولم نقتحم الحكم فيما لم نقف على بيانه ولا حسرنا على القطع فيما لم يلح لنا وجهه ولا قضينا فيما لم نشرف على حقيقته » ص ٤٥ .

وجاء الكتاب بفصوله الثلاثة في نحو ٣٢٥ صفحة

٣ ـ القاضي عياض * ٤٧٦ ـ ٥٤٤

ترجم بالنثيا في تاريخ الفكر الأندلسي للقاضي

(*) ترجمله ابنه محمد في التعريف بالقاضي عياض . وخصه المقري بكتابه : أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض (طبع منه ٣ ج) . وانظر فيه المعجم في شيوخ الصدفي ٢٩٤ ، وقلائد العقيان : ٢٢٢ وبغية الملتمس ٤٢٥ وقضاة الاندلس ١٠١ ، ووفيات الاعيان ٣ : ١٥٢ وخريدة القصر قسم المغرب ، والديباج المذهب : ١٦٨ .

وانظر مقدمة الالماع . ومواضع مختلفة من برنامج الرعيني .

ومقدمة ترتيب المدارك (طبعة بيروت / وطبعة الرباط) .

عياض في جملة من ذكرهم من كبار المحدثين بالأندلس ، ونوه ببعض مؤلفاته [٥٢] . وقد اعتنت كتب التراجم الأندلسية والمغربية بالقاضي عياض ، كما ترجم له ابنه في كتاب خاص ، نشره الدكتور محمد بنشريفة تحت عنوان التعريف بالقاضي عياض .[٥٣] واحتفلت به كتب التراجم المشرقية. وقد لقيت كتبه سيرورة ورواجاً كبيرين ، وفي جملة تلك الكتب والمصنفات كتابه في السيرة النبوية : الشفا بتعريف حقوق المصطفى .

وهو أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي . قال أبو عبد الله محمد بن عياض في التعريف بأبيه :[٥٤] استقر أجدادنا في القديم بالأندلس جهة بسطة (شمال شرق غرناطة) ثم انتقلوا الى فاس ... واستوطن عمرون سبتة ... واستقرت الأسرة فيها . أما القاضي عياض فقد ولد سنة ٤٧٦ بسبتة . وأخذ عن أشياخ بلده . ثم رحل الى الأندلس سنة ٥٠٧ فدخل قرطبة ، وأخذ عن شيوخها وعلمائها كابن عتاب (ت ٥٢٠) وكانت الرحلة في زمانه اليه واعتماد أصحاب الحديث عليه ، وابن حمدين قاضي الجماعة بقرطبة (ت ٥٠٨) وابن الحاج قاضي الجماعة بقرطبة وكان من جلة الفقهاء وكبار العلماء معدوداً في المحدثين والأدباء ... عالماً بمعاني الأشعار والسير والأخبار (ت ٥٢٩) وغيرهم من أعلام قرطبة ، وخرج من قرطبة الى مرسية سنة ٥٠٨ ولقي أبا علي الصدّفي من ائمة العلماء والمحدثين فسمع منه قال ابنه في ترجمته فحصل له ــ يعني أباه ــ من الصدفي مسموع كثير في مدة يسيرة . ولقي في رحلته هذه جماعة من أعلام الأندلس وأجازه وجماعة من الاعلام غربي الاندلس [٥٥] ، ومن أعلام شرقي الأندلس [٥٦]... وكان أشياخه مئة شيخ .

وعاد الى بلدة (سبتة) يحدّث ويناظر . وولي القضاء سنة ٥١٥ . ونقل الى قضاء غرناطة سنة ٥٣١ . وكانت الأندلس ــ منذ توحيد المرابطين للعدوتين ــ جزءاً من الدولة المرابطية . وولي بعدها قضاء سبتة سنة ٥٣٩ .

ولما انتقلت الحال الى الدولة الموحّدية ، وثارت مدينة سبتة كان للقاضي وساطة لدى أمرائهم . وغرّب القاضي الى مدينة مراكش حيث لقي السلطان (يعني الخليفة الموحّدي) واستعطفه بشعر ونثر . قال ابنه : فوصل ــ يعني أباه ــ الحضرة (مراكش) والحال متغيرة عليه (يعني للشك في ولائه ، فقد كان مقرباً لدى المرابطين مظنوناً به التأييد لابن غانية) فأقام بالحضرة مدة الى أن اجتمع بأمير المؤمنين . وكان منه من المنظوم والمنثور ما استعطفه به حتى رق له وعفا عنه.

وتجمع كتب التراجم على أنه مات مغرباً عن وطنه ، سنة ٥٤٤ ، ودفن بمراكش . ونقل النباهي رواية لم يسندها « وقال بعضهم » تشير الى احتمال وفاة القاضي غيلة .

وله مؤلفات كثيرة قال فيها ابن الأبار [٥٧] « وله تواليف مفيدة كتبها الناس وانتفعوا بها وكثر استعمال كل طائفة لها .. » . عدّها ابنه في كتابه . منها : كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى (ستة أجزاء) بتجزئة المؤلف . وكتاب الالماع في ضبط الرواية وتقييد السماع .

وكتاب مشارق الأنوار على صحيح الآثار ، وكتاب غنية الكاتب وبغية الطالب في الصدور والترسيل .

وكتب للشفا ذيوع وانتشار . وكان في جملة الكتب المروية ، المعتنى بها عناية بعيدة ، كما نفهم من كتب التراجم ، ومما بين أيدينا من كتب برامج العلماء، ونخص منها برنامج الرعيني (صفحات ١٤١ ، ١٤٥،

١٦٩ ، وغيرها) • وبرنامج ابن أبي الربيع (صفحة ٤٧) وكلاهما يروي كتاب الشفا من طرق عدة، ومنها برنامج الوادي آشي كما نقل الدكتور عبد العزيز الأهواني في مقدمة برنامج ابن أبي الربيع (صفحة ١٩) •

وقد اعتنى العلماء والمحدثون والمشتغلون بالتواريخ بكتاب الشفا • ووضعوا عليه التعليقات والشروح والمختصرات • ونظم بعضهم الشفا شعراً • ولا يمكن استقصاء ذلك في مقالة كهذه • ويكفي أن يرجع الدارس الى ما ذكرته كتب التراجم والتواريخ كما في كتاب بروكمان ، وكتاب حاجي خليفة كشف الظنون (صفحة ١٠٥٢ — ١٠٥٣) •

وكان الاهتمام مشتركاً من المغاربة والمشارقة •(*)

ألف القاضي عياض كتاب الشفا تلبية لدعوة صديق أو عزيز ، واستجابة لداعي العلم وطلباً للثواب، لكني لما رجوت لي ولك في هذا السؤال والجواب من نوال أو ثواب بتعريف قدرة الجسيم وخلقه العظيم وبيان خصائصه التي لم تجتمع قبل في مخلوق ••• بادرت الى نكت سافرة عن وجه الغرض مؤدياً من ذلك الحق المفترض اختلستها على استعجال ••• و •••ترجمته بـ : « الشفا بتعريف حقوق المصطفى » •

ويتميز كتاب الشفا بالتبويب والترتيب ، وقسمة أخباره ﷺ وشمائله وخصائصه الى أقسام ، ووضعها تحت عنوانات مختلفة • وقد حدّد القاضي منهجه في مقدمة كتابه ، ومضى عليها من أول كتابه الى آخره • قال : وحصرت الكلام فيه (الشفا) في أقسام أربعة :

القسم الأول : في تعظيم العلي الأعلى لقدر هذا النبي المصطفى قولاً وفعلا • وهو في أربعة أبواب ١ — في ثنائه ، ٢ — في تكميله له تعالى المحاسن خلقاً وخلقا وقرانه جميع الفضائل الدينية والدنيوية فيه نسقا • وفيه سبعة وعشرون فصلا ، ٣ — فيما ورد من صحيح الأخبار ومشهورها تعظيم قدره عند ربه ومنزلته وما خصه به في الدارين من كرامته • وفيه اثنا عشر فصلا ، ٤ — وفيما أظهره الله على يديه من الآيات والمعجزات وشرفه من الخصائص والكرامات ، وفيه ثلاثون فصلا •

والقسم الثاني : فيما يجب على الانام من حقوقه عليه الصلاة والسلام ويترتب القول فيه في أربعة أبواب :
١ — في فرض الايمان به ووجوب طاعته واتباع سنته (في خمسة فصول) ٢٠ — وفي لزوم محبته ومناصحته (في ستة فصول) • ٣ — في تعظيم أمره وتوقيره وبرّه ٤ — وفي حكم الصلاة عليه والتسليم وفرض ذلك وفضيلته (في عشرة فصول) •

والقسم الثالث فيما يستحيل في حقه وما يجوز عليه وما يمتنع ويصح من الامور البشرية أن يضاف اليه • قال القاضي عياض وهذا القسم هو سر الكتاب ولباب ثمرة هذه الابواب • وجعله في بابين : في أحواله (ص) الدينية والدنيوية •

والقسم الرابع في تصرف وجوه الأحكام على من تنقصه عليه السلام في بابين اثنين • وبعد أن عرض القاضي عياض أقسام كتابه قال : « تتم الاقسام والأبواب وتلوح في غرة الايمان لمعة منيرة وفي تاج التراجم درة خطيرة تزيح كل لبس وتوضح كل حدس•

(*)وطبع كتاب (الشفا) طبعات عديدة في المشرق والمغرب ، وطبع مع بعض الشروح أيضا . (راجع معجم سركيس ، وتاريخ الادب العربي لبروكلمان) ومن شروحه المطبوعة شرح الخفاجي . وقد كثرت نسخه في المشرق والمغرب لانه كان يورّق (ينسخ) في المساجد تبركا .

ويشفى صدور قوم مؤمنين ويصدع بالحق ويعرض عن الجاهلين ... » .

وكتاب (الشفا) كتاب متوسط الحجم بالقياس الى كتب السيرة تقريبا ، على أن القاضي ينص على أنه يكتب مختصرا » فبادرت الى نكت سافرة عن وجه الغرض مؤديا من ذلك الحق المفترض ، اختلستها على استعجال ، لما المرء بصدده من شغل البال بما طوفه الإنسان من مقاليد المحنة التي ابتلي بها فكادت تشغل عن كل فرض ونفل ... » [57] .

وهو ، على كل حال ، لاحق بكتب السيرة الشاملة ، أعني التي لاتقف من الحديث عن ناحية واحدة من حياة الرسول الكريم ﷺ أو خصائصه وشمائله .. الخ . وان لم يلتزم القاضي عياض في كتابة التأريخ الكامل لمراحل حياته ﷺ، والتزم بالمنهج الذي رسمه في مقدمته : فعرف بسيرته العاطرة على وجه الإجمال ، والتفت الى التنويه بشخصه الكريم ، وأخلاقه العظيمة ، وشمائله المثلى . ونقل من أخباره ﷺ وأحواله والتفاف صحابته حوله ، ووقف طويلا عند محبته ﷺ واتباع سنته ووجوب طاعته وتوقيره وتعظيم أمره ونقلا الأحكام الفقهية في ذلك .. الخ . والقاضي ـ على نقوله الكلامية ومناقشاته المختصرة والمطولة ـ يصرح بأنه لم يؤلف كتابه للرد على المنكرين ولا لنصب البراهين ، وانما يؤلفه لأهل ملته المبين لدعوته ، المصدقين لنبوته ليكون تأكيداً في محبتهم له ، ومنماة لأعمالهم وليزدادوا إيماناً مع ايمانهم . [58]

واختتم القاضي كتابه بمثل ما بدأ به ، وعطف ببيان نجاز مقاصده التي قصد اليها ، من ابراز خصائصه ووسائله ، وذكر فضائله وبيان شرف مكانته ﷺ ... [59] .

ولم يصرح القاضي عياض بذكر ثبت مصادره ومراجعه في مقدمة الكتاب أو في خاتمته ، ولكنه نثر ذلك في صفحات الكتاب . فكان يسوق الخبر تارة بسنده كاملا ، وكان يختصر ذلك تارة أخرى . وقد يشير الى النقل عن كتاب ويذكر اجازته أو سماعه .. الخ . وكان ينص أحيانا على النقل من ابن اسحاق . ويشير الى النقول من كتب مختلفة في الاصول والتفسير والحديث والسير والاخبار والتواريخ وكتب المتكلمين مما يخص الثقافة الاسلامية الواسعة ، ومما يرفد الكتاب الذي يؤلفه ويؤيد المنهج الذي يتبعه .

وربما يكتفي باشارة سريعة فلا يوضح اسم الكتاب المنقول ولا صاحب الفكرة أو الرأي كقوله : قد رأيت لبعض السلف (الشفا ١ : ١٦٠) وقد وقع لبعض المفسرين (١/١٦١) وقال بعض العلماء (٢/٤٦) وأضفنا بعض ماوقع من مشاهير كتب الأئمة (١ : ٢٠٥) ... الخ .

وتظهر لك شخصية القاضي عياض في انتقائه ، واختياره ، وفي منهجه الذي رسمه وقدرته على ضبطه ومتابعته ، وفي إبداء الرأي في قضايا مختلفة تخص الفقه أو الأصول أو علم الكلام أو الاخبار ...

كما يظهر شيوخه الذين روى عنهم ، ونخص منهم أبا علي الصدفي الشهيد ويظهر أعلام السير والكلام والفقه والأصول في نقوله عنهم وروايته المتصلة بهم .

وعلى العموم يحرص القاضي عياض على رواية الأخبار بأسانيدها ، ونسبة الآراء الى أصحابها ، والنص على النقول من كتب يسميها أو يسمي أصحابها ... وقد يعدل عن هذا ، مكتفياً بشهرة الخبر أو باعتماده ، وتحمله مسؤوليته وتوثيق نسبته . ولاشك في أن

كتب السيرة المختلفة كانت ماثلة أمامه بالاضافة الى كتب السنن ، وما يرفدها ، مما سبقت الاشارة اليه .

٤ ـ ابو الربيع سليمان بن موسى الكلاعي (*)
٥٦٥ ـ ٦٣٤

هو أبو الربيع سليمان بن موسى بن سالم الحميري الكلاعي ، بلنسي ، وأصله من بعض ثغورها الشرقية . ولد سنة ٥٦٥ ودخل مع أهله بلنسية وهو ابن عامين فنشأ بها وأخذ عن شيوخها . وذكر له النباهي رحلات وجولات في الاندلس والمغرب لقي فيها العلماء (٦٠) . وذكر ابن عبد الملك المراكشي (٦١) الذين روى أبو الربيع عنهم كأبي بكر جزي وأبي بكر ابن الجد وأبي الحجاج بن الشيخ وأبي عبد الله بن زرقون ، وابن الفخار ، وأبي الوليد بن أبي القاسم وتلقى كتباً من عدد من العلماء باجازته مروياتهم ومؤلفاتهم ... وروى عنه جماعة كابن الأبار وأبي المطرف بن عميرة (الشاعران الكاتبان) وخلق ذكرهم ابن عبد الملك .

وكان شيوخه الذين لقيهم وروى عنهم وأجازوه علماء الوقت في العلوم الدينية والدنيوية ، وكان هو كما في الذيل (٦٢) ــ بقية الأكابر من أهل العلم بصقع الأندلس الشرقي ، حافظاً للحديث ، مبرزاً في نقده تام المعرفة بطرقه ، ضابطاً لأحكام أسانيده ذاكراً لرجاله وتواريخهم وطبقاتهم ، ريان من الأدب ، كاتبا بليغا شاعرا مجيدا ، خطيبا مصقعا . خطب بجامع بلنسية في أوقات . واستقضي ، وعرف بالفضل والعدالة في أحواله جمع . ورحل اليه الناس متنافسين في الاخذ عنه .

وقال النباهي في صفته : كان حسن الهيئة والملبس والمركب والصورة ، كريم النفس يطعم فقراء الطلبة وينشطهم ويتحمل مؤونتهم . وقال ابن الأبار : وكان هو المتكلم عن الملوك في مجالسهم والمبين عنهم لما يريدونه على المنبر في المحافل .

ونقل في الذيل « كان رحمه الله من أولي الحزم والجرأة والبسالة والاقدام والجزالة وثبات الجأش والشهامة ويمن النقيبة . يحضر الغزوات ويباشر بنفسه القتال ويبلي فيه البلاء الحسن . وآخرها الغزاة التي استشهد فيها بالكائنة على المسلمين بظاهر أنيشة عمل بلنسيه (من توابعها) على نحو سبعة أميال منها . حضرها وحرض المسلمين وقد اختلفوا على قتال عدوهم ورغبتهم في مكافحته ، ولم يزل متقدما أمام الصفوف زحفاً الى الكفار مقبلا على العدو غير مدبر ينادي المنهزمين : أعن الجنة تفرون ؟ حتى قتل صابراً محتسباً غداة الخميس لعشر بقين من ذي حجة ٦٤٣ » (٦٣) . ونقل مثل هذا الخبر الذين ترجموا لأبي الربيع جميعاً . ورثاه تلميذاه ابن الابار وابن عميرة المخزومي وغيرهما (٦٤) .

ولأبي الربيع الكلاعي مؤلفات كثيرة ، منها في الحديث

(*) ترجم له ابن الابار في التكملة (ط مجريط رقم ١٩٩١) وتحفة القادم ١٢٩ واعتاب الكتاب ٢٤٩ . وابن عبد الملك المراكشي في الذيل والتكملة ٤ : ٨٣ . وابن فرحون في الديباج : ١٢٢ والنباهي في المرقبة ١١٩ ، والرعيني في برنامجه ٦٦ ، والمقري في نفح الطيب ٤:٤٧٣ وذكره الحميري في الروض المعطار : ٤١ عند ذكر مادة انيشة . وترجم له الذهبي في تذكرة الحفاظ : ٤/٢٠٩ ، والسيوطي في طبقات الحفاظ ٣ : ٥٦ .

(وانظر مقدمة الاكتفاء ــ الطبعة الاوربية ــ حيث نقل تراجم الكلاعي من معظم المصادر . ومقدمة الاكتفا ــ الطبعة القاهرية ــ) .

مجموعة ، وفي السيرة والتراجم ، واللغة ، وله مؤلفات في الأدب ، ورسائل ، وديوان شعر ، وبرنامج ذكر فيه مروياته ، والمعجم من مشيخة أبي القاسم بن حبيش أحد أساتذتـه .

وفي كتبه المشهورة : كتاب الاكتفا . وقد ورد عنوان الكتاب في مقدمة المؤلف وفي الذيل وغيره من المصادر « الاكتفا بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ ومغازي الثلاثة الخلفا » . ولكنه طبع بعنوان : الاكتفا في مغازي المصطفى والثلاثة الخلفا .(*) .

وقد قدم أبو الربيع الكلاعي في الاكتفاء بمقدمة بين فيها منهجه ، وذكر مصادره التي اعتمد عليها وخطته التي جرى فيها . قال (٦٥) : هذا كتاب ذهبت فيه الى ايقاع الاقناع وامتاع النفوس والاسماع باتساق الخبر عن سيرة رسول الله ﷺ وذكر نسبه ومولده وصفته ومبعثه وكثير من خصائصه وأعلام نبوته ومغازيه وأيامه من يوم مولده الى أن استأثر الله تعالى به وقبض روحه الطيبة اليه ، صلوات الله وسلامه وبركاته عليه . مقدماً لذلك ما يجب تقديمه ومتمماً من ذكر أوليته المباركة بلداً ومحتداً بما يحسن علمه وتعليمه ملخصاً جميعه من كتب أئمة هذا الشأن الذين صرفوا اليه اعتناءهم واستوفوا فيه آناءهم ككتاب محمد بن اسحاق الذي تولى عبد الملك بن هشام تهذيبه واختصاره . . وكتاب موسى بن عقبة الذي استحسن الأئمة اقتصاده واختصاره وغيرهما من المجموعات ... ولكن عظم المعول على كتاب ابن اسحاق : اياه أردت وتجريده من اللغات وكثير من الانساب والاشعار قصدت ، وعلى ترتيبه غالباً جريت ، ومنزعه في أكثر ما يخص المغازي تحريت ... الا أنه تخلله أشياء من غير المغازي تقدح عند الجمهور من امتاعه ... ولذلك نويت أن أحذف ما تخلله من مشيع الأنساب ... وتفسير اللغات .. حتى لا يبقى الا الأخبار المجردة وخلاصة المغازي التي هي في هذا المجموع المقصود المعتمدة ... » .

فهو اذن اعتمد على كتابي ابن عقبة وابن اسحاق . وكان اعتماده على ابن اسحاق أكبر . الا أنه جرد منه استطرادات في الانساب واللغات وغيرهما، تصرف قارىء السيرة في تقديره عن مجراها .

ثم انه بدا للمؤلف بعد ذلك ان يزيد على هذا المقدار(٦٦) فأخذ من مصادر أخرى ذكر منها : كتاب المبعث للواقدي ـ ونص على اطلاعه على كتابه الآخر في المغازي ورجح أسلوب ابن اسحاق ـ وكتاب الزبير ابن بكار في أنساب قريش، وكتاب التاريخ الكبير لابي بكر بن أبي خيثمة ، بالاضافة الى كتب غيرها « وكم شيء » استحسنه من غير هذه الكتب فأنظمه في هذا النظام(٦٧) وخص كتاب شيخه الخطيب أبي القاسم بن حبيش(*) في المغازي ، باشارة خاصة ، وأنه يعتمده في الأخذ والنقل حين ينتقل من مغازي رسول الله ﷺ الى مغازي الثلاثة الخلفاء(٦٨) .

(*) طبع الجزء الاول بعناية هنري ماسيه سنة ٩٣١ بالجزائر . ثم طبع جزآن (من اربعة اجزاء) بتحقيق مصطفى عبد الواحد بمطبعة الخانجي بالقاهرة . ووعد باتمامه ، وهو جدير بالطباعة طبعة كاملة متقنة .

(*) أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن حبيش الانصاري (٥٠٤ ــ ٥٨٤) مؤرخ ، عالم بالقراءات، من الحفاظ . هو من اهل المرية وتولى القضاء بجزيرة شقر، وبمرسية ، وبها توفي. من مؤلفاته المغازي قال السيوطي (٢ : ٨٤) انـه في عدة اجزاء . ومنه اليوم قطع (مخطوطة) .

وذكر أبو الربيع الكلاعي مقصده من هـــذا التأليف وعينه في نقطتين :

ــ أن المراد فيه بالقصد الاول وجه الله سبحانه وتعالى .

ــ والقصد الثاني الرغبة في ايناس الناس بأخبار نبيهم (ﷺ) . فان من قرأ سيرته (ﷺ) وجد فيها القدوة الحسنة : فيستجزل ثواب الفرح بنصر الله ، ويصبر على المحن والشدائد ويصطبر للشدائد ، ويتأدب بآدابه (ﷺ) .

ولخص في مقدمة الاكتفا (طبعة القاهرة) صنيع أبي الربيع الكلاعي في كتابه بأنه تأنى في الاختيار والترتيب واستكمل النقص وجمع المزايا ، كما يفهم قارىء مقدمة المؤلف[٦٩] . وكان الكلاعي لا يتدخل برأيه الا عندما تختلف الروايات ليفصل فيها ويرفع الاشكال . وأنه ربما فصل بين بعض الاحاديث المتشابهة لضرورة ... الخ .

٥ ــ ابن سيد الناس اليعمري* ٦٧١ ــ ٧٣٤

هو محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن سيد الناس اليعمري الربعي . أصل سلفه من الاندلس . وكان جده الاعلى قد دخل الاندلس في الايام الاولى وأسكنه بلج بن بشر أبذه جيان لشبهها بمنبج الشام أصلهم القديم . وكان جده أبو بكر محمد خطيب المسجد الجامع بتونس ، وعده بالنشيا في متابعي مذهب ابن حزم الظاهري .

ولد أبو الفتح محمد بن سيد الناس في القاهرة سنة ٦٧١ . قال الصفدي : وهو من بيت رياسة وعلم (يشير الى مكانة أسرته بالاندلس ، باشبيلية) عنده كتب كثيرة وأصول جيدة . سمع وقرأ وارتحل وكتب وصنف وحدث وأجاز ، وتفرد بالحديث في وقته ... واستطرد في ذكره مشاهير شيوخه ثم قال ، ولعل مشيخته يقاربون الالف . ونقل الصفدي في صفته : وكان طيب الاخلاق بساما صاحب دعابة ولعب . وكان صدوقا في الحديث حجة فيما ينقله له بصر نافذ بالفن وخبرة بالرجال وطبقاتهم ومعرفة بالاختلاف ويدطولى في علم اللسان ومحاسنه جمة .

قال : وكان صحيح القراءة سريعها ، سريع الكتابة . كتب ختمة في جمعه . وكان يكتب السيرة التي له في عشرين يوما وهي مجلدان كبيران وبرع بكتابة الخطين المغربي (الاندلسي) والمشرقي . وكان صحيح العقيدة جيد الذهن يفهم به النكت العقلية ويسارع اليها ولكنه جمد عقله لاقتصاره به على النقل[٧١] .

وكان بيده مع مشيخة الظاهرية (بمصر) مدرسة أبي حليقة على بركة الفيل ومسجد الرصد وخطابة جامع الخندق . وله رزق . وله في صفد راتب ، وفي حلب فيما أظن[٧٢] .

وقد أحضر كتبا جمة ثمينة ، أغلبها أحضر له من تونس في جملتها تاريخ ابن ابي خيثمة والمحلى لابن

(*) ترجم له معاصره وصديقه صلاح الدين الصفدي في الوافي بالوفيات ١ : ٨٩ ــ ٣١١ . وابن شاكر في الفوات ٢ : ٣٤٤ وابن الاثير في البداية والنهاية ١٤ : ١٦٩ وابن حجر في الدرر الكامنة ٤ : ٣٣٠ والسبكي في طبقات الشافعية ٦ : ٢٩ وابن تغري بردي في النجوم الزاهرة ٩ : ٣٠٣ والشوكاني في البدر الطالع ٢ : ٢٤٩ وابن العماد في الشذرات ٦ : ١٠٨ .

وانظر ايضا : ثبت شيخ الاسلام زكريا الانصاري الورقة ٣٤ . ومقدمة عيون الاثر .

حزم والتمهيد والاستيعاب لابن عبد البر والاستذكار له ، وغير ذلك .

وصنف « عيون الاثر في فنون المغازي والشمائل والسير » ، ومختصره الذي سماه « نور العيون في سيرة الامين المأمون » . ومن مصنفاته :

تحصيل الاصابة في تفضيل الصحابة وكتاب بشرى اللبيب بذكرى الحبيب (٧٣) ، ومنح المدح والمقامات العلية في كرامات الصحابة الجليلة . وله شعر كثير .

وقال ابن قاضي شهبة فيما نقله ابن العماد : سمع من الجم الغفير وتفقه على مذهب الشافعي وأخذ الحديث عن والده وابن دقيق العين ولازمه سنين كثيرة وتخرج عليه وقرأ عليه أصول الفقه وقرأ النحو على ابن النحاس .. » . وكانت له رحلة الى دمشق .

أما كتابه في السيرة فهو : عيون الاثر في فنون المغازي والشمائل والسير وقصد فيه الى ان يكتب السيرة بحيث يتجنب فيها اطالة المكثر واخلال المقل . ومع ذلك فانه يقول عمن سبقوه « فليس لي في هذا المجموع الا حسن الاختيار من كلامهم والتبرك بالدخول في نظامهم »(٧٤) . وأنه انما يجمع المتفرقات ينظمها ويختار منها . وهو بلا شك يعتمد الروايات الصحيحة ، ويأخذ بالاخبار الموثوقة ويتدخل حيث يمكن له ان يبدي رأيا أو يناقش قضية .

وأوضح منهجه الذي اتبعه من الاختصار والايجاز « سالكا في ذلك ما اقتضاه التاريخ من ايراد واقعة بعد أخرى لا ما اقتضاه الترتيب من ضم الشيء الى شكله ومثله حاشا ذكر أزواجه وأولاده عليه السلام » ، فانه لم يسق ذلك على ما اقتضاه التاريخ (من تسلسل الوقائع) بل أتبع به باب المغازي والسير من باب الحلى والشمائل ، الا تزويجه السيدة خديجة (ع) لما وقع في أمرها من أعلام النبوة .

وأضاف الى ذلك تنفا من الاشعار وأشياء في الانساب . ولم يثقل الكتاب بذكر الاسانيد وكتب السنن والسير والمصنفات المختلفات ، بل اكتفى بأن ذكر كله مجملا في آخر الكتاب (وسنتحدث عنها في مصادره) . أما في الفوائد الملتقطة والاجزاء المتفرقة فكان يذكر أسانيده فيها في مواضعها .

وأما في الانساب فكان يذكرها مرة ثم لايكررها اكتفاء برموز يحيل عليها اختصارا(٧٥) : مثل (سا) للسابقين الاولين و (ها) للمهاجرين الاولين — الى ارض الحبشة — الخ ..

مصادره : قال ابن سيد الناس : وعمدتنا فيما نورده على محمد بن اسحاق ، ونبه الى ملاحظة لطيفة فأضاف « اذ هو العمدة في هذا الباب لنا ولغيرنا » .. الا أن ابن سيد الناس كان يذكر خبر ابن اسحاق اذا ورد عند غيره مسندا ، ترجيحا لمكان الاسناد .

ونقل عن الواقدي . وعقد فصلا مطولا للحديث عن الرجلين لبيان حالهما (*) .

وفي خاتمة الكتاب تحدث المؤلف عن الاسانيد التي وقعت له من المصنفين الذين اعتمد كتبهم في تأليف سيرته(٧٦) . وذكر من الكتب : صحيح البخاري ، وصحيح مسلم ، وسنن أبي داود وكتاب الجامع للترمذي وسنن النسائي وسنن ابن ماجه . قال : وما كان في الكتاب عن ابن اسحاق ضمن السيرة النبوية النبوية من رواية ابن هشام وتهذيبه . وما كان فيه من كتاب المغازي عن موسى بن عقبة فعن الامام عز

(*) وكان السهيلي قدم بتعريف حال ابن اسحاق (الروض الانف ١ : ٤ — ٥) .

الدين الفاروني وجماعة . وذكر من مصادره أيضاً كتاب المغازي لابي عبد الله القرشي . وكتاب الطبقات الكبير لابن سعد . ومارواه عن الطبراني وأبي يعلى الموصلي وأبي بشر الدولابي وأبي عروبة الحراني بأسانيدذ كرها . ومن مصادره ايضا معجم أبي الحسين الغساني .

ومن مصادره : الدرر في اختصار المغازي والسير لابن عبد البر . وكتاب الانساب للرشاطي والشفا للقاضي عياض والروض الانف للسهيلي . وطرركتبها الشلوبين على هامش السيرة الهشامية على نسخة بخط جده ابي بكر .

وهذه الكتب والتعليقات جميعاً أندلسية .

وقد تحدث الدكتور شوقي ضيف في مقدمة (الدرر) عن استفادة ابن سيد الناس من كتاب ابن عبد البر ، قال : ولعل أهم من خلفوا ابن عبد البر افادة من سيرته ابن سيد الناس (ت ٧٣٤) فقد جعلها نصب عينيه في سيرته النبوية المطولة التي سماها عيون الاثر في فنون المغازي والشمائل والسير . وفيها ينقل فصولا وفقرا كثيرة عن ابن عبد البر مصرحا باسمه غالبا وقد راجعه كثيرا في أسماء الاعلام وفي جوانب مختلفة من مادة سيرته وآرائه أو كتابه . وقال د ضيف في مكان آخر : وقد كثرت نقول ان سيد الناس عن سيرة ابن عبد البر كثرة مفرطة(٧٦) ، ودائما يرجع الى كتابه الاستيعاب في موازناته ومراجعاته . بل ان د. ضيف يرى ان سيرة ابن سيد الناس تحولت الى مايشبه نسخة من كتاب الدرر الخ .

وقد أثنى معاصرو ابن سيد الناس على كتابه ، وشاع في الناس . وكان يكثر من كتابه بخطه . وكان في جملة مرويات شيخ الاسلام زكريا الانصاري من كتب السيرة ، كما ذكر في فهرسة شيوخه (٧٧) وقد عني بها جماعة اختصارا ، وقظما وشرحا مما يطول التفصيل فيه ، في هذا المقام .

واختصر المؤلف كتابه (عيون الاثر) بمختصر لطيف سماه نور العيون في تلخيص سيرة الامين المأمون . وقال في مقدمته : لما وضعت كتابي المسمى عيون الاثر في فنون المغازي والسير ★ ممتعا في بابه مغنيا عما سواه لقاصدي هذا العلم وطلابه رأيت أن الخص في هذه الاوراق منه ماقرب مأخذه ونقله وسهل تناوله وحمله ليكون للمبتدىء تبصرة والمنتهي تذكرة وسميته « نور العيون في تلخيص سيرة الامين والمأمون » .

ونور العيون ملخص سريع ، شاف ، على ترتيب وقائع السيرة النبوية بأسلوب مقبول ، وعرض دقيق .

أبو القاسم السهيلي★ ٥٠٨ — ٥٨١

هو أبو القاسم ، وأبو زيد ، عبد الرحمن بن عبد الله ... بن فتوح وهو الداخل الى الاندلس ، السهيلي الخثعمي . مولده بقرية سهيل من اعمال

(★) طبع كتاب عيون الاثر بعناية الاستاذ حسام الدين القدسي معتمدا على اصول جيدة ومعاونة (راجع مقدمته) سنة ١٣٥٦ هـ . وطبع كتاب نور العيون سنة ١٣٥٤ هـ بعناية رضوان محمد رضوان . طبع كلاهما في القاهرة .

(★) ترجم له الضبي في بغية الملتمس ٣٥٤ . وابن دحية في المطرب ٢٣٠ . وابن سعيد في المغرب ١ : ٤٤٨ . وابن خلكان في الوفيات ٢ : ٣٢٣ وابن فرحون في الديباج ١٥٠ وابن ثغري بردي في النجوم الزاهرة ٦ : ١٠٠ وابن العماد في الشذرات ٤ : ٢٧١ والصفدي في نكت الهميان ١٨٧ وصفوان بن ادريس في زاد المسافر : ٩٦ .

مالقة ونشأ بمالقة ، وتعلم ، وظهر • وسمع من كثير من أهلها ورحل الى اشبيلية فلزم القاضي أبا بكر ابن العربي وأخذ عنه كثيرا من الحديث والاصول والتفسير ، وسمع من غيره من مشاهير أهل اشبيلية • وبرع في علوم القرآن والحديث والنحو والصرف واللغة والادب •

كان مولده سنة ثمان وخمس مائة ووفاته سنة احدى وثمانين فيمدينة مراكش وله الابيات المشهورة:

يا من يرى مافي الضمير ويسمع
أنت المعد لكل ما يتوقع

قال تلميذه ابن دحية ، في الطرب[٧٨]: وتصانيفه كثيرة فمذهبتها : كتاب « الروض الأنف والمشرع الروى في تفسير ما اشتمل عليه حديث رسول الله ﷺ واحتوى » • وله أيضاً : « التعريف والاعلام فيما أبهم في القرآن من الاسماء الاعلام » • قال ابن دحية وسمعت عليه مسألة رؤية الله تعالى في المنام ورؤية النبي ﷺ •

ومن كتبه (نتائج الفكر) ، وغيره •

قال ابن خلكان : وأشعاره كثيرة ، وتصانيفه ممتعة • وكان ببلاده يتسوغ بالعفاف ويتبلغ بالكفاف حتى نمي خبره الى صاحب مراكش (الامير الموحدي) فطلبه اليها وأحسن اليه وأقبل اليه بوجهه غاية الاقبال، وأقام بها نحو ثلاثة أعوام •

وبمراكش كانت وفاته •

وذكر الرعيني في برنامجه عددا من الذين رووا عن السهيلي كتابه الروض الانف من الاعلام (أنظر مثلا ص ٥٢ وغيرها) •

كان كتاب الروض الأنف من الكتب الذائعة أيام المؤلف ، وبه اشتهر دون غيره من الكتب والمؤلفات ، وقد رواه عنه جماعة من تلامذته في الأندلس والمغرب• وكتب للروض الأنف السيرورة بعد مؤلفه ، الى زماننا هذا ، قال بالنثيا في تاريخ الفكر الأندلسي (٣٩٨) وممن اشتهر بالتحقق فيعلوم الحديث عبد الرحمن ابن عبد الله السهيلي : وكان عالما بالقراءات واللغات والعربية وضروب الآداب ، حافظا للسير والأخبار والأنساب إماما في الحفظ والذكر والادراك ، مقدما في الفهم والفطنة والذكاء ، له حظ وافر من قرض الشعر والتصرف في فنون من العلم يغلب عليه علم العربية والغريب وأشهر كتبه الروض الأنف في شرح السيرة لابن إسحاق • وهو أجل تواليفه ، دل به على سعة حفظه ومتانة علمه •

وذكر السهيلي في مقدمة الروض الأنف انه يشرح سيرة ابن إسحاق برواية ابن هشام ، وذكر طرقه في روايتها ، وأنه بدأ الشرح إملاء في محرم سنة ٥٦٩ وفرغ منه في جمادى الاولى من ذلك العام •

وقد أفاد في كتابه قارئه من : فوائد العلوم والآداب وأسماء الرجال والأنساب ومن الفقه والنحو والاعراب ، مما استخرجه من عشرين ومئة كتاب ، قال: هذا « سوى ماأنتجه صدري ونفحه فكري وتنتجه نظري ولقنته عن مشيختي من نكت علمية لم أسبق اليها ولم أزحم عليها ••• مع أني قللت الفضول وشذبت أطراف الفصول[٧٩] •

ويمكن إيجاز عمله بخمسة أمور ، العناية باللفظ الغريب ، وشرح الكلام المستغلق ، وإعراب الغامض ، والحديث في بيان النسب وتتمة الأخبار الناقصة[٨٠] •

وقد ذكر السهيلي في كتابه أسماء بعض مصادره وأغفل كثيرا منها • ومما ذكره تفسير بقي بن مخلد ، وبعض كتب ابن العربي ، وأبي علي القالي وابن دريد وأبي الفرج الأصفهاني ••• الخ •

والكتاب مرجع ضخم ، هام لإيضاح مسائل من السيرة ويشرح كثير من غريبها ومعاني أشعارها ، ولاضافة فوائد مختلفة قيّمة في النسب واللغة والنحو والأدب والخبر .

وقد طبع « الروض الأنف » بهذا العنوان (قابل بما قاله ابن دحية من عنوان الكتاب) . وطبع بهامشه سيرة ابن هشام في جزأين ١٣٣٢ هـ / ١٩١٤ م . بالقاهرة .

أبو ذر الخشني(★) ٥٣٣ — ٦٠٤ هـ

هو أبو ذر مصعب بن أبي بكر محمد (المعروف بابن أبي رُكَب) بن مسعود بن عبد الله بن مسعود الخشني ، قال مؤلف الذخيرة السنية [٨١] : الأستاذ المقرىء النحوي الجليل القدر . أصله من جيّان (بالأندلس) روى عن أبيه وعن أبي بكر بن طاهر ، وتجوّل بالعدوة والأندلس ، وطلب العلم واعتنى به وقيّد . وروى بفاس عن جماعة ... وروى بقرطبة عن ابن بشكوال وغيره ، وروى ببجاية عن عبد الحق الأزدي الاشبيلي وكتب اليه الإمام أبو الطاهر السلفي وأبو محمد الدبّاجي .

قال « وكان رحمه الله أحد الأئمة المتقدمين ضبطا وتقييدا ، وأحد المعتمد عليهم في علم اللغة والآداب ، اماماً في العربية ، عالماً بكتاب سيبويه » . ووصفه بالفضل والدين والورع .

وأقرأ أبو ذر الخشني ببلده جيّان ، وببجاية وإشبيلية وفاس وبها استقر الى أن توفي سنة ٦٠٤ . وقد تولى الخطبة بجامع إشبيلية مدة ، وكان يقرىء العربية بها أيضاً . وولي القضاء للمنصور الموحدي ببلدة جيان . ونقل في الذخيرة أيضا أن الإمام الحافظ المزدغي كان يقدمه في العربية وفي علم الحديث ويقول: كتابان لا يُحسن أحد أن يمسكهما في يده مع أبي ذر: وهما مسلم (الصحيح) والسّير ، يعني في الضبط والتقييد ، وكان مع ذلك راوياً لكتب كثيرة في فنون شتى من العلم .

وله إملاء" حسن على كتاب السّير .
وله شعر رائق في فنون شتى .

وترجم له ابن الابار في التكملة ، وذكر أنه سمع عن علماء (سمّاهم) بجيان وتلمسان وبجاية وفاس ، قال وكان رئيساً في صناعة العربية عالماً بها قائماً عليها درّسها حياته كلها ورحل الناس اليه فيها مع المعرفة بالآداب واللغات والأخذ بحظ من قرض الشعر .

وكان أبو بكر محمد من علماء الأندلس ومحدّثيها، وله فهرسة (برنامج) جمعه ابنه مصعب (أبو ذرّ) ، ذكر ذلك أستاذنا الدكتور عبد العزيز الأهواني في مقدمته على برنامج ابن أبي الربيع (صفحة ١١) .

شرحه على السّيرة : كان أبو ذر الخشني كما تذكر

(★) ترجم له ابن الابار في التكملة (طبعة مصر ٢ / ٧٠٠) وصاحب الذخيرة السنية ٤٢ ، وابو بحر صفوان في زاد المسافر ١٤٧ . وانظر برنامج شيوخ الرعيني صفحة ٤٥ ، وبرنامج ابن ابي الربيع صفحة ١١ . وترجم له ابن سعيد في المغرب ٢ : ٥٥ والسيوطي في البغية ٢ : ٢٨٧ وابن سعيد في الرايات ١٠٣ وابن العماد في الشذرات ٥ : ١٤ .

وترجم الضبي لابيه ابي بكر صفحة ١٢١ . وياقوت في معجم الادباء ٥٤/١٩ .

والسيوطي في بغية الوعاة ١ : ٢٤٤ وتوفي ابوه (ابو بكر) سنة ٥٤٤ .

الكتب القليلة التي ترجمت له بارعاً في اللغة وعلومها ، كما يذكر ابن الأبار أنه قد بعد صيته في الإقراء والتدريس • وكان على خطة فذة في التدريس « فقد منع تلاميذه التبسّط في السؤالات وقصرهم على مايُلقى اليهم دون استزادة ، ولم يكن ذلك لأحد من أهل عصره ! »[٨٢] •

وقال ابن الأبار أيضا : وله تأليف في شرح غريب السير لابن إسحاق ، وتأليف صغير في العروض •

وقال السيوطي : من تصانيفه : الإملاء على سيرة ابن هشام • وقد طبع الكتاب بعنوان : (شرح السيرة النبوية رواية ابن هشام على صاحبها أفضل الصلاة والسلام) ، وذلك سنة ١٣٢٩ هـ بمصر • استخرجه وصححه بولس برونله •

ونقرأ في مقدمة المؤلف : هذا إملاء أمليته من حفظي بلفظي على سيرة رسول الله ﷺ التي تقدم محمد بن إسحاق الى جمعها وتلخيصها أوان سمع هذا الكتاب مني ، وقيدت رواياته بطرقها عني ، قصدت فيه شرح ما استبهم من غريبه ومعانيه وإيضاح ما التبس تقييده على حامله وراويه ، مع اختصار لايخل وإيجاز يتم به البيان ويستقل ، لم يقصد فيه قصد التأليف فتمد أطنابه ولا ينحو به نحو التصنيف فتمهد فصوله وأبوابه ، وإنما هي عجالة الخاطر وغنية الناظر •

ثم عرض عليّ هذا الإملاء بعد كماله فتصفحته ، ورُغب في حمله عنّي فبعد لأي ماأذنت في ذلك وأبحته •

والله تعالى ينفعنا بما قصدناه ويجزل ثوابنا على ما ابتغيناه وتوخيناه ••• الخ » •

ويظهر طابع الإملاء على الكتاب ، وكان مبيّض الكتاب (أو جامعوه) يحرص على عبارة « حدثنا الشيخ الفقيه أبو ذرّ » مرّة بعد مرّة من أول الكتاب الى آخره •

وقد جعله الناشر في جزأين • غير أن المؤلف قسم كتابه على عشرين جزءا ، وأثبت الناشر تجزئة المؤلف، فقد كان ينص على نهاية الجزء وبداية الذي يليه •

وشرح أبي ذر الخشني على السيرة يهتم بشرح الغريب من اللغات والأسماء والأعلام • وشرح العويص من الشعر الذي ذكره ابن اسحاق • وإضافة ايضاحات من العربية والنحو والصرف وما يتعلق بذلك • وكان ينسب الأبيات أو ينبه على روايات في نسبتها •

وكان يذكر أحيانا بعض المصادر وأسماء بعض المؤلفين مثل قاسم بن ثابت صاحب الدلائل والخطّابي، والوقّشي ، وتفسير ابن هشام لغريب السيرة والنقّاش، وابن عبد البر القرطبي ، وموسى بن عقبة ••• الخ

وكان يرجع الى كتب التفسير والقراءات والأنساب، ويصحح بعض الأنساب (صفحة ٩٩ مثلاً) ، وينقل عن كتب السُنن والسِّير لإيضاح النص أو معارضته أو ايراد روايات أخرى • (انظر مثلاً ٢٣٦) •

وربّما نقل عن شيوخه مغفلا الاسم ، وقد يذكره (راجع مثلاً ١٢٦) •

ولا شك في أن أباذر الخشني كان يرجع الى روايات السيرة ، سوى رواية ابن هشام ، والى الكتب المعتمدة في السنن والسير ، وأن التراث الأندلسي بخاصة كان تحت يده أو في المرويّ المحفوظ ، كما مرّ مثلاً من ذكر قاسم بن ثابت والوقشي وابن عبد البر وغيرهم بالإضافة الى شيوخه الذين عاصرهم وأخذ عنهم •

وكتاب أبي ذرّ ، يدل على علم غزير واطلاع

واسع ومعرفة بفنون اللغات والآداب والأخبار والأنساب والسّير ، وعرف له معاصروه هذه الخصائص فقدموه وأخذوا عنه .

وبعــد

فهذا ماتيسّر الحديث فيه من (السيرة النبوية في التراث الأندلسي) قصــدت فيه الى رســم الخطوط العريضة ، وإثارة الانتباه الى أهمية الموضوع ، وأن أُصيب من المعلومات ، والاضافة ، والتحليل ، ماتطيقه مقالة في مجلة ، وما أستطيعه من النظر في الكتــاب المطبوع الممكن الرجوع اليه على وجه .

وآمل أن أتابع هذا الموضوع باستيعاب ، وتفصيل وزيادة تحليل ، أو أن ينهضَ به مهتم بالتراث الأندلسي ، محبٌ له .

والحمد لله رب العالمين .

□ □

حواشٍ واحالات :

(١) فهرسة ابن خير الاشبيلي — الطبعة الثانية — بيروت ١٣٨٢ هـ — ١٩٦٣ م راجــع مثلا صفحة ١١٠ ، ١٥١ ، ٢٣٠ ، ٢٣٨ ، وغيرها . وانظر في المسارد مواد : الاعــلام والسيرة والشمائل والفتوح ، والمغازي ..

(٢) الجذوة ٣٥٤ وبغية الملتمس ٤٨٨ .

(٣) برنامج شيوخ الرعيني دمشق صفحة ١٧٢ .

(٤) المصدر نفسه ٥٢ .

(٥) المصدر نفسه ٦٠ .

(٦) المصدر نفسه ١٤٢ .

(٧) المصدر نفسه ٤٥ .

(٨) المصدر نفسه ١٤٨ .

(٩) برنامج ابن أبي الربيع ٤٧ .

(١٠) المصدر السابق .

(١١) مقدمة التحقيق كتاب الدرر للدكتور شوقي ضيف .

(١٢) الاكتفا للكلاعي ٥٥ طبعة اوربة . وقد بقيت منــه قطع في لندن ومدريد .

(١٣) عيون الاثر ٢ : ٣٤٧ .

(١٤) نفح الطيب ٥ : ٤١٤ .

(١٥) الذيل والتكملة ٢/٥ : ٢٧٨ .

(١٦) الذيل والتكملة ١ : ٣٥٦ .

(١٧) نفح الطيب ٢ : ٢٠٧ .

(١٨) عنوان الدراية ٢٢٨ .

(١٩) نفح الطيب ٦ : ١٤٥

(٢٠) الذيل والتكملة ٥٢١/٢ .

(٢١) عنوان الدراية ٢٢٨ .

(٢٢) نفح ٢ : ٥٩٩ والذيل والتكملة ٢ : ٥٢١ .

(٢٣) عيون الاثر ٢ : ٣٤٧ .

(٢٤) طبقات اللغويين والنحويين للزبيدي ٢٢٩ .

(٢٥) تاريخ الفكر الاندلسي ٣٨٩ .

(٢٦) طبقات الزبيدي ٢٢٩ .

(٢٧) الذيل والتكملة ١/١ : ٣٥٦ .

(٢٨) المصدر نفسه ٢/١ : ٥٢١ .

(٢٩) الاعلام للزركلي ٧ : ٢٦٣ .

(٣٠) فهرسة ابن خير ٤٢٠ .

(٣١) برنامج شيوخ الرعيني ١٦٩ .

(٣٢) جذوة المقتبس ٣٤٦ .

(٣٣) الصلة لابن بشكوال .

(٣٤) المغرب ٢ : ٤٠٧ .

(٣٥) جذوة المقتبس ٣٤٥ .

(٣٦) وفيات الاعيان ٦ : ٦٩ .

(٣٧) الجدوه ٣٤٤ .
(٣٨) طبع بعنوان بهجة المجالس وانس المجالس وشحذ الذاهن والهاجس .
(٣٩) يعني كتاب الاستيعاب في معرفة الاصحاب .
(٤٠) الدرر ٢٩ .
(٤١) مقدمة تحقيق الدرر : ١٣ .
(٤٢) المصدر نفسه . (٤٢ مكرر) حقق الدكتور سهيل زكار قطعتين هامتين من سيرة ابن اسحاق برواية ابن بكير وطبعه في دار الفكر (بيروت ١٩٧٨) بعنوان كتاب السير والمغازي .
(٤٣) مقدمة الدرر ٩ .
(٤٤) راجع المقدمة .
(٤٥) النفح ١ : ٣٣٧ .
(٤٦) عصر سيادة قرطبة ٣١٨ . (٤٦ مكرر) المصدر نفسه .
(٤٧) جذوة المقتبس ٤٧ .
(٤٨) انظر مثلا ٥ ــ ١٤ من جوامع السيرة .
(٤٩) مقدمة جوامع السيرة : ٥ .
(٥٠) الفصل ٢ : ٩٠ ، وراجع المقدمة صفحة ٦ .
(٥١) مقدمة الدرر : ١٥ .
(٥٢) تاريخ الفكر الاندلسي ٣٩٧ ــ ٣٩٨ .
(٥٣) التعريف بالقاضي عياض لولده أبي عبد الله محمد .
(٥٤) التعريف بالقاضي عياض ٢ ــ ٥ .
(٥٥) التعريف .
(٥٦) نقل القاضي النباهي في المرقبة ان القاضي (عياض) سكن بمالقة مدة وتمول بها املاكا .
(٥٧) الشفا ١ : ٤ ــ ٥ .
(٥٨) الشفا : ٢٠٤ .
(٥٩) الشفا ٢ : ٣٤٤ .
(٦٠) المرقبة ١١٩ .
(٦١) الذيل والتكملة ٤ : ٨٣ ــ ٨٤ .
(٦٢) الذيل والتكملة ٤ : ٨٥ .
(٦٣) الذيل ٤ : ٨٩ .
(٦٤) الروض المعطار ٤١ ونفح الطيب ٤ : ٤٧٣ ــ ٤٧٤ .
(٦٥) الاكتفا ١ : ٥٠ .
(٦٦) الاكتفا ١ : ٥٢ .
(٦٧) الاكتفا ١ : ٥٣ .
(٦٨) الاكتفا ١ : ٥٥ .
(٦٩) الاكتفا « ط الخانجي بمصر » ــ مقدمة المحقق .
(٧٠) تاريخ الفكر ٢٣٨ .
(٧١) الوافي بالوفيات ١ : ٢٩١ .
(٧٢) المرجع نفسه .
(٧٣) ذكر سركيس في معجمه أنه طبع قسم من الكتاب .
(٧٤) عيون الاثر ١ : ٦ .
(٧٥) عيون ١ : ٧ .
(٧٦) عيون ٢ : ٣٤٢ .
(٧٦) مكرر ــ الدرر : مقدمة : ١٧ ــ ١٨ .
(٧٧) الورقة ٣٤ .
(٧٨) المطرب ٢٣٦ .
(٧٩) الروض الانف ١ : ٣ .
(٨٠) المرجع نفسه .
(٨١) صفحة ٤٢ .
(٨٢) التكملة لابن الابار ٢ : ٧٠٢ .

الأثر العربي الشرقي في القانون الروماني - اللاتيني

المحامي أحمد غسان سبانو

على أرض الوطن العربي كان فجر الانسانية ، وأول حضارة عرفها العالم تلك الحضارة التي هي بحق أم الحضارات العالمية . انها حضارة عربيةسامية بدأتمعفجر الانسانية واستمرت دون انقطاع حتى هذا العصر وستبقى مستمرة ما دام على هذا الكوكب نبضة حياة .

ان حضارتنا العربية العريقة تعود الى آلاف السنين الغابرة الا ان دراستنا لتاريخ حضارتنا ما زال في بدايته وقد سبقنا الى هذه الدراسة علماء الغرب فألفوا ووضوا النظريات والتفسريات بما يرضي هواهم فقسموا حضارتنا ، وقربوا بعضها وأبعدوا بعضها ، هنا حضارات سامية ، وهنا غير سامية، هنا حضارة تعود لاقوام هاجرت من الجزيرة العربية ، وهنا أقوام لا نعرف أصلهم وفصلهم ، وهدفهم في ذلك واضح ومعلوم .

من ذلك كانت نظرتنا للتراث متضاربة مختلفة ، فبعضنا يعتبر تراثنا هو التراث العربي الاسلامي ، وبعضهم يعيده للوراء قليلا أو كثيرا ، بعضهم يقول قد انقطعت صلتنا بالماضي ، فنحن والقدماء علىفراق . الا أن الحقيقة والواقع أن حضارتنا واحدة ومنشأنا بالاصل واحد . عالمنا العربي وشعبنا واحد ، واباؤنا مهما قسموا أو بعدوا ، هم سكان أرضنا العربية ، وتراثهم تراثنا .

الا أن اضاعتنا لتلك الفترات القديمة والمتوسطة القدم في تاريخنا باعد بين التراث مما أوجب علينا البحث والتقصي لنعيد الحق الى نصابه ولنحفظ تراثنا المهدد بالضياع . ولتعرف جماهيرنا صفحات مشرقة من تاريخنا الذي ضمته متاحف ومعاهد التراث الاجنبية ومكتبات الغرب .

من هذه الصفحات ندرس الآن الأثر العربي الشرقي في أهم منجزات الرومان الحضارية ولعلها الوحيدة الا وهي المنجزات القانونية الرومانية لنعرف حقيقة « رومنتها » وتأثير أجدادنا العرب فيها .

تسهل دراسة روما والشعب الروماني لوضوح التأسيس ووضوح التأثير الاجنبي ، ووضوح التكوين .

فلقد نشأت مدينة روما من اتحاد قبائل

من المهاجرين الهندو ـ أوربيين الذين تجمعوا بين نهر « التيبر » ونابولي وسموا باسم اللاتينيين وجاوروا قبائل السابيفيين والاومبريين وقد اتحدوا فيما بينهم وانشأوا مدينة البالونكا عند سفح جبل « آلبان » وعلى بعد عشرين ميلا منها للشمال العربي انشأوا مدينة لاغراض دفاعية في ٢١/٤/ ٧٥٤ ق٠م على تل البالاتان وأتسعت هذه المدينة فشملت سبعة تلال أشهرها « البالاتان » و « الكابيتول » و « الكيرينال » و « الآفانتان » ٠ هذه المدينة الدفاعية دعيت روما ٠

وكان لهذه المدينةالحظ الوافر فاصبحت هي المركز الرئيسي لشعب اللاتين ٠ وقد تطورت المدينة لتصبح مملكة وبقيت كذلك حتى عام ٥٠٩ ق ٠ م حيث قام النظام الجمهوري الذي بقي حتى عام ٢٧ قبل الميلاد حين اعتلى الحكم في روما « أوغوست » بعد أن انهى حكومة القناصل ٠ وقد مرت الحقوق الرومانية خلال تاريخها في أربعة عهود وهي :

١ ـ عهد نشأة الحقوق ويبتدىء منذ بناء روما عام ٧٥٤ ق ٠ م وحتى سقوط الملكية عام ٥٠٩ ق ٠ م وفي هذا الدور كانت الاعراف والعادات هي التي تحكم وتنظم أمور الناس وما لبثت تلك الاعراف والعادات ان شكلت قواعد قانونية بقيت بايدي رجال الدين ٠

٢ ـ عهد الحقوق الرومانية القديمة : منذ أوائل العهدالجمهوري حتى بدء العصرالأمبرطوري (٥٠٩ ق٠م ـ ١٥٠ ق٠م) ٠

وبهذا العهد توسع الرومان في فتوحاتهم وخالطوا الشعوب المجاورة من يونان وكريت وفينيقيين وكل هذه الشعوب كان للعرب والفينيقيين خصوصاً أثر كبير على حضاراتهم ٠

وبهذا الدور نشأت أقدم النصوص الحقوقية المكتوبة ومنها الالواح الاثنا عشرية عام ٤٤٩ ق ٠ م وكانت الحقوق الرومانية تطبق على الرومانيين ٠ وكان القانون المحلي هو الذي يحكم الشعوب المجاورة والتي أصبحت مع الأيام مستعمرات رومانية ٠ ونتيجة اختلاط الحقوق الرومانية مع أنظمة الحقوق لدى الشعوب الاخرى جرى تطور كبير في الحقوق الرومانية جعلها تبتعد عن البدائية والشكلية وأصبحت أكثر قدرة على استيعاب المسائل المستجدة والمتطورة للمظاهر الحضارية ٠

الا ان السمة الظاهرة هي أن الرومان لم يقوموا بالنقل الحرفي للقانون الاجنبي ٠ بل طوروا مؤسساتهم الحكومية بما يتماشى مع ظروفهم الحضارية ٠

٣ ـ العهد العلمي من عام ١٥٠ ق٠م وحتى عام ٣٠٣ ب ٠ م في عهد الامبرطور قسطنطين وهو أزهى العهود الحقوقية الرومانية وبه ظهر أعظم فقهاء الرومان « فقهاء العهد العلمي » وهم جميعا من أصل فينيقي عربي وأثارهم هي التي سميت فيما بعد « مدونة جوستنيان » كما سنرى ٠

٤ ـ عهد الامبرطورية العظمى (٣٠٣ ـ ٥٦٥ م) من عهد الامبرطور قسطنطين الى موت الامبرطور جوستنيان ولم يكن للابداع دور في هذا العهد بل كانت سمته النقل والتحشية على مؤلفات العهد العلمي ، ولكن في هذا الدور اكتمل التجميع القانوني للمؤلفات والدساتير في مجموعات وصلت

الينا وتبناها نابليون وأخذتها أسرة الحقوق اللاتينية التي تعتمد حقوق نابليون كأساس في قوانينها ·

فما هي هذه المجموعات ؟

يطلق أسم مدونة جستنيان عادة على ثلاث مجموعات هي كما يلي :

١ ـ مجموعة القوانين والدساتير الامبراطورية وهي تجميع لماصدر من قوانين ودساتير ·

٢ ـ الموسوعة وتشمل القانون القديم المتمثل في كتابات الفقهاء وهي التي تسمى القانون المدني ·

٣ ـ النظم : وهو مختصر للقانون المدني وهو بالاساس كتاب مدرسي لطلاب الحقوق ·

ولتبيان الأثر الشرقي العربي على مدونة جستنيان التي أصبحت مجموعة نابليون ، سندرس الأصول التي استقت منها مدونة جستنيان مصادرها · ثم ندرس طريقة تجميع هذه النصوص وأخيرا ندرس كيف انتقلت الينا هذه النصوص ·

١ ـ المصادر التي أخذت عنها الحقوق الرومانية ومدونة جوستنيان ·

وهي مصادر الحقوق عامة :

١ ـ العرف والعادة وهو أساس القوانين وقد كان العرف والعادة بالاساس رومانيين بحتين الا انهما تطورا مع الفتوحات فأخذ عن اليونان وكريت وصقليا وبلاد العرب وذلك بتطور المحيط ونتيجة التجارة وتبادل العلماء والاسرى والعبيد والجيوش والسياح وسواهم ·

٢ ـ المراسيم والدساتير الامبراطورية والمراسيم والدساتير الصادرة عن حكام الاقاليم وهناك أثر كبير للشرقيين العرب في هذه الدساتير حتى ان صياغة عدد منها صدر بفعل أباطره عرب من أسرة الامبراطور سبتيم سيفر (١٩٣ ـ ٢١١) م الحمصية وأولاده كركلا (٢١١ ـ ٢١٧) وغيتا (٢١١ ـ ٢١٢) م وأكابالس (٢١٨ ـ ٢٢٢)م واسكندر سيفروس (٢٢٢ ـ ٢٣٥) م بعد ذلك جاء فيليب العربي · (٢٤٤ ـ ٢٤٩) من شهبا ·

كذلك كان قسم من المراسيم قد صدر من تأثير رؤساء الديوان الامبراطوري (أي ما يعادل رئيس الوزارة) أمثال بابنيان من حمص والبيان وبولس ومودستان من الساحل السوري ·

٣ ـ الفتاوي وهي استنباط الاحكام من النصوص الأساسية وقد مرت الفتوي بمراحل كالتالي :

آ ـ مرحلة اعطاء الفتاوي بشكل حر للجميع ·

ب ـ حصر الافتاء باصحاب الامتياز المعطى من الامبراطور ·

جـ ـ حصر الافتاء بمجلس استشاري برآسة الامبراطور ·

د ـ ظهور الفقهاء العلميين وظهور المدارس الفقهية ·

٤ ـ المؤلفات الحقوقية وقد وصلنا منها عدد محدود ويعود حصرا لفقهاء العصر العلمي السوريين وهم غايوس من الشمال السوري وبابنيان من حمص وبولس والبيان وتلميذه مودستان وهم جميعا من الساحل السوري ·

٥ ـ دور المدارس القانونية (الجامعات) التي كانت تقوم بالتدريس بمدة أربع سنوات أضيف اليها فيما بعد سنة خامسة وأهم هذه الجامعات معهد روما ومعهد « أثينا » ومعهد القسطنطينية ثم معهد بيروت ومعهد الاسكندرية ومعهد القيصرية والثلاث الاخيرات عربيات المنشأ والأقليم ٠

٦ ـ دور المحاكم وقرارت القضاء سواء ما يطبق منها الحقوق الرومانية أو ما يطبق القانون الاجنبي الأكثر تطوراً ٠

●● كيف وصلت الينا مدونة جوستنيان ؟

وهذا يقتضي البحث في تطور الحقوق الرومانية حتى أصبحت باسم مدونة جوستنيان أي كيف تشكلت مدونة جوستنيان ؟

وبالتالي كيف أصبحت مدونة جوستنيان قانوناً فرنسيا ؟

وأخيراً كيف دخل القانون الفرنسي الى قوانين البلاد العربية وأصبح مطبقا فيها ؟

أولا : أصول مدونة جوستنيان ٠

كان أول تجميع وتدوين للحقوق الرومانية في عام ٤٤٩ ق ٠ م عندما ظهرت الالواح الاثنا عشرية ٠ الا ان التجميع والتدوين العلمي للقوانين والانظمة والدساتير الرومانية أنما تم عام ٢٩١ م بالشكل التالي مع ذكر أهم المجموعات :

١ ـ المجموعة الأولى المجموعة الجريجورية الصادرة عام (٢٩١) م في عهد دقلديانوس وسميت جريجورية نسبة لجامعها وقدضمت الدساتير من عهد هادريان الى عهد دقلديانوس مرتبة حسب تاريخ صدورها ٠

ب ـ المجموعة الهرمونية نسبة لجامعها هرموجنيان وكملت سابقتها وصدرت بعد عدة سنوات منها ٠

جـ ـ المجموعة النيودوزية نسبة الى الامبراطور نيودوز الثاني وصدرت عام (٤٣٨) م شاملة للدساتير من عهد قسطنطين حتى تاريخ صدورها ٠

د ـ مجموعة جيستنان وتضم ثلاث مجموعات :

١ ـ مجموعة القوانين ونظم الدساتير الامبراطورية وصدرت نهائيا عام ٩٢٩ م ٠

٢ ـ الموسوعة : وتشمل القانون القديم متمثلا بكتابات الفقهاء وصدرت عام ٥٣٣ م ٠

٣ ـ النظم : وهي مختصر القانون الروماني ووضعت بالاساس لغرض تدريسي ٠ وصدرت عام ٥٣٣ ٠

ثانيا : من جستنيان الى نابليون :

صدرت مدونة جستنيان في عهده وبقيت مطبقة حتى القرن الثامن الميلادي وفي عام ٧٤٠ وضع الامبراطور ليون باللغة الاغريقية مختار القوانين ٠ وفي القرن التاسع قام الامبراطور بازيل (٨٦٧ ـ ٨٧٩) م بوضع مجموعة سماها « الموجز في القوانين » ٠

وفي نهاية القرن التاسع وضع الامبراطور ليون السابع المجموعة « البازيليكية » التي طبقت حتى سقوط القسطنطينية بيد « فراك » عام ١٤٥٣ م ٠

وكل المجموعات المذكورة أخذت نصاً وروحاً عن مدونة جوستنيان وذلك في الامبراطورية الرومانية الشرقية (بعد الانقسام الى شرقية وغربية) أما في الامبراطورية الغربية فقد طبقت مدونة جوستنيان على فترات وخلال مناطق مختلفة وصدرت عليها هناك عدة تعديلات ٠

في أواخر القرن الحادي عشر قامت في أوربا حركة تهدف الى أحياء القانون الروماني وكان المركز الرئيسي لهذه الحركة مدينة بولونيا في ايطاليا وقد أسس هذه الحركة أرنويولس وافتتح مدرسة لتدريس مجموعات جستنيان التي كانت تسمي مجموعة القانون المدني وأخذ أرنويولس وبعض الفقهاء بشرح المدونة وتفسيرها ووضع الهوامش عليها وجمعت أعمالهم باسم «الحاشية الكبرى » التي أصدرها أكورسيوس (١١٨٢ – ١٢٢٠) م وعلى أعقاب هذه المدرسة ظهرت مدرسة المحشِّين اللامعين وعلى رأسها الفقية بارتول (١٣١٤ – ١٣٥٧) م ٠

وفي فرنسا وعلى يد الفقية كيجاسن (١٥٢٢ –١٥٩٠) بدأت الدراسة العلمية لمدونة جوستنيان٠

وظهرت حركة مماثلة في المانيا تزعمها الفقية ساقيني (١٧٧٩ – ١٨٦١) م وفي فرنسا كان هدف الحكومات الفرنسية توحيد القوانين المطبقة في فرنسا بمجموعات وقد عجزت الملكية عن تطبيق هذا الهدف كما وعجزت الجمهورية عن ذلك أيضاً الا أن نابليون في عهد القنصلية أصدر المجموعة النابليونية في ١٨٠٤/٣/٢٧ ٠ وذلك نقلا عن مدونة جستنيان ٠ وقد فرضتها فرنسا على الدول التي أستطاعت السيطرة عليها آنذاك وعرفت الحقوق الفرنسية بأسم الحقوق اللاتينية القانون اللاتيني في الدول العربية ٠

تعتبر مصر أولى الدول العربية التي طبقت الحقوق الفرنسية وقد كانت مصر تطبق الشريعة الاسلامية التي تعتبر مصدر التشريع ٠ وأخذت بعض القوانين الوضعية بالظهور اعتبارا من أول القرن التاسع عشر ٠

وظهر بالتالي القضاء المختلط والقوانين المختلفة التي أعدها أحد المحامين الفرنسيين المقيمين في مصر وأسمه « مونوري » من هذه القوانين القانون المدني المختلط الذي كان في حينه يعتبر ورقة رابحة للتخلص من الامتيازات الاجنبية ٠

ثم ظهرت المحاكم الأهلية التي تطبق الشريعة الاسلامية وإضافة لها القوانين الوضعية ٠ وتخلصاً من هذا الازدواج بين قانون مختلط وقانون أهلي وكذلك الامر بالنسبة للمحاكم فقد شكلت لجنة أعدت مشروعاً أخذت ثلاثة أرباعه من القوانين المصرية المختلطة والاهلية التي أساسهما القانون الفرنسي ٠ أما الربع الرابع فقد أخذ أحكامه من الشريعة الاسلامية السمحاء وطبق هذا المشروع كقانون عام ١٩٤٨ ٠

وفي سورية طبق القانون المصري بنصه وحرفيته عدا تبديل أسم الدولة وبعض التبديلات البسيطة الاخرى وصدر في سوريا ١٩٤٩ ٠ كذلك طبق في لبنان والعراق وليبيا وغيرها من الدول العربية ٠

الأثر العربي الشرقي في الحقوق الرومانية :

ويتجلى هذا الأمر في مصادر الحقوق الرومانية وفي متنها وفي طريقة تجميع هذه الحقوق ٠

١ – الأثر العربي الشرقي في مصادر الحقوق :

ففي العرف والعادة كان لاختلاط الرومان المباشر مع البلاد العربية وسوريا على الخصوص والمستعمرات الفينيقية القديمة أو الدول التي كان للفينيقيين والعرب عموماً تأثير مباشر عليها مثل اليونان وكريت وغيرها ونتيجة للحروب والاسرى والتجارة والسياحة وسواها كان التأثير العربي للعرف والعادة الرومانية ٠

أما في المراسيم فانها أيضا صادرة عن تأثير هذا الاختلاط المذكور ٠ وكنا قد ذكرنا ان هناك خمس أباطرة سوريين ولا أقل عن أربعة رؤساء دواوين (رؤساء وزارة) عرب سوريين حكموا روما واصدروا الكثير من المراسيم نذكر أسمائهم كما يلي :

الاباطرة : أسرة سيفير الحمصية وقد حكمت على الشكل التالي : سبتيم سيفر (١٩٣ – ٢١١) م كركلا (٢١١ – ٢١٧) وغيتا (٢١١ – ٢١٢) م وآكابالس (٢١٨ – ٢٢٢) م واسكندر سيفروس (٢٢٢ – ٢٣٥) م ٠

ثم جاء امبراطور آخر من أسرة سورية عربية من مدينة شهبا هو الامبرطور فيليب العربيالذي حكم ما بين عامي (٢٤٤ – ٢٤٩) م ٠

أما رؤساء الدواوين والحكام البرينوريين (القضائيين فنذكر منهم : بابنيان / وبولس / واولبيان / وموديستان / ٠

كما وان هناك الكثير من المراسيم التي صدرت تخص مفتين عرب نظمت الفتوى أو أعطت كتابات بعض المفتين أولوية في التطبيق نذكر من هذه المراسيم ما يلي :

١ – دستور قسطنطين الصادرة عام ٣٢١ م الذي أمر فيه بعدم الاعتداء بالحواشيالتي وضعها الفقهاء أولبيان وبولس على كتاب الفتاوي للفقيه بابنيان وكل من ذكر من أصلي عربي سوري ٠

٢ – دستور قسطنطين الصادرة عام ٣٢٧ م الذي يعطي لكتاب الاحكام للفقيه بولس قوة رسمية مطلقة ٠

٣ – قانون الاسانيد الصادرة عن تيودوز الثاني أمبراطور الشرق ٠ وفالنينيان الثالث امبراطور الغرب الصادرة عام ٤٢٦ م الذي نظم بموجبه طريقة الاعتماد على الافتاء ٠ فقد أعطى هذا القانون لكتابات كل من غايوس وبابنيان وبولس واولبيان وموديستان وهم جميعاً من العرب السوريين قوة القانون ٠ وقد نظم الاستدلال بآرائهم على الشكل التالي: اذا أجمع هؤلاء الفقهاء على رأي في مسألة معينة كان رأيهم ملزما للقاضي فان لم يجمعوا الزم القاضي بأخذ رأي الاكثرية وفي حال التساوي على القاضي الاخذ بالرأي الذي فيه الفقيه بابنيان ٠ فان لم يكن لبابنيان رأي كان للقاضي حرية اختيار ما يناسبه ٠

أثر العرب في الفتاوي :

وقد ذكرنا بعض هذه الأثار في البحث السابق ونضيف أن أهم كتب الفتاوي انما صدرت عن الفقهاء الخمسة (فقهاء العصر العلمي) المذكورين وهم عرب سوريين ٠ وسنرى ان مدونة جوستنان ان هي الا نتف من فتاوي الفقهاء كانت في معظمها لمفتين عرب سوريين ٠

أثر العرب في المدارس الحقوقية :

المدارس الحقوقية التي كانت معروفة في ذاك

العهد هي ست مدارس : روما والقسطنطينية وأثينا والقيصرية وبيروت والاسكندرية ٠ ونرى ان المدارس الثلاث الاخيرات مدارس شرقية علماً بأن أهم هذه المدارس وأكثرها أثرا على الحقوق الرومانية هي مدرسة بيروت وسنتحدث عنها فيما بعد ٠

المحاكم وقرارات القضاء :

ليس من السهل تتبع أثر العرب في هذا المصدر من مصادر الحقوق لتشعب الموضوع وكثرته وضياع الوثائق والمؤيدات التي تظهر هذا الأثر الا أن ما قلناه عن أثر الشرق في العرف والعادة في الحقوق الرومانية ينطبق هنا أيضاً ٠

وثمة تأثير آخر مهم لا بد من ذكره الا وهو أثر المؤلفات الحقوقية في الحقوق الرومانية ٠ولدينا قائمة بمؤلفات كثيرة لحقوقيين عرب وروماني ٠ الا اننا لا نعرف ولم يصلنا الا مؤلفات محدودة هي بكليتها لفقهاء الدور العلمي المذكورين ٠ وقد ذكر ان غايوس قد ألف كتاب النظم الذي وصلنا كاملا وان بابنيان ألف : (١٩) مؤلفاً في المناقشات القانونية و (٣٧) مؤلفاً في المسائل القانونية وله كتاب « الاسئلة » وكتاب « الاجوبه » وله أيضاً كتاب « الفتاوي » ٠

أما أولبيان فأهمكتبه كتابه المشهور «كتاب القواعد » وكتاب « الاستشهادات » ٠

وبولص ألف الكثير من المؤلفات الفقهية وخصوصاً تعليقاته على كتاب بابنيان وله كتاب « التقريرات المأثورة » ٠

ومودستان له مؤلفات في الحقوق كتبها باللغة اليونانية ٠

وأن أهم الكتب التي وصلتنا هي كما يلي :

١ ـ كتاب القواعد للفقيه أولبيان وقد وصل الينا بصورة مختصرةكما جاء وصفه له على لسان أحد كتّاب القرن الرابع الميلادي ووصل الينا أيضاً عن طريق مخطوط دوّن في نهاية القرن العاشر الميلادي ٠

٢ ـ كتاب النظم للفقيه كايوس السوري وقد وصل الينا كاملا مما يعد أصدق وأبرز مصدر علمي عن الحقوق الرومانية وقد عثر عليه باحدى كنائس فيرونا بايطاليا عام ١٨١٦ م ٠ وقد تبين ان الكتاب قد قشط وأزيل عن ورقاته وكتب فوق الاوراق كتاب آخر يتضمن نصوصاً دينية ٠ الا أنه تم اعادة النص الاساسي بعد معالجته بطرق كيميائية خاصة ، الا أن هناك بعض الصفحات الناقصة التي عوضت بما عثر من أوراق بردى بمصر تتضمن الصفحات الناقصة ٠

ويعتبر هذا الكتاب أقدم كتاب عن الحقوق الرومانية وصل الينا والتي كسفت بنورها شمس جميع ما تقدمها ولعل ذلك سر فقدان آثار من تقدمه من الفقهاء ٠

وقد جاء ترتيب هذا الكتاب كما ترتب كتب الفقه والقانون عندنا حاليا فيبدأ بالقواعد المتعلقة بالاشخاص ثم الأشياء فالاموال والدعاوي وقد أخذ عنه جوستنيان الترتيب ومعظم الاحكام في الكتاب الذي صدر عام ٥٣٣ بنفس الاسم ضمن مدونة جوستنيان ٠

٣ ـ كتاب الاحكام « سانتانس » للفقيه بول ولم يصل بصورته الاصلية بل بصورة مختصرة له عن طريق المجموعة القانونية التي وضعها الملك الاريك الثاني ملك القوط الغربي عام ٥٠٦ م ٠

٤ ـ الكتاب السوري الروماني : وهو من أكثر الكتب أثارة للجدل ... كما سنرى وقد صدر هذا الكتاب باللغة اليونانية ثم ترجم في القرن الخامس الميلادي الى السريانية ثم ترجم الى العربية في القرن الثامن الهجري وكان يتضمن بعض القواعد القانونية التي كانت مطبقة في سوريا في العهد الروماني ، اضافة الى القوانين الرومانية .

الأثر العربي والسوري في متن مدونة جوستنيان :

قلنا أن مدونة جستنيان تشتمل على ثلاث مجموعات الاولى : مجموعة القوانين والدساتير الامبراطورية وهي تشبه الجريدة الرسمية عندنا حاليا . والثانية الموسوعة وتشتمل القانون القديم وتتمثل في كتابات الفقهاء وهي التي تسمى القانون المدني . وأخيرا النظم وهو مختصر القانون المدني وهو بالاساس كتاب مدرسي لطلاب الحقوق .

أ ـ فالاثر العربي في مجموعة القوانين والدساتير بالطبع محدود وقد ذكرنا أن العرب شاركوا في القوانين والدساتير الرومانية سوا من ناحية اصدارها بصفتهم قد حكموا روما كأباطرة (أسرة سبيتم سيفر) وفيليب العربي « لمدة أكثر من خمسين سنة . أو من ناحية أخرى في مشاركة العرب بالحكم كرؤساء دواوين (وزارات) وكحكام بريتوريين أو كأعضاء في مجالس الاحكام وذكرنا عددا من الدساتير التي تخص العرب .

ب ـ أما أثر العرب في الموسوعة التي تحتوي على القانون القديم المتمثل في كتابات الفقهاء والتي أصبحت فيما بعد تعرف باسم القانون المدني والتي أخذ عنها نابليون وبالتالي القوانين المدنية الحالية لكثير من الدول الاجنبية والعربية .

فقد صدرت استنادا لاقوال ٣٨ فقيها وذلك على شكل فقرات (مواد) فكان مجموع فقرات المواد ٩١٢٤ فقرة وقد ذكر فيها أسماء للفقهاء بعدد (٣٦٦٥) مره . فكان حصة فقهاء العصر العلمي الخمسة العرب السوريين على الشكل التالي :

١ ـ غايوس أخذ منه ٥٣٦ فقرة وذكر فيها ٤ مرات .

٢ ـ بابنيان أخذ منه ٥٩٦ فقرة وذكر فيها ١٥٣ مرة .

٣ ـ أولبيان أخذ منه ٢٤٦١ فقرة وذكر فيها ٢٠ مرة .

٤ ـ بولس أخذ منه ٢٠٨٧ فقرة وذكر فيها ٤٥ مرة .

٥ ـ مودستين أخذ منه ٣٤٥ فقرة وذكر فيها ٢ مرة .

المجموع	٦٠٢٥	٢٢٤ مرة .
من أصل	٩١٢٤	٣٦٦٥ .

يضاف الى ذلك ما أخذ عن تلاميذ هؤلاء الفقهاء أو عمن اشتهر من مدرسة بيروت العربية .

ويبلغ عدد الفقرات التي أخذت منهم ١٣٢٩ فقرة فيكون المجموع (٧٣٥٤) فقرة .

وأهم الفقهاء المذكورين :

١ ـ سكتيوس بمبونيوس وأخذ منه ٥٥٨ قطعة .

٢ ـ كنتوس سرفيديوس شيفولا وأخذ منه ٣٠٧ قطعة .

٣ ـ كالمسترات وأخذ منه ١٠١ قطعة .

٤ ـ أريوس ميندر وأخذ منه ٦ قطع ٠

٥ ـ اليوس مرسيانوس وأخذ منه ٢٨٢ قطعة ٠

٦ ـ كالوديوس تريفونينوس وأخذ منه ٢١ قطعة ٠

٧ ـ ليسينوس روفينوس وأخذ منه ١٧ قطعة ٠

٨ ـ مبليوس ماسير وأخذ منه ٦٢ قطعة ٠

٩ ـ فلور نتينوس وأخذ منه ٤٢ قطعة ٠

مع ملاحظة ان الأسماء والفقرات مأخوذة عن بلمندو « مدونة جوستنيان » ترجمة المرحوم عبد العزيز فهمي « الملاحق » ٠

جـ ـ النظم أو المختصر وتتألف من أربعة كتب الاول مؤلف من ٢٦ باباً والثاني ٢٥ باباً والثالث ١٧ باباً والرابع ١٨ باباً وكل باب مقسم الى بنود ٠ وقد أخذت عن مؤلفات فقهاء العصر العلمي العربي، فكانت في معظم نصوصها منقولة عن كتاب النظم لكايوس وقد أخذت نفس خطة الكتابة من حيث التنظيم والتبويب ٠

ولقد ترجم هذا الكتاب الى العربية عن نص بلوندو من قبل المرحوم عبد العزيز فهمي ونشر عام ١٩٤٦ بأسم مدونة جستنيان ٠

الأثر العربي والشرقي في تجميع المدونة وتسجيلها:

أ ـ في مجموعة القوانين :

صدر الامر من الامبراطور جوستنيان بتاريخ ٥٢٨/٢/٣ بتشكيل لجنة برئاسة تريبونيان (وزير العدل) وهو خريج معهد بيروت وعضوية نيوفيل استاذ مدرسة القسطنطينية ومن استاذ معهد بيروت ليوليد ستوس ، وقد صدرت في ٥٢٩/٤/٧ ٠

ونظراً لوجود تضارب في ضمنها شكلت لجنة برئاسة وزير العدل تريبونيان والاستاذ دورنية استاذ معهد بيروت وثلاثة من المحامين ٠

ب ـ في الموسوعة :

وقد جمعت بعد تشكيل لجنة صدرت بدستور في عام ٥٣٠ واللجنة مؤلفة من وزير العدل المذكور وعضوية استاذين من معهد بيروت وهما دورنيه واناتوليوس واستاذين من مدرسة القسطنطينية هما نوفير وكرانيتو واحد عشر محاميا واحد كبار موظفي الدولة الذي كان استاذا سابقا لمدرسة بيروت وقد اتمت اللجنة عملها في عام٥٣٣وأرجعته الى ٨١ مؤلفا فقهيا ٠

النظم : المختصر للقانون الروماني :

وقد قام بوضعه لجنة ثلاثية مكونة من وزير العدل والاستاذ دورنيه استاذ مدرسة بيروت والاستاذ نيوفيل استاذ القسطنطينية وصدرت في عام ٥٣٣ ٠

ومن الفقهاء الذين عملوا في هذه اللجان كل من « استيفانوس » و « تلليلييوس » و « تيودور درموبوليس » و « سيريل » ٠

وقد لاحظنا الاشتراك الفعلي لاساتذة مدرسة بيروت للحقوق أو طلابها اشتراكا فعليا في جمع وتدوين مدونة جوستنيان ٠ وهؤلاء أما ان يكونوا عربا سوريين أو زائرين بيروت للدراسة فيها الا أنه لا يعرف بالضبط جنسيتهم ٠

وختاما للبحث نوجز نبذة عن حياة فقهاء العصر العلمي ولمحة عن مدرسة بيروت ٠

فقهاء العصر العلمي العرب :

وقد وصف بلوندو الفقهاء العرب الخمسة غايوس بابنيان وأولبيان وبولس ومودستان

فقال : « ان هؤلاء الاربعة وقبلهم قد تركوا آثارا حقوقية تكاد تكون المرجع الوحيد للحقوق الرومانية · وهي التي وصلت الينا تقريبا دون غيرها » · ويضيف واصفا حالة الفقه القانوني بعد زمانهم :

« فقد أعقبه ظلام حالك حدث فجأة وبدون أية فترة انتقال تتوسط الحالتين · فكان بابنيان وبولس واولبيان ومودستان اذ قضوا جروا معهم الى القبر سر علم الكلام ذلك العلم العجيب الذي يقول عنه الفيلسوف ليبنتز انه تكاد الدقة فيه لا تقل عن دقة المهندسين » ·

وبعد انتهاء عصر هؤلاء الفقهاء اضمحل دور الفقه في القانون الروماني فكان الفقيه بعدهم يقتصر بعمله على النقل والتحشية على مؤلفاتهم فقط ·

فمن هم هؤلاء الفقهاء ؟ :

١ ــ غايوس :

وهو أقدم الفقهاء الخمسة وقد جاء ذكره في دستور فالنتيان (قانون الاساتيد) الذي أشرنا اليه · وقد لمع نجم غايوس في فترة حكم الامبراطور مارك أوريل (١٦١ ــ ١٨١) م · ومعلوماتنا عن حياته قليلة جدا · وقيل ان أصله يعود للشمال السوري ولكن لا يمكن تحديد أصله بشكل دقيق جدا ·

وتعرف مؤلفاته بشكل جيد فله مدونته الخاصة التي تسمى (المختصر) وقد كانت رائجة لدى كافة طلاب الحقوق حتى وصلت الى جستنيان فكانت أساسا للجزء المسمى (النظم) وقد أمر جستنيان باعتبار هذا الجزء كتابا رسميا لتعليم الحقوق والفقه للشبان ·

وذكرنا كيف وصلنا كتاب غايوس هذا في الكتاب الذي قشط منه تأليف غايوس ودوّن بدلا عنه أدعية كنسية ولكن أمكن اعادة النص الاصلي بالطرق الكيميائية ·

٢ ــ أميل بابنيان او اميليوس بابنيانس :

ولد أميل بابنياس في مدينة حمص عام ١٤٢م وقتل عام ٢١٢ م وقد درس الحقوق في بيروت ثم أصبح استاذا في معهد بيروت للحقوق ·· ويعتبر بابنيان أشهر الفقهاء في العالم وفي كل العصور · وقد استدعي الى روما عام ١٩٨ م من قريبته « جوليادومنه » ، زوجة الامبراطور الحمصية « سبتيم سيفر » فكان حاكما قضائيا ثم رئيس مجلس الاحكام ورئيسا للديوان (للوزراء) ثم قائدا للحرس الامبراطوري ونائبا للامبراطور أثناء غيابه وكانت له رسالته في الدفاع عن الحق وعن العبيدلانهم أحرار برأيه بالفطرةواشتهر بالدفاع عن النساء لان لهن من الحقوق برأيه ما للرجال ·

وقد قتل بابنيان بأمر من الامبراطور كركلا (ابن سبتيم سيفر الذي قتل شقيقه الامبراطور غيتا عام ٢١٢ م) بفأس لان بابنيان رفض كتابة دفاع وتبرير لكركلا تبيح للاخير قتل أخيه دفاعا عن النفس وكان جوابه المشهور الذي سبب قتله « ان ارتكاب جريمة قتل الوالدين ايسر من تبريرها » ويعني تبرير قتل كركلا لاخيه وقال : « ان تبرير قتل النفس ليس اسهل من اقتراف القتل » ·

وقد وصف كركلا بأنه (قاتل أخيه وبابنيان) لشهرة « بابنيان » وعقب مقتل غيتا قام كركلا بقتل كل من له علاقة بأخيه فقتل ما يزيد عن عشرين ألفا من ذكور وأناث وقال المؤرخ جيبون

في هذا الخصوص «ذرف الاصدقاء والاسرات الدموع خفية على اعدام هؤلاء المواطنين ولكن اعدام بابنيان كان محزنا بوصفه كارثة عامة» ٠

وقد ألف بابنيان « ١٩ » مؤلفا في المناقشات القانونية و « ٣٧ » مؤلفا في المسائل القانونية ٠ وله كتابان مشهوران جدا هما « الأسئلة » و « الأجوبة » وقد كان كتابه « الأجوبة » مقررا في برامج السنة الثالثة في مدارس الحقوق الرومانية٠ كذلك له كتاب آخر لا يقل شهرة عن سابقيه وهو كتاب « الفتاوى » ٠

ويقول بلوندو عنه «ان التراث العظيم الذي تركه لم يتركه أي روماني فقيه آخر» ٠ وقد أدخل لا أقل من ٥٩٦ فقرة من كتاباته في موجز جستنيان وذكر فيه ١٥٣ مرة ٠ وقد لقبه الرومان بأمير الفقهاء وأكراما له أقيم تمثاله في مدخل قصر العدل الحالي بروما ٠

٣ ــ يوليوس بولس :

محام وفقيه عربي سوري من الساحل السوري وكان أستاذا في مدرسة بيروت للحقوق وزميلا وصديقا لبابنيان وقد استدعاه الاخير الى روما في عهد الامبراطور سبتيم سيفر وكان عضوا في مجلس الاحكام (من العدول أي الاعضاء) في عهد رئاسة بابنيان للمجلس وقد استلم عدة مناصب في روما ٠ ووصل الى منصب رئاسة مجلس الاحكام ٠

ترك كثيرا من المؤلفات وخصوصا تعليقاته وشروحه على مؤلفات بابنيان ٠ وقد رأينا انه صدر دستور بعدم الاعتداد بحواشيه المدونة على كتاب بابنيان ٠كذلك ألف كثيرا من كتب التقريرات والقواعد باسم « التقريرات المأثورة » وقد وصلت الينا هذه التقريرات ٠ وهو من المؤلفين الخمسة الذين ورد ذكرهم في قانون الاساتيد المذكور ٠

٤ ــ دومتيوس اولبيان :

وهو من ابناء صور في الساحل السوري وكان استاذا في معهد بيروت للحقوق واستدعاه بابنيان ليكون مساعدا له في روما واستلم منصب عضو في مجلس الاحكام ثم رئيسا له وبعد مقتل بابنيان استلم حاكما قضائيا ورئيسا للديوان (رئيس وزارة) وقد جرده الامبراطور السوري «آكابالس» خليفة « كركلا » من مهامه لكن الامبراطور اسكندر سيفروس أعاده مستشارا ٠

وقد أدخل أصلاحات كثيرة على القضاء ولكنها أثارت عليه نقمة بعض الجهات وكذلك قام باصلاحات في الجيش مما أثار عليه الجنود فدخلوا القصر الامبراطوري ليلا وقتلوه أمام الامبراطور اسكندر سيفروس ووالدته رغم حماية الامبراطور له ٠

ويؤخذ عليه اضطهاده للمسيحيين في عهده وأتهم بقتل فلافيانوس وكرستوس رئيس مجلس الاحكام ٠

وهو أكثر فقيه أخذ منه في كتاب الديجست (المختار أو الموجز) من مدونة جستنيان اذ أخذ منه ٢٤٦١ قطعة وذكر فيها ٢٠ مرة ٠

وقد كرمه الرومان بان اطلقوا أسمه على بازيليك وقصر عدل روما التي بنيت في عهد تراجان وبناها ابولودر الدمشقي ٠

كذلك كرمه الايطاليون بان وضعوا تمثاله على مدخل قصر العدل الحالي في روما جانب تمثال بابنيان ٠

٥ ــ هيرنيوس مود ستينوس : أو (مودستان):

وهو من أصدقاء وطلاب اولبيان ومن مدينة صور على الساحل السوري وقد درس الحقوق في بيروت وأصبح استاذا فيها واستدعاه اولبيان الى روما ليقوم بمساعدته في أعبائه هناك وذلك في عهد الامبراطور اسكندر سيفيروس ٠

له عدة مؤلفات كتب بعضها في اليونانية وقد ذكر في المدونة مرتين ومن آثاره أخذت ٣٤٥ قطعة ٠

معهد بيروت للحقوق :

برزت مدرسة بيروت للحقوق كأشهر مدرسة للحقوق الرومانية وأطول المدارس عمرا رغم انها لم تكن الوحيدة كما رأينا ويبدو أن سبتموس سيفروس الامبراطور الروماني من أصل سوري (١٩٣ ـ ٢١١ م) بدليل انهم قد خلدوا ذكره في بيروت بمعبد انشيء له ووضع داخل المعبد تمثال للامبراطور ٠ وقد شجع المدرسة خلفاء سبتموس السوريين ٠ وكانت اتجاهات المدرسة تصطبغ بالصبغة اليونانية أكثر منها رومانية عكس مدينة بيروت التي كانت رومانية أكثر منها يونانية ٠

لقد اجتذبت مدرسة بيروت الطلاب سواء العرب أو الاجانب وذلك من مختلف مناطق الامبراطورية ٠ ومن خريجي المدرسة كثير من الاباطرة ورؤساء الحرس الامبراطوري والحكام القضائيين ورؤساء الديوان (الوزارة) وكثير من الوزراء والعظام ٠

وكان لاساتذة المدرسة شهرة فائقة وتأثير وتأثير كبير في مؤلفاتهم على الحقوق الرومانية كما رأينا وهذا السبب هو الذي جعل من مدرسة بيروت للحقوق أكاديمية جامعية ذات شهرة عالمية ٠

وقد أطلق عليها الامبراطور جستنيان جامع المدونة (الأم المرضعة للحقوق الرومانية) ٠

كانت الدراسة في المدرسة لمدة أربع سنوات زادها الامبراطور جستنيان الى خمس سنوات لدراسة المزيد من الدساتير الرومانية ٠

وكان طلاب المدرسة معفيين من الخدمة العسكرية على ما يبدو من نص دستور صدر استنادا لطلب فتوى رسمي صادر عن أحد طلبة مدرسة بيروت للحقوق ٠ وكان الجواب ان الطلاب معفون من الخدمة العسكرية أو أي خدمة عامة الزامية قبل تخرجهم أو بلوغهم سن الـ ٢٥ ٠

ولدينا نصوص كثيرة حول حياة الطلاب في هذه المدرسة ٠ وقد كانت الدروس في النهار ، عدا ساعات الليل المخصصة لدراسة الطلاب وكانت المدرسة تعطل بعد ظهر يوم السبت وطوال يوم الاحد من كل اسبوع ٠

ويبدو أن الطلاب كانوا يشكلون جمعيات في المدرسة ٠ كما وان هناك الكثير من الحوادث الطريفة التي وقعت في المدرسة والتي ذكرتها النصوص التاريخية وكثيرين من طلاب المدرسة كانت لهم شهرتهم وقد ورد ذكر بعضهم في هذا البحث ، وذلك على مختلف مراحل تاريخ المدرسة٠

وقد قضى زلزال حدث في ٥٥١/٦/٦١ م على المدرسة وهدمها فوق طلابها وأساتذتها كما هدم مدينة بيروت وكانت ضحية الزلزال ثلاثين الف شخص من سكان بيروت ومنهم عدد كبير من الطلاب الاجانب ابناء الاسر النبيلة ٠

الا أن تهدم المدرسة لم يوقف نشاط المدرسة فنقلت الدراسة الى مدينة صيدا ريثما يتم بناء الجامعة من جديد ولكن حدثت كارثة قبيل تدشين أبنية الجامعة الجديدة في عام ٥٦٠ م اذ التهمت النيران البناء بأكمله • وبعد هذا لم نعد نسمع أي خبر عن مدرسة أو معهد بيروت للحقوق •

بعد هذا الاستعراض للاثر الشرقي والعربي على الحقوق الرومانية نجد من يثير قضية مخالفة تماما هي أثر الحقوق الرومانية على الشريعة الاسلامية مدعيا بأن الشريعة الاسلامية قد أخذت عن الحقوق الرومانية •

وقد أشيع هذا الموضوع بحثا اعتبارا من القرن التاسع عشر وبالتحديد بعد اكتشاف الكتاب السوري الروماني عام ١٨٦٢ على يد الاستاذ لاند• وقد ايد أولا المستشرقون نظرية أخذ الشريعة الاسلامية كثيرا من أحكامها عن الحقوق الرومانية ولكن تراجع الكثير من المستشرقين عن هذا الرأي نتيجة تدقيق الابحاث ودراسة نظريات المشرعين العرب والفقهاء وأصحاب الاجتهاد ومقارنتها بالقانون الروماني وكذلك سائر الفقهاء وأصحاب المذاهب الاسلامية بما فيهم الا وزاعي الذي سكن قرب بيروت وكذلك انقضاء اثر مدرسة بيروت للحقوق قبل ظهور الاسلام •

وبالعكس فقد اتجهت الانظار الى الأثر الشرقي والعربي على الحقوق الرومانية وكان من أهم الباحثين في هذا الموضوع كولينه •

ومما يذكر عن عظمة تأثير الشرق والعرب على الرومان ان قال جوفيات الروماني في نقد ساخر « ان العاصي ـ السوري ـ أخذ يصب في التيبر ـ الروماني » •

وبالختام فقد لاحظنا تأثير حضارتنا العربية على المصادر التي اخذت منها الحقوق الرومانية وكيف كان لنا دور كبير في تطوير وتوسيع الحقوق الرومانية في مختلف مراحلها ومختلف مصادرها كذلك رأينا مدى اسهامنا في متن الحقوق الرومانية التي وصلتنا وأخيرا رأينا دور العرب والسوريين خاصة في تجميع هذه الحقوق حتى صدرت أخيرا مدونة جستنيان •

والآن • اليس من حقنا ان نقول ان الحقوق الرومانية التي جاءت في مدونة جستنيان هي من تأثيرنا ووضعنا ؟

وبالتالي فان قانوننا السوري أو المصري أو العراقي وكل من أخذ عن القانون الفرنسي انما جاء من صنعنا وما هي الا دورة التشريع قد اعادته الينا ؟

فالقانون المصري الذي هو أساس القوانين العربية انما وضع ربعه من الشريعة الاسلامية الغراء وثلاثة أرباعه من مدونة جستنيان التي كان لنا الأثر الأكبر في صنعها كما رأينا اذ كانت الفقرات التي من وضع عربي أو من وضع طلاب عرب أو طلاب اساتذة عرب قد بلغت ٧٣٥٤ فقرة من أصل ٩١٢٤ •

القعقاع بن عمرو

محمد أمين الميداني

حين نقلب صفحات التاريخ ؛ نبحث عن أولئك الذين ساهموا بصنع مجدنا وحضارتنا ، وعملوا على نشر تعاليم الدين الحنيف ، يطالعنا وجه فارس عربي ، بملامح صارمة ، ونظرات ثاقبة ، نقرا عن شجاعته النادرة ، وبطولته الفائقة ، ونعجب كيف اهمل المؤرخون الحديث عنه حتى بدات الجيوش الاسلامية الفاتحة تنطلق شرقا وغربا ، لتوقد مصابيح الهداية في تلك الأرجاء ، وتحرر أراضيها مما كانت تعانيه من جهل وضلالة وكفر ..

عندها فقط التفت اليه المؤرخون وبداوا يولوه اهتمامهم ، ويتحدثون عن شجاعته وبطولته، ويسردون تفاصيل المعارك التي اشترك بها ، والفتوحات التي ساهم فيها ، فحفظت لنا كتبهم بعضا من تفاصيل حياته ، ولكن ليس بالقدر الذي يرضي فينا حب المعرفة والاستطلاع .

فارسنا هو القعقاع بن عمرو ، من قبيلة تميم ، تميم بن مر ، تلك القبيلة التي قدمت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم في العام التاسع للهجرة بعد فتح مكة ، لتعلن اسلامها ، ويقال بأن القعقاع كان ضمن وفد قبيلة تميم تلك التي اتت الرسول الكريم ، وبذلك نرى بأن القعقاع تربى في الحضرة النبوية الشريفة ، وصاحب الرسول وتعلم من دروسه العظيمة ، وكان الصحابي الجليل ، الحريص على دينه ، الشديد في الدفاع عنه ، المجاهد لاعلاء رايته .

اخرج ابن حجر العسقلاني في كتابه الاصابة في تمييز الصحابة (ج ٣ ص ٢٣٠) . مايفيد صحبة القعقاع للرسول ، فقد سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم القعقاع ذات يوم : ماذا اعددت للجهاد ياقعقاع، فأجابه : طاعة الله ورسوله والخيل ، فاستحسن الرسول الكريم هذا الجواب وقال له : تلك الغاية .

على أننا لاننسى بأن الغموض قد اكتنف ولادة هذا الفارس ، ونشأته الأولى ، وتضاربت الأراء حول حضوره لوفاة الرسول الكريم ، فقد قيل بأن القعقاع شهد وفاة الرسول وانه انطلق ليخبر المهاجرين بأمر تجمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة لمبايعة زعيمهم سعد ابن عبادة كخليفة للمسلمين .

وقد انتهى هذا الخلاف الذي كاد أن يعصف باركان الدولة الاسلامية في اولى عهودها ، باختيار ابي بكر الصديق ، خليفة للمسلمين ، بعد أن رضيته الأنصار والمهاجرين .

وكان عهد الخليفة الاول ، العهد الذي برز فيه القعقاع ، وتوضح دوره ، ولفت أنظار المؤرخين اليه .

فأول مابدأ دور القعقاع يتوضح في تاريخ حروبنا ومعاركنا ، بدأ حين وجه الخليفة الأول أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) ، الجيوش لمحاربة اولئك

الذين ارتدوا عن دين الاسلام ، وفرطوا بتعاليمه وأركانه ، واتبعوا قادة مشركين ، ادعوا النبوة وجاهروا بها .

لقد حرص أبو بكر على تثبيت أركان الدولة الاسلامية الفتية ، ولم يكن ليتم له ذلك الا بالقضاء على المرتدين والعودة بهم الى دين الاسلام ، لذلك وجه أبو بكر الجيوش لمحاربتهم ، وبعث بالقعقاع على رأس سرية من المسلمين لتأديب « علقمة بن علاثة » الذي خرج في بني كلاب مرتدا .

وكان علقمة قد أسلم ثم ارتد في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم . ثم خرج بعد فتح الطائف حتى لحق بالشام فلما توفي النبي ، اقبل علقمة مسرعا حتى عسكر في بني كعب . مقدما رجلا ومؤخرا أخرى ، وكان ذلك في السنة الحادية عشرة للهجرة النبوية الشريفة .

وعلم بذلك أبو بكر فبعث له بالقعقاع ، وقال له : ياقعقاع ، سر حتى تغير على علقمة بن علاثة ، لعلك أن تأخذه لي أو تقتله ، واعلم ان شفاء الشق الحوص[1] ، فاصنع ماعندك[2] .

فأغار القعقاع على الماء الذي عليه علقمة، فاستبى امرأته وبناته ونساءه ، وقدم بهم وبعلقمة أسيرا على الخليفة ، ولكن ولد علقمة وزوجه انكروا أنهم جاروا علقمة في ارتداده ! وكان أن عاد علقمة بعد ذلك عن ردته وأسلم فقبل منه الخليفة اسلامه .

كانت مهمة بسيطة تلك التي اضطلع بها القعقاع في حروب الردة ، ولكنها كانت كافية لتدلنا على مبلغ ثقة الخليفة الأول بالقعقاع ، واعتماده عليه ، في تلك الظروف العصيبة التي عانت منها الدولة الاسلامية في اولى عهودها .

وبعد أن توطدت أركان الدولة الاسلامية بالقضاء على المرتدين ، فكر الخليفة الأول بتوجيه الجيوش لفتح العراق ، وكان أن عقد لسيف الله خالد بن الوليد (رضي الله عنه) — والذي ابلى بلاء حسنا في حروب الردة — لواء فتح العراق .

وكتب له يكلفه بهذه المهمة على أن تكون مدينة الأبلة — ثغر الفرس على الخليج — وجهته الأولى ، وحدد مدينة الحيرة هدفا له .

على أن أبا بكر أجاز لمن شاء من جيش خالد بالرجوع الى بلدته ، وطلب منه أن لايصحب معه الى العراق كاره للقتال . وفوجيء خالد حين قرأ رسالة الخليفة على جنده ، بالكثير منهم يعودون غير راغبين معه لفتح العراق . فكتب الى الخليفة يعلمه بما جرى طالبا منه أن يمده بجنود بدل الذين انفضوا عنه .

فأرسل أبو بكر الى خالد بالقعقاع بن عمرو ؟! وحين سأله أصحابه مستغربين : أتمد رجلا قد أرفض عنه جنوده برجل ! قال أبو بكر : لايهزم جيش فيه مثل هذا !!![3] .

انها شهادة كبيرة من الخليفة ، وثناء عظيم للقعقاع ، وايجاز بليغ يصف هذا الفارس المقدام .

لقد اشتهر عن أبي بكر ، معرفته بأنساب كل قبيلة ، ومفخر أبطالهاومثالب أفرادها . ولابد من أنه عرف للقعقاع في حياة الجاهلية شجاعته ، وبطولته ، وكان هو أول من كلفه بمهمة بعد ان شرح الله قلب القعقاع للاسلام ، فكان توجهه لقتال « علقمة بن علاثة » وهاهو يمد خالدا به هذه المرة ، وهو على يقين بأن خالدا سيجد فيه السند والمعونة ، وسيكون الجندي الشجاع في جيشه ، والمجاهد الذي لن يهزم جيش انضم الى صفوفه .

كانت أولى معارك المسلمين في أرض العـراق • معركة « ذات السلاسل » ــ نسبة للسلاسل التـي ربط الفرس جنودهم بها قبل بدء المعركة ــ والتـي جرت بين المسلمين والفرس في شهر محرم من السنـة الثانية عشرة للهجرة •

كان يقود جيش الفرس في هذه المعركة القائـد الفارسي « هرمز » ، الذي عرف عنه الخبث والخديعة وكانت منطقة (الكاظمية) على الخليـج هي ساحـة القتال بين الجيشين •

وقد اضمر هرمز لخالد الخديعة ، فاوعز لبعض جنده بأن يتربصوا بخالد وما أن يروه مشغولا بالقتال معه ، حتى يسرعوا فيقتلوه غدرا ، فيفت ذلك في عضد جيش المسلمين ويبدد شملهم •

وخرج « هرمز » من بين صفوف الفرس ونادى لخالد ليخرج لمبارزته ، فخرج خالد ، وتقاتلا وهمـا راجلان ، ثم رميا السيوف وتصارعا ، وحانت الفرصة التي ينتظرها جند هرمز للغدر بخالد • فأسرعوا اليه ليقتلوه ••• ولكن صفوف المسلمين انشقت عن فارس مقدام يسرع والسيف بيده يلحق بخالد ، وقـد رأى جند الفرس يخفون للغـدر بـه وهو مشغول عنهـم بصراعه مع « هرمز » •

كان هذا الفارس المقدام القعقاع ، الذي لم يجد وقتا لتنبيه أصحابه لغدر الفرس ، فأسرع بنفسه لينقذ خالدا ، ووصل اليه قبل أن يتمكن منه جنود«هرمز»• فأثبت القعقـاع وهو لايزال في أول معاركه ، قـوة ملاحظته وسرعة بديهته وحسن تقديره ، فكان أنخف لانقاذ قائده والدفاع عنه ورد كيـد الفرس • ورأى المسلمون صنيع القعقاع ، فعرفوا بأن الوقت قد حان للهجوم ، فاندفعوا نحو الفرس بقوة وشجاعة وسرعان ما التحم الجيشان وتمكن خالد في هذه المعركة من قتل قائد الفرس « هرمز » • لتنتهي المعركة أخيرا بانتصار المسلمين وهزيمة الفرس ، وبدأ من وقتها نجم القعقاع يتلألأ في سماء المعارك ، والفتوح الاسلامية ، مسجلا أروع المفاخر ، وأكبر الانتصارات •

وبعد هذا الانتصار المظفر ، انطلق خالد بجيش المسلمين نحو مدينة (المذار) ، على نهر دجلة ، ليلتقي بجيش فارس آخر كان ملك الفرس « أردشير » ، قد جهزه ووضع على رأسه القائد « قارن » ، لمسانـدة جيش هرمز ، الا أن هزيمـة جيش هرمـز ، جعلـت « قارن » يحط الرحال في المـذار ، بانتظـار جيش المسلمين •

والتقى الجيشان ، وكان النصر حليف المسلمين، وقد أنشد القعقاع بعد هذا الانتصـار ، وكان بـين صفوف المجاهدين :

فنحن وطئنـا بالكواظـم (هرمزا)

وبالثني قرني (قارن) بالجوارف(٤)

وتتابعت انتصـارات جيش المسلمين ــ وبـين صفوفه فارسنا القعقاع ــ في أرض العراق ، وألحـق بالفرس الهزيمة في معركـة الولجة ، ومعركـة أليس وقد انضم للفرس في هـذه المعركـة عرب النصارى الذين كانوا لايزالون على ولائهـم للفرس ــ ، ثـم انضموا إلى أبناء جلدتهم من العرب •

وقد استخلف خالد القعقاع على مدينة الحيرة ، وانطلق للقضاء على مقاومـة الفرس في بقيـة ارض العـــراق •

وهنا يلعب القعقاع دورا جديدا في تاريخ الدولة الاسلامية ، فهو أمير على مدينة الحيرة ، يحكمها ويدير شؤونها طبقا للشروط التي استسلم عليها أهلها للمسلمين •

ولو لم يكن للقعقاع الامكانيات والصفات التي تؤهله لحكم هذه المدينة الكبيرة من مدن العراق ، فما كان خالد ليستخلفه عليها ، وقد أثبتت الحوادث التي جرت فيما بعد صواب رأي خالد في استخلافه للقعقاع على الحيرة •

على أن كتب التاريخ أغفلت هذه المرة أيضا الحديث عن القعقاع في خلال وجوده في الحيرة، ولعل قصر الفترة التي بقي فيها هناك والتحاقه بجيش خالد في فتوحاته المتتابعة بعد ذلك مايبرر هذا الاغفال •

ووصلت للقعقاع وهو في الحيرة أنباء تجمع الفرس من جديد في الحصيد والخنافس ، فكلف « أعبد بن مذكي » ، و « عروة بن الجعد » ، بأن ينطلقا مع جندهما ليرصدا تحركات الفرس في هاتين المنطقتين ويبقيا على تماس مباشر معهم وقال لهما : ان رأيتما مقدما فأقدما[٥] •

وكلف خالد القعقاع بعد ذلك بمحاربة الفرس في الحصيد ، وقد ارتجز القعقاع بعد انتصاره على الفرس في هذه الموقعة :

ألا أبلغا أسماء أن خليلها
قضى وطرا من روزمهر الأعاجم

غداه صحبنا ، في جصيد جموعهم
بهندية تغري فراخ الجماجم[٦]

واشترك القعقاع بعد ذلك مع جيش المسلمين في قتال الفرس وحامياتهم ، في المصيخ ، والثنى والزميل ، وحارب مع خالد حامية الروم على تخوم الامبراطورية الفارسية • وانتقل بعدها مع جيش خالد من العراق الى الشام وبناء على أوامر الخليفة الأول في تلك المسيرة المحفوفة بالمخاطر التي تجشمها خالد وجنده في سبيل اللحاق باخوانهم في الشام ، الذين بدأوا بمناوئة قوات الروم •

وكان أن نجح خالد وجيشه بالوصول الى أرض الشام ، متجنبين الاصطدام بحاميات الروم في طريقهم، مختصرين مسافات طويلة •

وبدأ خالد وجيشه — وفيه القعقاع — معاركهم الأولى في أرض الشام ، بالاغارة على قرية «سوى» ، ثم مدينة « أرك » وتم لهم الانتصار على الحاميات الفارسية فيها ، وتمت المصالحة بينه وبين أهل تدمر على دفع الجزية ، وأغار بعدها على « القريتين » ، الى أن وصل الى مدينة البصرى ، ليشترك مع جيش « شرحبيل بن حسنه » ، في فتح هذه المدينة الهامة من مدن الشام•

أما أولى أهم المعارك بين المسلمين والروم في أرض الشام ، فكانت معركة « أجنادين » ، التي جرت في شهر جمادى الأول من السنة الثالثة عشرة للهجرة • وفيها انتصر المسلمون على الروم وشردوا جموعهم ، وقتلوا قائد جيشهم (وردان) ، ومعاونه (القبقلاز)•

وكانت هذه المعركة آخر المعارك التي جرت في حياة الخليفة الأول أبو بكر الصديق الذي توفي ودفن بجانب صاحبه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتسلم الخلافة بعده عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، بناء على عهد كتبه أبو بكر للمسلمين باستخلاف عمر •

وفي خلافة عمر ، جرت المعركة الكبرى بين المسلمين ، معركة اليرموك •

واشترك القعقاع مع جيش المسلمين في هذه المعركة ، وكان هو وعكرمة بن أبي جهل في مجنبتي قلب جيش المسلمين ، وأوعز اليهما خالد — قائدجيش المسلمين — ببدء القتال بعد أن مضت خمسة أيام على بدء المعركة والمناوشات والمبارزات مستمرة بين المسلمين والفرس ، فأنشب القعقاع القتال وهو يرتجز :

يا ليتني ألقاك في الطراد
قبل اعترام الجحفل الوارد
وأنت في حليتك الوارد[7]

وكان النصر حليف المسلمين في هذه المعركة الحاسمة ، فقد فر قائد جيش الروم (باهان) • وقتل معظم قادتهم ، وسقط الكثير من جندهم في وادي الرقاد ، وقتل أكثرهم قبل أن يلوذ البقية بالفرار •

وساهم القعقاع بعد هذه المعركة ، في فتح مدينة دمشق ، وقد تسور مع خالد وعدي بن حاتم الباب الشرقي لسور مدينة دمشق ، وقضوا على حراس هذا الباب ، ليفتحوه لجند المسلمين الذين كانوا قد رابضوا أمامه •

وأنشد القعقاع بعد فتح مدينة دمشق :

أقمنا على داري سليمان أشهرا
بخالد وماقد حموا بالصوارم

فضنضنها بها الباب العراقي عنوة
فدان لنا مستسلما كل قائم

أقول وقد دارت رحانا بدارهم
أقيموا لهم جز الذرى بالغلاصم

فلما زأدنا في دمشق نحورهم
وتدمر عضوا منها بالأباهم[8]

أما آخر المعارك التي اشترك فيها القعقاع في أرض الشام ، فكانت معركة فحل ، التي انتهت بانتصار المسلمين وهزيمة الروم •

على أن أكبر المعارك التي اشترك فيها القعقاع بن عمرو ، كانت معركة القادسية •

كتب عمر الخطاب ، الخليفة الثاني للمسلمين ، الى قائد جنده في الشام أبي عبيدة بن الجراح ، يأمره أن يعيد جيش العراق الذي قدِم به خالد بن الوليد بناء على أوامر الخليفة الأول في أولى معارك المسلمين على أرض الشام ، أن يعيده الى العراق لينضم الى جيش المسلمين الذي يستعد لملاقاة الفرس في القادسية• وامتثل أبو عبيده لأوامر الخليفة وجهز الجيش وأمره بالعودة الى أرض العراق •

وكان تعداد الجيش العائد ستة آلاف مجاهد ، وضع أبو عبيدة على رأس هذا الجيش « هاشم بن عتبة ابن أبي وقاص » ، وعلى مقدمته « القعقاع بن عمرو » ، وعلى مجنبته « قيس بن هبيره بن يغوث المرادي » ، « والهزهاز بن عمرو العجلي »[9] •

ولم يتمكن القعقاع من الاشتراك في معركة القادسية في أولى أيامها ، بل وصل الى أرض المعركة في ثاني يوم — يوم أغواث — •

فما أن أشرقت الشمس ونشرت أشعتها على أرض المعركة في ثاني أيامها حتى استعد الجيشان — جيش المسلمين وجيش الفرس — للقتال من جديد •

فاليوم الأول انتهى وكلا الجيشين لايزالان في مواقعهما الاولى ، وقد تركز هجوم الفرس يومها على جناح المسلمين الأيسر الذي تمركزت فيه قبيلة(بجيلة)، وكان يقود هجوم الفرس قائد جناح ميمنة جيشهم « هرمزان » وجنده ، يسانده « جالنوس » وجنده ،

وقد أفزع ــ في ذلك اليـوم ــ منظر الفيـلة التي استخدمها الفرس في هذه المعركـة ، خيل المسلمين ، فكانت تفر من أرض المعركة ، ولا يملك الفارس المسلم عنانها ، إلا أن « عاصم بن عمرو » (شقيق القعقاع) ، استطاع مع زملائه قطع الأربطة التي شد بها الفرس الصناديق المحتشدة برماتهم على ظهر الفيلة .

وصلت أولى طلائع جيش العراق والعائد من أرض الشام مع اشراقة شمس ثاني أيام المعركة ، وكان على رأس جند الطلائع القعقاع بن عمرو .

كان تعداد جنـد المقدمة ألف مقاتـل ، قسمهم القعقاع الى عشرات ، وأمرهم أن ينطلقوا بهذا الشكل كلما بلغ عشرة منهم مدى البصر لحق بهم عشرة أخرى وهكذا ...

وكان القعقاع على رأس أول عشرة ، وما أن وصل الى أرض المعركة حتى استبشر جند المسلمين وتشجعوا ، ووقف هو فيهم يبشرهم بمزيد من المـدد ويقوي من عزيمتهم ويقول لهم : يا أيها الناس ، إني قد جئتكم في قوم ، والله أن لو كانوا بمكـانكم ، ثم أحسوكم حسدوكم حظوتها ، وحاولوا أن يطيروا بها دونكم ، فاصنعوا كما أصنع .

وسرعان مابدأ بعدها القتال ، وخرج القعقاع من بـين الصفوف ونادى : من يبـارز ؟ فخرج اليـه ذو الحاجب ، فقال له القعقاع : من أنت ؟ فأجابه : انا بهمن جاذوية ، فصرخ القعقاع : يالثأرات أبي عبيد وسليط وأصحاب الجسر ، واندفع نحو بهمن ، واشتبك معه ، وسرعان ماقتله ، ووقف لينادي من جديد : من يبارز ؟ فخرج له هذه المرة اثنان من فرسان الفرس : البيرزان والبندوان ، فأنضم الى القعقاع « الحارث ابن ظبيان » ، ليكفيه أحد الفارسين .

واشتبك القعقاع مع « البيرزان » ، وضربه ضربة قوية أطاحت برأسه ، وتمكن « الحارث بن ظبيان » ، من قتل « البندوان » أيضا .

ووصلت بقية جند مقدمة جيش العراق الى أرض المعركة ، فازداد استبشار المسلمين ، وقويت عزيمتهم ، ووقف القعقاع يقول لهم : يامعشر المسلمين ، باشروهم بالسيوف ، فانما يحصد الناس بها ، وابتكر القعقاع في هذا اليوم حيلة ذكية ، فقد عمد الى بعض إبل جيش المسلمين فألبسها وجللها بأقمشة مبرقعة وجعل عليها بعض الفرسان ودفع بها الى أرض المعركة ، فكـانت بتحركها تثير الفزع في قلوب الفرس ، وتجفل خيولهم ، وأصاب الفرس بذلك ما أصاب المسلمون في أول أيام المعركـة .

ولما رأت بقية القبائل أثر حيلة القعقـاع ، حذت حذوه فألبست بعض إبلها وجللتها بأقمشة مبرقعة مما جعل خيل الفرس تفر من أرض المعركة ، مثيرة البلبلة والفزع بين الصفوف .

لقد حمل القعقاع في هذا اليوم من أيام المعركـة ثلاثين حملة ، كلما لحق به عشرة من أصحابه ، يحمل حملة جديدة وهو يرتجز :

أزعجهـم عمـدا بهـا ازعاجا
أطعـن طعنـا صائبـا ثجاجـا
أرجـو بـه من جنـة أفواجـا

وفي كل حملة حملها القعقاع كان يقتل فارسا من فرسان الفرس وكان آخر من قتلهم : بزرجمهر الهمذاني ، وأنشد القعقاع في ذلك :

حبوتـــه جياشـــة بالنفـس
هـدارة مثـل شـعاع الشـمس

في يـوم أغواث غليـل الفرس
أنخـس بالقـوم أشـد النخس

حتى تفيض معشـري ونفسي (١٠)

واستمر القتال في هذا اليوم من أيام المعركـة ، حتى بعد غروب الشمس ، وكان سعد بن أبي وقاص ــ قائد جيش المسلمين في القـادسية ــ يستدل على سير المعركة من أصوات المسلمين التي تعلو مكـبرة ويصله صداها في ظلمة الليل .

وفي ثالث أيام المعركة ــ يوم عماس ــ عمدالقعقاع الى حيلة جديدة يشد بها أزر المسلمين ، ويقوي من معنوياتهم ، ويجدد نشاطهم . فقد أوعز القعقاع لجنده الذين قدموا معه من الشام ، لينطلقوا الى المكـان الذي أتوا منه في ثاني أيام المعركة وأمرهم أن يقضوا ليلتهم هناك وما أن يطلع الصبح حـتى يعودوا الى أرض المعركة ، وكأنهم مدد جديد وصـل من أرض الشام ، ليساعد جند المسلمين في القادسية ...

وقال القعقاع لأصحـابه : اذا طلعت الشمـس ، فأقبلوا مائه مائه ، كلما توارى عنكم مائه ، فليتبعهـا مائه ، فان جاء هاشم فذاك وإلا جددتم للناس رجاء وجـدا(١١) .

وانطلق جند القعقاع تنفيذا لأوامره الى ذلك المكان وما أن اشرقت الشمس على أرض المعركة ، حـتى لاح في الأفق فرسـان المسلمين يتجهـون الى أرض المعركة ، وكـانوا جند القعقاع ، فكـبر المسلمون في القادسية ، وقد حسبوا بأن بقية جيش هاشم القـادم من أرض الشام قد وصل .

وأمر عاصم بن عمرو (شقيق القعقاع) ، جنده بمثل ما أمر القعقاع جنده ، فكان جند عاصم يفدون الى أرض المعركة ، فيبعث مرآهم في قلوب المسلمين القوة ، ويشد من عزيمتهم .

وما أن عاد جند القعقاع الى أرض المعركة ، حتى وصل جيش هاشم من أرض الشام ، وعلم هاشم بما فعله القعقاع فعمد هو أيضـا الى تقسيم جنـده الى جماعات كل جماعة تضم سبعين رجلا ، وأمرهم أن ينطلقوا الى أرض المعركـة ، ومـا أن رآهم جنـد المسلمين في القادسية ، حتى ازدادوا استبشارا وفرحا، وبدأوا يعدون العدة لملاقاة الفرس .

وقد قدر الطبري في كتابه تاريخ الرسل والملوك ، بأن صنيعة القعقاع في اليومين الثاني والثالث من أيام المعركة ، قد أسهمت في ترجيح كفة المسلمين، وساعدتهم على انتصارهم .

دفع الفرس بأفيالهم من جديد الى أرض المعركة في هذا اليوم ، بعد أن صنعوا أربطة جديدة ، وربطوا الصناديق عليها ، وملؤها بالجنود، وأحاطوها بالفرسان منعا لتكرار ماحدث في أول أيام المعركة . وبعث سعد الى بعض اسرى الفرس ، الذين أسلموا وانضموا الى جيش المسلمين ، يسألهم عن مقتل الفيلة ، وقال لهم : هل لها مقاتل ، فقالوا له : نعم ، المشافر والعيون لاينتفع بعدهـا .

فأرسل سعد الى القعقاع وشقيقه عاصم وقـال لهما : أكفياني الابيض، يعني أن يقتلا له الفيل الابيض، لان معظم الفيلة تألف هذا الفيل وتسير بازائه دائما .

كما أرسل سعد الى « حمال بن مالك » و « الربيل ابن عمرو » ، وقال لهما : اكفياني الفيـل الأجرب .

وبدأت المعركة ، وانطلق القعقاع وشقيقه عاصم نحو الفيل الأبيض ، وعزما على النيل من عينيه في البدء ، فأختارا رمحين لينين ، وانطلقا نحوه ، يحوط بهما أصحابهما ، ليكفوهما فرسان الفرس الذين يدافعون عن الفيل .

وسنحت الفرصة للقعقاع وشقيقه عاصم ، والفيل الابيض متشاغل بالفرسان الذين يقتتلون من حوله ، فوضعا رمحيهما في وقت واحد في عيني الفيل ، فهاج الفيل وانتفض ، ورمى سائسه من على ظهره ، وأسرع القعقاع بعدها ليستل سيفه ليقطع خرطوم الفيل ، فوقع الفيل على جنبه وسقط الجنود الذين كانوا في الصندوق من على ظهره ، فهجم عليهم أصحاب القعقاع وقتلوهم .

وكان أن ادنى كل من « الربيل بن عمرو » ، و « جمال بن مالك » ، مهمتهما ، ففقأ عين الفيل الأجرب ، وقطعا خرطومه ففر الفيل من أرض المعركة ، وكان في أثناء فراره يصيب جند الفرس ويدوسهم ويبعث الذعر في نفوسهم ، أما الفيل الابيض فقد بقي مطروحا على أرض المعركة ، يناله المسلمون بسيوفهم ورماحهم ، وهو عاجز عن الحركة لايبصر ماحوله ولا يستطيع أن يدفع عنه أحدا .

وما أن بدأت الشمس تغرب ، حتى كانت أرض المعركة خالية من فيلة الفرس ، وأنشد القعقاع في ذلك اليوم :

خصص قومي مضرحي بن يعمر
فلله قومي حين هزموا العواليا

وما خام عنها يوم سارت جموعنا
لأهل قديس يمنعون المواليا(١٢)

فان كنت قاتلت العدو فللته
فاني لألقي في الحروب الدواهيا

فيولا أراها كالبيوت مغيرة
أسمل أعيانا لها ومآقيا (١٣)

واستمر القتال يومها الى بعد غروب الشمس . وطوال الليل ، وبات سعد قلقا ، يرهف السمع لصوت يصله ، ليطمئنه على سير المعركة ، وكان أن وصله صوت القعقاع أخيراً في النصف الثاني من الليل وهو ينشد :

نحن قتلنا معشرا وزائدا
أربعة وخمسة وواحدا

نحسب فوق اللبد الاساودا
حتى اذا ماتوا دعوت جاهدا

الله ربي ، واحترزت عامدا(١٤)

وفي آخر أيام المعركة ــ يوم القادسية ــ خاطب القعقاع اصحابه وقد قدر بأن الساعات الحاسمة في المعركة قد أزفت ، فقال لهم يشد من أزرهم ويبعث فيهم الهمة والنشاط :

إن الدبرة بعد ساعة لمن بدأ القوم ، فأصبروا ساعة ، واحملوا ، فان النصر مع الصبر(١٥) .

وعزم القعقاع على الوصول الى رستم في معسكره ، فجمع اليه بعض فرسانه ، وشنوا هجوما قويا باتجاه معسكر رستم ، ــ قائد جيش الفرس ــ والسرير الذي يجلس عليه ، ولم يمض وقت طويل حتى استطاع القعقاع وفرسانه شق طريقهم من بين صفوف الفرس ، واقتربوا من معسكر « رستم » . ورأت بقية القبائل مافعله القعقاع وفرسانه ، فتنادوا فيما بينهم ، وحملوا دفعة واحدة على الفرس . وما أن توسطت الشمس

كبد السماء حتى تراجع جناح الفرس الأيمن الذي يقوده القائد « هرمزان » ، تحت ضغط هجوم جند المسلمين واندفاعهم ، كما تراجع جناح الفرس الأيسر الذي يقوده القائد « البيرزان » والقعقاع وفرسان المسلمين يزدادون اقترابا من معسكر رستم القائم في قلب الجيش الفارسي •

وانتهت المعركة أخيرا بمقتل قائد الفرس «رستم»، وهزيمة جنده ومقتل الكثيرين منهم •

وكانت هناك مهمة أخرى تنتظر القعقاع بعد انتهاء المعركة وانتصار المسلمين ، فقد أوكل سعد الى القعقاع مهمة مطاردة فلول جيش الفرس المهزوم ، وقد صحب القعقاع شقيقه عاصم في هذه المهمة • وهكذا ساهم القعقاع بالنصيب الأكبر في تلك المعركة ، ونجح فيما ابتكره من حيل في شد عزيمة المسلمين وتشجيعهم، ودب الذعر والخوف في قلوب جند الفرس ، كما قضى مع شقيقه عاصم على أكبر فيلة الفرس ، وأعظمها (الفيل الابيض) ، وفي ذلك مامكن المسلمين من الثبات في أرض المعركة والقضاء على مشاة الفرس •

حقا ، كانت معركة القادسية ذروة أمجاد القعقاع ومفاخره وبطولته •

وشارك القعقاع بعد هذه المعركة بحصار مدينة (بهر سير)[16] ، الذي انتهى بفرار الفرس منها عبر نهر دجلة ، الى الضفة الشرقية الى (المدائن) ، ليدخلها المسلمون ويجدوها خالية من أهلها حتى السفن التي كانت تستخدم لعبور نهر دجلة ، استخدمها الفرس كلها وعبروا عليها ، ولم يبقوا في (بهر سير) أي منها •

لقد أشرف المسلمون من هذه المدينة على نهر دجلة وعلى المدائن القائمة في الضفة الشرقية فلاح لهم قصر الاكاسرة في المدائن والذي كان يدعى الابيض ، فنادى ضرار بن الخطاب وقد رأى ذلك القصر على الضفة الشرقية لنهر دجلة : الله أكبر ! أبيض كسرى ، هذا ما وعد الله ورسوله[17] •

عبر المسلمون نهر دجلة الى الضفة الشرقية ، نحو المدائن ، وفي أثناء هذا العبور سقط أحد فرسان المسلمين ويدعى « غرقدة » من على ظهر فرس لهشقراء فرآه القعقاع ، الذي عبر مع جند المسلمين النهر باتجاه المدائن ، والذي يبدو أنه كان قريبا منه ، فهب لنجدته بكل المروءة والشهامة والنجدة التي عرفتعنه ، وأخذ بيده وسحبه حتى نجح كلاهما في عبور النهر ، فقال البارقي أحد فرسان المسلمين ، وقد رأى نجدة القعقاع لأحد زملائه : أعجز الأخوات أن يلدن مثلك ياقعقاع[18] •

ونجح المسلمون في عبور النهر، واصطدموابالفرس الذين تجمعوا في الضفة الشرقية لوقف تقدم المسلمين، واستطاع المسلمون التغلب على حامية الفرس ليتابعوا طريقهم نحو قصر كسرى ، ليدخلوه بعدها وقد استجابت الحامية المدافعة عنه لدفع الجزية •

وقد شارك القعقاع بعد فتح (المدائن) بمعركة جلولاء ، حيث حفر الفرس حول هذه البلدة خندقا وتحصنوا خلفه ليمنعوا المسلمين من الوصول اليهم ، وسوروا الخندق بالاخشاب مدببة الرؤوس وجعلوا لهم منفذا عبر الخندق لئلا يحصروا أنفسهم خلف سور الخندق •

وكانت تخرج من خلف الخندق كتيبة للفرس لقتال المسلمين ، وتدخل لتخرج واحدة غيرها لمتابعةالقتال، فهال ذلك المسلمون ، ولمح القعقاع على وجوه أصحابه الضيق والانزعاج فقال لهم : أهالتكم هذه ؟ فردوا

عليه : نعم ، نحن مُكلمون وهم مريحـون ، والكال يخاف العجز إلا أن يعقب ، فقال لهم القعقاع باثا فيهم الشجاعة والهمة : إنا حاملون عليهم ولمجاهدوهم وغير كافين ولا مقلعين حتى يحكم الله بيننا وبينهم ، فاحملوا عليهم حملة رجل واحد حتى تخالطوهم ، ولا يكذبن أحد منكم[١٩] •

ونجح القعقاع في أن يجد لـه منفذا نحو الطريق الذي أقامـه الفرس على الخنـدق ، وطلب من أحد أصحابه أن ينادي : يامعشر المسلمين ، هذا أميركم قد دخل خندق القوم وأخذ به فأقبلوا اليه ولا يمنعنكم من بينكم وبينه من دخوله •

وشد ذلك النداء من عزم المسلمين وهم يحسبون أن أميرهم « هاشم بن عتبة » قد نجح في اجتياز الخندق ـ وكان الذي نجح في ذلك فعلا هو القعقـاع وليس هاشم ـ وعليهم أن يهبوا لنجدته ومساندته ، وأفلح القعقاع في بث النشاط والهمة في جند المسلمين بندائه ذاك ، وهو يعرف بأن جند هاشم لن يتركوه وقد عرفوا بأنه قد اجتاز الخندق ولا بد أنهم سيسرعون لنجدته ومعونته ، وكان ذلك فعلا ، تحمل المسلمون حملاتهم الاخيرة على جند الفرس الذين بدأوا يـتراجعون من شدة ضغط المسلمين عليهم ، ووصلوا أخيرا ليجدوا القعقاع وأصحابه قد نجحوا في السيطرة على الطريق الذي أعده الفرس لاجتياز الخندق ، فتعاونوا سوية ودفعوا الفرس للمزيد من التراجع • وانتهت المعركة بانتصار المسلمين وتفرق شمل الفرس •

وأنشد القعقاع بعد انتصار المسلمين على الفرس في جلولاء :

ونحـن قتلنـا في جلولاء اثابـرا
ومهران اذ عـزت عليـه المـذاهب
ويوم جلولاء الوقيعـة افنـت
بنو فارس ، لما حوتها الكتائب[٢٠]

وكانت آخر المعارك التي اشترك بها القعقاع في حياة الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ، معركة نهاوند • ففي محاولة أخيرة لوقف زحف المسلمين في أرض فارس ، جمع الملك الفارسي (يزدجرد) ، جيشا فارسيا في نهاوند ، بلغ تعداده مـائة وخمسين ألف فارسي ووضع على رأسه القائد (الفيرزان) وكـان خليفة المسلمين عمر ، قد عزم على قيادة جيش المسلمين بنفسه لمحاربة الفرس في نهـاوند ، إلا أن الصحـابة الكرام أقنعوه بأن يولي أحد غيره قيادة هذا الجيش، وان في بقاءه في المدينة منفعة أكبر للجيش المحـارب ولجموع المسلمين ، واستقر رأي الخليفـة أخيرا على توليه « النعمان بن مقرن المزني » ، قيادة الجيش •

والتقى الجيشان في نهاوند ، كان على مقدمة جيش المسلمين ، « نعيم بن مقرن » ، وعلى جناحيه « حذيفة ابن اليمان ، وسويد بن مقرن » ، وعلى المجرده (الخيل) القعقاع بن عمرو، وعلى الساقة (المؤخرة) مجاشع[٢١]

واشتبك المسلمون مع الفرس ، واستمر القتـال طـوال اليومين الاولين لبدئه ، وكـلا الجيشين على موقفهمـا ، وفي مواقعهما الاولى ، إلا انـه في اليوم الثالث ، ونتيجة لضغط المسلمين تراجع الفرس ليحتموا بالخنادق التي حفروها حول مدينة نهاوند ، ويختبئوا خلفهـا •

وتشاور النعمان مع أصحابه حول التمكن من الفرس بعد أن احتموا بالخنادق ، فأشار عليه أحـد أصحابه بأن يكلف ثلة من فرسان المسلمين بمنـاجزة الفرس ومناوشتهم ، ليخرجوهم من خلف خنادقهم ، ومن ثم يتراجع أولئك الفرسان من أمـامهم ، فيظن

الفرس بأن المسلمين قد نكصوا على أعقابهم ، وانهم لاذوا بالفرار ، فيلحق بهم الفرس ، ليفاجؤوا بعد ذلك بالمسلمين وقد استعدوا لهم وخرجوا لقتالهم بالقرب من معسكرهم •

وأعجب النعمان برأى صاحبه ووافق عليه ، وكان أن وقع اختياره على فارسنا القعقاع ، لقيادة فرسان المسلمين الذين سيكلفوا بمناجزة الفرس ومناوشتهم•

وانطلق القعقاع مع ثلة من فرسان المسلمين لتنفيذ المهمة ، وبقي لفترة من الوقت يقاتل الفرس الذين خرجوا له من خلف خنادقهم ، تراجع بعدها مع فرسانه من امامهم ، وظل على تراجعه ، فحسب الفرس أن الفرصة واتتهم ، فلحقوا بالقعقاع وأصحابه الفرسان، بعد أن غادروا امكانهم خلف الخنادق ، ظنا منهم أنهم تمكنوا من جند المسلمين وسرعان ماسيلحقوا بهم الهزيمة ••• وكان ان عاد القعقاع واصحابه الفرسان الى معسكر المسلمين الذين كانوا قد استعدوا للقتال وتجهزوا له ، وأمر النعمان جند المسلمين بألا يغادروا مواقعهم وألا يقاتلوا حتى يأمرهم بذلك فامتثلوا لأوامره،واستترواعن أعين الفرس •وكبر بعدها النعمان لجند المسلمين ، مؤذنا ببدء القتال ، فاشتبك الجيشان، وكان القتال شديدا والمعركة حامية الوطيس ، والنعمان يحمل راية جيش المسلمين يدافع عنها لتبقى مرفوعة خفاقة ، وغابت الشمس عن أرض المعركة ، وبدأ الليل ينشر رداءه على صفحة السماء ، وكثر عدد القتلى من الفرس ، وملأت جثثهم ودمائهم أرض المعركة ، حتى باتت الأرض لزجة ، ينزلق عليها الجند والخيل من كثرة ماعليها من دماء ، وكان أن انزلق فرس النعمان فيأرض المعركة يومها ، وتسبب ذلك في مقتله ، وتناول راية جيش المسلمين من النعمان قبل أن تقع ، « نعيم بن مقرن » ، وأخرج النعمان بعيدا عن أرض المعركة ، وغطي بثوبه ، وكتم مقتله عن جند المسلمين لئلا يؤثر ذلك على معنوياتهم •

وظل القتال محتدما بين المسلمين والفرس حتى أظلمت السماء ، تمكن عندها المسلمون من اختراق صفوف الفرس وتشتيت جموعهم ، فدب الذعر في نفوسهم ، وعمدوا الى الفرار من أرض المعركة ، فلحق بهم المسلمون وتمكنوا من قتل الكثيرين منهم قبل أن يلوذ البقية بالفرار •

وكان ممن نجا وفر منأرض المعركة « الفيرزان » قائد جيش الفرس الذي انطلق نحو (همذان) ، فلحق به « نعيم بن مقرن » وسبقه في ذلك القعقاع ، على أن « الفيرزان » ترك فرسه ، وصعد الجبل القريب من أرض المعركة ، فترك القعقاع فرسه أيضا ، ليلحق به ، وتمكن منه وقتله(٢٢) •

أما في خلافة عثمان بن عفان (رضي الله عنه) ، كان القعقاع مقيما في الكوفة ، ومن هذهالمدينة انطلقت أول بوادر الفتنة والثورة على الخليفة ، وعامله « سعيد ابن العاص » •

وقد استغلأولئك الذين أرادوا عزلسعيد لسياسته المنحرفة في الكوفة ، فرصة غيابه عن الكوفة ، فثاروا مطالبين بعزله وخلع الخليفة عثمان ، فخرج « يزيد بن قيس » ثائرا ودخل مسجد المدينة ، وجلس فيهواجتمع اليه أولئك الذين يتبعونه ، فما كان من القعقاع الذي كان حاضرا يومها إلا أن قام وانقض على يزيد ، وأخذه منكرا عليه مايطالب به من خلع الخليفة ، وعزل سعيد، فقال له يزيد : إنما نستعفي من سعيد • فرد عليه القعقاع بكل حزم وشدة : هذا مالا يعرض لكم فيه ، لاتجلس لهذا ولا يجتمعن إليك ، واطلب حاجتك ، فلعمري لتعطينها(٢٣) •

فالقعقاع لم يرد أن يستغل أولئك الثائرين فرصة غياب سعيد عن الكوفة ، ليعلنوا ثورتهم ، ويبثوا الفرقة والفتنة بين أهل الكوفة ، سعيد عامل الخليفة عثمان ، وطالما أبقاه عثمان فلا يحق لأحد أن يعزله إلا بأمر الخليفة ، وعرض القعقاع على يزيد أن ينتظر عودة سعيد ، ولا بد من أن سعيد سيقضي له حاجته إن كان له حاجة ، أما الثورة والفتنة فهذا ما لا يرضاه القعقاع ولا يقبل بـه .

وفي رواية أخرى للطبري : أن يزيد وقد اجتمع إليـه أصحابه قال للقعقـاع : ما سبيلك عليَّ وعلى هؤلاء ! فوالله إني لسامع مطيع ، وإني للازم لجماعتي إلا أني استعفي ومن ترى من إمارة سعيد ، فرد عليه القعقاع منكراً ما يطالب به ومستغربه في الوقت نفسه : استعفى الخاصة من أمر رضيته العامة ؟ فقال يزيد : فذلك الى أمير المؤمنين (٢٤) أي أن أمير المؤمنين هو الحكم في هذا الموضوع فإن قبل بعزل سعيد فهو الذي نسعى اليـه .

وكان أن استجاب الخليفة لمطالب أهل الكوفة ، وعزل عامله سعيد ، واستبدله بأبي موسى الأشعري . ولما استعرت الفتنة من جديد ، واتجه الثوار من أهل بعض الأمصار الى المدينة ليناظروا عثمان في سياسته مره ، وليضربوا الحصار حول منزله في المره الثانية ، كتب عثمان الى أهل الامصار ليهبوا لنجدته وكان أن خرج القعقاع من الكوفة لنجدة الخليفة مع من خرج منها ومن بقية الأمصار .

على أن القعقاع تأخر بالوصول الى المدينـة ، وكان أن قتل عثمان . وأريق دمه الطاهر على صفحات القرآن الذي فتحه بين يديه يقرأ فيـه .

وفي خلافة علي بن أبي طالب (كرّم الله وجهه) خرج القعقـاع للانضمام الى جيش علي . بعـد أن تحدث لأصحابه في مسجد الكوفة حين قدم عليها الحسن ابن علي ، ليطلب مناصرة أهل الكوفة لأبيـه ، قال القعقاع يومها : إني لكم ناصح ، وعليكم شفيق ، أحب أن ترشدوا ، ولأقولن لكم قولا هو الحق ، أما ما قال الأمير — يقصد الحسن بن علي — فهو الأمر لو أن اليـه سبيلاً ، وأما ما قال زيد — زيد بن صوحان ، الذي قدم من البصرة ، رسولاً للسيدة عائشة والزبير وطلحة الى أهل الكوفة ، ينصحكم بعدم الانضمام الى علي ،فزيد في الأمر فلا تستنصحوه فانه لاينتزع أحد من الفتنة طعن فيها وجرى اليها ، والقول الذي هـو القول أن لابد من إمارة تنظم الناس وتزع الظالم وتعز المظلوم ، وهذا علي يلي بما ولى ، وقـد أنصف في الدعاء وإنما يدعو الى الاصلاح ، فانفروا وكونوا من هذا الأمر بمرأى وسمع (٢٥) .

وكان القعقاع رسول علي الى السيدة عائشة والزبير وطلحة الذين خرجـوا مطالبين بالثأر لمقتـل عثمان واختيار خليفة للمسلمين .

فقد أرسل علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) القعقاع رسولاً الى البصرة لمقابلـة السيدة عائشة والزبير وطلحة وقال له : الق هذيـن الرجلين يابـن الحنظلية ، فادعهما الى الألفة والجماعة ، وعظم عليهما الفرقة ، وسألة : كيف أنت صانع فيما جاءك منهما مما ليس عندك فيه رصاة مني ؟ فرد عليه القعقاع : نلقاهم بالذي أمرت به ، فاذا جاء منهما أمر ليس عندنا منك فيه رأي اجتهدنا الرأي وكلمناهم على قدر ما نسمع ونرى أنه ينبغي . فأثنى عليه علي قائلاً : أنت لها .

وخرج القعقاع حتى قدم البصرة ، وبدأ بالسيدة عائشة ، فاستئذن ثم دخل عليها وقال لها : أي أمه ،

ما أشخصك وما أقدمك هذه البلدة ؟ قالت : أي بني ، اصلاح بين الناس ، قال القعقاع : فابعثي الى طليحة والزبير حتى تسمعي كلامي وكلامهما ، فبعثت إليهما فجاءا ، فقال لهما القعقاع : إني سألت أم المؤمنين : ما أشخصها وأقدمها هذه البلاد ؟ فقالت اصلاح بين الناس ، فما تقولان أنتما ؟ أمتابعان أم مخالفان ؟ قالا : متابعان ، قال القعقاع : فأخبراني ما وجه هذا الاصلاح ؟ فوالله لئن عرفنا لنصلحن ، ولئن أنكرناه لا نصلح ، قالا : قتلة عثمان رضي الله عنه فإن هذا إن ترك كان تركاً للقرآن ، وإن عمل به كان إحياء للقرآن . فرد عليهما القعقاع : قد قتلتما قتلة عثمان من أهل البصرة ، وأنتم قبل قتلهم أقرب الى الاستقامة منكم اليوم ، قتلتم ستمائة إلا رجلاً ، فغضب لهم ستة آلاف ، واعتزلوكم وخرجوا من بين أظهركم ، وطلبتم ذلك الذي أفلت — يعني حرقوص بن زهير — فمنعه ستة آلاف وهم على رجل ، فان تركتموه كنتم تاركين لما تقولون ، وإن قاتلتوهم والذين اعتزلوكم فأديلوا عليكم فالذي حذرتم وقربتم به هذا الامر أعظم مما أراكم تكرهون ، وأنتم أحميتم مضر وربيعة من هذه البلاد ، فاجتمعوا على حربكم وخذلانكم نصرة لهؤلاء كما اجتمع هؤلاء لأهل هذا الحدث العظيم والذنب الكبير . فقالت أم المؤمنين : فتقول أنت ماذا ؟ قال القعقاع : أقول هذا الأمر دواؤه التسكين ، وإذا سكن اختلجوا ، فإن أنتم بايعتمونا فعلامة خير وتباشير رحمة ودرك بثأر هذا الرجل ، وعافية وسلامة لهذه الأمة ، وإن أنتم أبيتم إلا المكابرة هذا الأمر واعتسافه كانت علامة شر ، وذهاب هذا الثأر ، وبعثة الله في هذه الأمة هزاهزها ، فآثروا العافية ترزقوها ، وكونوا مفاتيح ، وايم الله اني لأقول هذا وأدعوكم إليه وإني لخائف ألا يتم حتى يأخذ الله عز وجل حاجته من هذه الأمة التي قل متاعها ونزل بها ما نزل ، فإن هذا الأمر الذي حدث أمر ليس يقدر ، وليس كالأمور ، ولا تقتل الرجل ، ولا النفر الرجل ، ولا القبيلة الرجل . فوافقوه الرأي وقالوا : نعم ، إذا قد أحسنت وأجبت المقالة ، فارجع فإن قدم علي وهو على مثل رأيك صلح هذا الأمر . فرجع القعقاع إلى علي وأخبره ما كان بينه وبين السيدة عائشة والزبير وطلحة .(٣٦)

ولكن المفاوضات لم تثمر ولم تصل بالفريقين الى النتيجة المرجوة ، فكان أن اقتتلا ، في موقعة اطلق عليها اسم موقعة الجمل ، نسبة الى الجمل الذي كانت تركبه السيدة عائشة ، وقد قاتل أصحابها من حوله بشدة واستبسال ، ولكن المعركة انتهت بمقتل الزبير وطلحة ، وبهزيمة أصحاب السيدة عائشة .

أما آخر ذكر للقعقاع ورد في كتب المؤرخين ، فكان ما أورده بخصوص ما قاله القعقاع عن معركة صفين وقد اشترك مع علي ضد معاوية وأصحابه ، وقد قال : ما رأيت شيئاً أشبه بشيء من قتال القلب يوم الجمل بقتال صفين ، لقد رأيتنا ندافعهم بأسنتنا ونتكىء على أزجتنا ، وهم مثل ذلك حتى لو أن الرجال مشت عليها لأستقلت بهم .(٣٧)

تلك هي حياة القعقاع بن عمرو، فارس بني تميم، تلك حياته بكل شجاعة صاحبها وبطولته وعظمته ...

لقد سطر القعقاع انصع الصفحات ، وخلف أطيب الذكر ، وترك أفضل الأثر ، فهو من أولئك الفرسان الذين سيبقون مفخرة عظيمة لنا ، لأمة العرب والاسلام ، التي ما بخلت على الدنيا بانجاب خير الرسل ، وأعظم الأبطال ، وأشهر القواد .

كان القعقاع من صحابة رسول الله صلى الله عليه

وسلم ، ومـن أولئك الذين اعتمـد عليهم الخلفـاء الراشدون فكانوا من قوادهم ورسلهم ، وجنودهم الاوفيـاء .

وقـد اكتنف الغموض تاريخ ولادة القعقـاع ونشأته الاولى وكذلك اكتنف نهاية حياته ، وتاريـخ وفاتـه !!!

فمعركة صفين هي آخـر المعارك التي اشتـرك فيها القعقاع وكان مع جند علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) وانتقل بعد انتهاء هذه المعركة الى (الكوفة) ، ليقيم فيها معتزلاً الأحداث ، ويقضي آخر أيامه وفي خاطره ذكرى المعارك والفتوحات والأمجاد التي سطرها بأحرف مضيئة من شجاعة وبطولة ونبل .

توفي القعقاع في السنة الأربعين للهجرة النبوية الشريفة أي هذه السنة وصل القعقاع الى نهاية المشوار، وانتقلت روحه الى جوار ربها . إذاً بانتهاء حيـاة صاحبها .

على أننا وقبل أن نختم هذه المقالة . لابـد أن نتحدث عن جانب آخر من جوانب شخصية القعقاع ، نتحدث عن القعقاع الشاعر .

لم نعثر للقعقاع على أشعار قبل إسلامه ، وكل ما نسب اليه من شعر كان بعد إسلامـه ، وفي معرض الحديث عن معارك المسلمين، وانتصاراتهم وفتوحاتهم.

لقد كان شعر القعقاع مرآة صادقة عكست كل مظاهـر البطولة والشجاعة التي ابداها وقومـه في المعارك ، وسجلاً دقيقاً لتفاصيل الأحداث وتتابـع الانتصارات التي اشترك فيها مع جيش المسلمين في العراق والشام .

لم يترك القعقاع مناسبة لتصوير حبها والمسلمين، وحسـن بلائهم ، وعظمة تضحيتهم ، إلا وصورهـا وتحدث عنها ، كأن انتصار المسلمين لا يكتمل إلا برسم هذه الصورة ، وجهادهم لا يوفى حقه إلا بالإشادة بما فعلوه في ساحات القتال .

وعلى الرغم من كثرة ما أنشده القعقاع مـن أشعار . إلا أننا لم نعثر له على قصائد متكاملة ، وكل ما ذكره المؤرخون ، أبيات شعرية ، ارتجزها في المعارك وعند انتصار المسلمين على أعدائهم .

وقد اقتصر شعر القعقاع على غرض واحـد ، غرض تصوير المعارك والاشادة بشجاعة المجاهديـن وبطولاتهم . ورثاء من استشهد منهم ، حتى لنستطيع أن نطلق على شعره شعر الفتوح بالدرجة الاولى .

فنحن لا نعثر للقعقاع على شعر الحنين مثلاً ، وقد عزاه بعضهم لوجود جموع كبيرة من أبناء عمومته معه في حرب العراق . ووجود زوجته معه كذلك .

كما لا نعثر على شعر يتحدث عن حياته الخاصة ، أو عواطفه الشخصية ، ولعل حياة الجهاد التي أرادها القعقاع لنفسه لم تترك له المجال ليلتفت الى حياتـه الخاصة وعواطفه الشخصية ...

كان شعر القعقاع ، واضحاً ، بسيطاً صادقاً لا غموض فيه ولا تعقيد ، ينساب بكل هدوء وجزالة ، يؤثر في النفوس ولا يتكلفها أي جهد أوعنـاء .

وهذه بعض من أشعار القعقاع نسوقها لتكون الصورة متكاملة عن هذا الفارس الشاعر .

فبعد انتصار المسلمين المظفر على جيش الروم في معركة اليرموك ، يقف ينشد مفاخراً بانتصار جيـش المسلمين مذكـرا بانتصارات هذا الجيـش في أرض

العراق . متحدثاً عن تتابع الفتوحات وسقوط معاقل الروم ومدنهم أمام زحف جيش المسلمين ، راسما صورة بطولية لهذا الجيش الذي تتابعت انتصاراته .

وكيف انتهى الحال بجند الروم . وقد لحقت بهم الهزيمة ، وسقطوا في وادي الرقاد (الواقعة) ، ليبقى ذكر هذه الملحمة التاريخية مسطراً أبد الدهر ، فيقول :

ألـم ترنا على اليرموك فزنـا
كمـا فزنـا بأيـام العـراق

فتحنـا قبلهـا بصرى وكانت
محرمة الجناب لدى العناق[٢٨]

وعذراء المدائـن قد فتحنـا
ومرج الصفرين على العتاق[٢٩]

قتلنـا من أقـام لنا وفئنـا
نهابهـم بأسياف رقـاق[٣٠]

قتلنا الروم حتى ما تسـاوى
علـى اليرموك ثغروق الوراق

فضضنا جمعهم لـما استمالوا
علـى الواقعة البتر الرقـاق

غداة تهـا فتوافيها نصـاردا
فصاروا إلى أمر يعضل بالذواق

وكانت موضوعات الفخر هي أكثر ما أنشد فيها القعقاع الشعر ، كيف لا ، والنصر كان حليفه في كل المعارك التي اشترك بها . وأعظم الفتوحات الإسلامية وابعدها أثراً قد أسهم فيها ، فحق له بعد ذلك أن يفخر ببطولته وشجاعته ، وبصنيع قومه .

فبعد انتصار المسلمين في معركة فحل ، ينشد القعقاع مفاخرا بقومه ، بأجداده ، وآبائه الشجعان ، وكيف أنه سار على خطاهم في طريق المجد والبطولة والشجاعة ، وكيف أن قبيلته تنطلق خلف قائدها في زحف جرار لا آخـر له ...

وفي فحل كانت مأساة الروم ، فقد هزموا شر هزيمـة ، وتشتت جموعهم في ميـاه المستنقعات . والمسلمون ينالون منهم بالسيوف والرماح ، وأنشد يقـول :

كـم مـن أب ورثت فعالـه
جـم المكارم بحـره تيـار

ورث المكارم عـن أبيه وجده
فبنـى بناءهم لـه استبصـار

فبنيت مجـدهم وما هدمتـه
وبنى بعدي أن بقـوا عمـار

مازال منا في الحروب مروس
ملك يغـير وخلفـه جـرار

بطل اللقاء اذا الثغور توكلت
عنـد الثغور مجرب مظفـار

وغداة فحل قد رأوني معلمـا
والخيل تنحط والبلا أطوار[٣٣]

يفدي بلائي عندهـا متكلف
سلس المياسر عـوده خـوار

سلس المياسر ما تسامى ما قطا
عنـد الرهان معير عيـار[٣٤]

مازالت الخيل العراب تدوسهم
في حوم فحل والهبا موار[٣٥]

حتى رمين سرانهم عن أسرهم
في روغـة ما بعدهـا استمرار

يوم الرداغ بعيد فحل ساعـة
وخز الرمـاح عليهم مـدرار

ولقد برأنا في الرداغ جموعهم
طرا ونحوي تشخص الابصار

وفي الرثاء ، نجد القعقاع يهتز لمقتل أحد أصحابه في معركة القادسية • والمسلمون لا يفعلون شيئاً سوى انتظار تكبيرة سعد ايذاناً ببدء القتال ، فيثور ويغضب ويحمل على الفرس ، عله يشفي غليله ويثأر لصاحبه ، ليرثيه بعد انتهاء المعركة وهو ينشد :

سقى الله يا خوصاء قبر ابن يعمر
اذا ارتحـل السفار لم يترحـل

سقى الله أرضاً حلها قبر خالـد
ذهاب غـواد مدجنات تجلجـل

فأقسمت لاينفـك سيفي يحسهم
فان زحل الأقـوام لم أتزحـل

وفي الوصف ، نلمس مهارة القعقاع في رسم الصورة الواضحة البليغة المعبرة ، فنقرأ شعره ويخيل لنا بأن مايصفه ماثل أمامنا يكاد أن ينطق •••

ومن أطرف ما قاله في الوصف ، وصفه لثلاثة من فرسان المسلمين تقدموا لخطبة شقيقة زوجه ، فبعـد انتهاء معركة القادسية تقدم أولئك الفرسان وهم: بكير ابن عبد الله الليثي ، وعتبة بن فرقد السلمي ، وسماك ابن خرشة الانصاري• لخطبة أروى ابنة عامر الهلالية• فسألت أروى شقيقتها زوجة القعقاع أن تستشير لها زوجها وقالت لها : استشيري زوجك أيهم يراه لنـا ، وحين استشارت زوجها قال لها : سأضعهم في الشعر فانظري لأختك وأنشد يقول :

إن كنت حاولت الدارهم فانكحي
سماكا أخا الأنصار أو ابن فرقد

وإن كنت حاولت الطعان فيممي
بكيرا إذا ماالخيل جالت عن الردى

وكلهـم في ذروة المجـد نـازل
فشأنكـم إن البيـان عن الغـد

الهوامش والمصادر :

(١) الحوص : الخياطـة .

(٢) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ ٣ ص (٢٦٢) الناشر دار المعارف بمصر .

(٣) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ ٣ ص (٣٤٧)• الناشر دار المعارف بمصر .

(٤) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ ٣ ص (٣٦٥) . الناشر دار المعارف بمصر .

(٥) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ ٣ ص (٣٧٩) . الناشر دار المعارف بمصر .

(٦) معجم البلدان : لياقوت الحموي جـ٢ ص (٢٦٧)• الناشر دار صادر بيروت .

(٧) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ ٣ ص (٣٩٨) . الناشر دار المعارف بمصر .

(٨) تاريخ مدينة دمشق : لابن عساكر . المجلدة الاولى ص (٥١٨) . الناشر المجمع العلمي العربي بدمشق .

(٩) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ ٣ ص (٥٤٣) . الناشر دار المعارف بمصر .

(١٠) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ ٣ ص (٥٤٧) الناشر دار المعارف بمصر .

(١١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ٣ ص (٥٥١) . الناشر دار المعارف بمصر .

(١٢) خام : نكص وجبن . قديس : اسم حصن في القادسية ، كان سعد يشرف منه على ارض المعركـة . حيث لـم يشترك سعد في المعركة . راجـع كتـاب القعقاع بن عمرو ، لكاتب المقالة .

(١٣) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ٣ ص(٥٥٧) .

(١٤) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ ٣ص(٥٦٢) . الناشر دار المعارف بمصر .

(١٥) القادسية : أحمد عادل كمـال . ص (١٧٦) . الناشر دار النفائس ــ بيروت .

(١٦) بهر سير : من نواحي سواد بغداد قرب المدائن .

(١٧) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ٤ ص (٨) . الناشر دار المعارف بمصر .

(١٨) تاريخ الرسل والملوك للطبري : جـ ٤ ص (١٢) . الناشر دار المعارف بمصر .

(١٩) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ ٤ ص (٢٧) . الناشر دار المعارف بمصر .

(٢٠) معجم البلدان . لياقوت الحموي جـ٢ ص(١٥٦) الناشر دار صادر بيروت .

(٢١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ٤ص (١٢٨) . الناشر دار المعارف بمصر .

(٢٢) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ٤ ص (١٣٣) . الناشر دار المعارف بمصر .

(٢٣) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ٤ ص(٣٣١) . الناشر دار المعارف بمصر .

(٢٤) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ٤ ص(٣٤٦) . الناشر دار المعارف بمصر .

(٢٥) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ٤ ص(٤٨٤) . الناشر دار المعارف بمصر .

(٢٦) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ٤ ص(٤٨٩) . الناشر دار المعارف بمصر .

(٢٧) تاريخ والرسل الملوك :للطبري جـ٤ص(٥٣٢) . الناشر دار المعارف بمصر .

(٢٨) ويقال لدى العناق . والعناق النجم الاوسط من بنات نعش الكبرى وهي توصف بالبعد والخفاء . يقصد انها في امتناعها وبعدها على الغزاة كأنها عند العناق .

(٢٩) يقصد بالعتاق : عتاق الخيل

(٣٠) رقاق : الرقيقة . والمقصود انها سيوف رقيقة قاطعة الحد .

(٣١) البتر : المقصود بها السيوف .

(٣٢) الذواق : الابتلاء والتجربة .

(٣٣) معلماً : ذو علامة . تنحط نحط نحيطاً : زمز . والنحط صوت الخيل من الثقل والاعياء

(٣٤) المأقط : المضيق في الحرب .

(٣٥) الهبا : الغبار . أو ما يشبه الدخان .

المظاهر الاجتماعية في كتاب قاموس الصّناعات الشاميّة

ظافر القاسمي
الجامعة اللبنانية

ليست هذه الدراسة استقصائية لمظاهر الحياة الاجتماعية في بلاد الشام ، في فترة معينة فذلك ما تقتضي له غير ظروف هذا البحث والزاماته والحاحه،وانما هي دراسة ماورد فيكتاب بعينه ، هو كتاب : قاموس الصناعة الشامية ، الذي يقع في جزئين ، الف الجزء الاول منه محمد سعيد القاسمي المولود (١٢٥٩ - ١٨٤٣) والمتوفى (٢٣ شوال ١٣١٧ - ٢٢ شباط ١٩٠٠) ، والف الجزء الثاني منه محمد جمال الدين القاسمي المولود (٨ جمادى الاولى ١٢٨٣ - ١٧ ايلول ١٨٦٦) بمدينة دمشق ، والمتوفى (٢٣ جمادى الاولى ١٣٣٢ - ١٨ نيسان ١٩١٤) بالاشتراك مع خليل العظم المولود (١٢٨٦ - ١٨٧٠) والمتوفى أواخر عام ١٩٣٦) .

طبع هذا الكتاب في دمشق عام ١٩٦٠،بعناية المعهد التطبيقي للدراسات العليا .

وهو كما ترى معجم لصناعات دمشق ، وليس كتابا في التاريخ،ولا في التاريخ الاجتماعي، ولكن الصناعة ، اينما كانت ، وحيثما قامت ، مظهر كبير من مظاهر الحياة الاجتماعية . ولهذا رأينا في ثنايا هذا القاموس فوائد كبيرة تتعلق بالمجتمع الشامي ، فحاولنا احصاءها، وجمعناها، ورتبناها ، وصنفناها ، وانا لنرجو ان نكون قد بلغنا من ذلك بعض الخدمة لهذه المدينة العظيمة التي تشرفنا بالولادة على أرضها وبالانتماء اليها .

أضف الى ذلك ان هذا المعجم قد تضمن وصفا لاربعمائة وسبع وثلاثين صناعة . وقد أجريت احصاء تقريبياً ، فوجدت ان كثيرا من هذه الصناعات قد زال ، لما أصاب البلاد من تطور غير معالمها ، وقضى بان يستبدل ببعض الصناعات صناعات جديدة ، أو ان تموت الى الابد . وهذا تخليد لما كانت عليه الحال قبل وقوع التطور الجارف ، فضلا عن انه يفسر كثيرا مما يغمض علينا من تسميات ما زالت قائمة حتى اليوم . مثال ذلك انه توجد في دمشق اسرة كريمة هي آل المحايري ، فما هذه النسبة ؟ انها نسبة الى المحارة ، التي كان يمتطيها الحاج ، وتوضع على

الابل ، ويصنعها المحايري ، وامثال ذلك كثير .

لا جناح علينا اذا نحن جهلنا التاريخ الدقيق الذي وضع فيه الكتاب ، لان التاريخ الاجتماعي ، لا يحدد بالايام والاشهر والسنين ، وانما يشمل فترات وحقبا ممتدة . ومهما يكن من أمر فان مؤلف الجزء الاول قد أشار في بعض المواضع من كتابه الى انه كتبها عام (١٣٠٩) (١) ، فالوصف الوارد في الكتاب اذن لا يعدو أواخر القرن التاسع عشر المنصرم ، لان مؤلفه توفي عام ١٩٠٠ م .

أما الجزء الثاني فقد ألف بعد وفاة مؤلف الجزء الاول ، قام بذلك ولده جمال الدين وصهره خليل العظم . وقد توسعنا في هذا الموضوع في مقدمتي الجزئين المطبوعين فارجع اليهما .

ان الدراسة التحليلية لهذا الكتاب يمكن ان تؤدي بنا الى بعض حقائق ووقائع التاريخ الاجتماعي لبلاد الشام . ولنضرب أمثلة على ذلك :

١ ـ ما جاء في المقدمات

عقد المؤلف فصلا سماه : « في ذكر بعض آداب الكسب والمعاملة » مبنية كلها على أحكام الشريعة الاسلامية ولبعضها صلة وثقى بالتاريخ الاجتماعي . فهو يحدد أولا الذين لا يجوز التعامل معهم ، وهم : الصبي ، والمجنون ، والعبد ، والاعمى . وثانيا : ان يتحرى عند العقد الايجاب والقبول . وثالثا ـ ان يمتنع عن الاحتكار . ورابعا ـ ان ينصح في المعاملة . وخامسا ـ ان يمتنع عن الغبن الفاحش . وسادسها ـ الورع . وسابعها ـ ذكر الله تعالى في السوق . وثامنها ـ ان لا يكون أول داخل الى السوق ولا آخر خارج منه .

وفي فصل آخر سماه « في الاشارة الى امهات الصناعات » صنفها فقال :

ـ الضروري : كالفلاحة والبناء والخياطة والتجارة والحياكة .

ـ وأما الشريفة بالموضوع : فكالتوليد والكتابة والوراقة والغناء والطب . وما سوى ذلك فتابعة وممتهنة في الغالب .

والذي يسترعي الانتباه هو ان يعمد المؤلف الى اعتبار صناعة « الغناء » شريفة بالموضوع ، كالطب والكتابة ، ولا سيما في ذلك العصر الذي كان الناس ينظرون فيه الى الغناء نظرة ازدراء ، ولا يرتضون ذلك لاولادهم . ولكن اذا عرفت ان المؤلف كان موسيقيا وكان جميل الصوت ، وكان شاعرا ، أي انه كان فنانا عرفت لماذا اعتبر الغناء من الصناعات الشريفة بالموضوع ، مع انه لم يغن في حفل عام قط ، ولا في حفل خاص ، ولم يعرف انه كان جميل الصوت الا خاصة الخاصة من الاصدقاء .

٢ ـ ما جاء في القاموس

آ ـ الصناعات الخاصة بالنساء

في كل مجتمع صناعات خاصة بالرجال ، وأخرى بالنساء ، **وثالثة مشتركة بينهما . وقد** احصيت الصناعات التي لاتتعاطاها الا النساء فكانت :

١ ـ اسطه (٢) : وهي امرأة تغسل رأس النساء بالحمام .

٢ ـ بلانة (٢) : من تخرج الاوساخ من ابدانهن ، بنحو كيس وصابون • وغالب فقراء النساء يغسلن بعضهن •

٣ ـ داية (٤) : هذه اللفظة ، في اصطلاح أهل الشام ، أسم لامرأة عندها معرفة ومهارة في صنعة التوليد ، وتسمى في اللغة « القابلة » • وهذه الصنعة مختصة بالنساء في غالب الامر .

وبعد ان يصف الطلق ، ويتحدث عن اشتداده بعلامات تعرفها الداية يقول :

« تضعها الداية على الكرسي المخصوص ، وتجلس أمامها ، وتدعو لها كثيرا بالخلاص وخلقة الناس ، وتقول لها الداية : يا بنتي عيني ولدك ، واحذري على كبدك •• ثم ان أتت بذكر ، أي صبي ، قامت الافراح على ساق ، واظهرت أنوارها الليالي الملاح بالاشراق ، وذهب البشير لأخذ البشارة ، وأسمعت الزغاريت أهل الحارة •• وان أتت بأنثى ذات الخدر والستر ، استوجبت الهجر بلا أجر ، واستولى عليها الكرب في كل ليلة الى طلوع الفجر ، ولا يزالون في العناء والحصر ، أكثر من مدة شهر •• » •

وبعد ان يوضح المؤلف ما تفعله الداية مع النفساء والمولود، من مبادرات واحتياطات يقول:
« وهذه كلها ادواء نجد الدايات أبصر بدوائها • وكذلك ما يعرض للمولود مدة الرضاع من ادواء في بدنه الى حين الفصال ، أي الفطام ، نجدهن أبصر بها من الطبيب البارع •• » •

ويمضي المؤلف بعد ذلك ليتحدث عن اكرام الضيوف المهنئين فيقول :

« ثم يصنعون وليمة يوم الاسبوع ، ويدعون الاهل والاحباب ، ويجعلون بها حلواء ، وتسمى « كراوية » في مصطلح أهل الشام ••• وهذه الكراوية من لوازم اسبوع المولود غالبا ، فمن لم تصنع له ، لا يعتنى به غالبا ، وينسب الى الشح ••• وغالب الفقراء مع فقرهم يصنعونها يوم الاسبوع ••• » •

ويوضح المؤلف عن واجبات الداية ، وواجبات أهل المولود نحوها حين ختامه ، وحين ختمه للقرآن الكريم ، وحتى زواجه •••

٤ ـ رسام (٥) ، اسم لمن يرسم القماش المنسوج رقيقا كان أو غير رقيق ، أي يطبعه الطابع ، أي بقالب من خشب محفور بنقش مختلف الاشكال ، على حسب رغبة طالب الرسم ••• ويشغل على الرسم بالحرير الملون ، وهو المسمى بـ « التطريز » ، أو القصب المسمى بـ « الصرما » ، أو بالصوف الملون ويسمى « كناويشا » ••• وغالب هذه الاشغال الآن هي من حرف النساء المخرجات من المدارس الرسمية •••

واظن ان هذه الصناعة قد انقرضت في زماننا •

٥ ـ غسالة : هذه الحرف مختصة بالنساء الفقيرات : تدعى لبيوت الاغنياء لاجل غسل وتنظيف الثياب ، فيأتين ويغسلن ما يكون لازما غسله ، ثم يعطين اجرة على نسبة المغسول ••

كذلك اظن ان هذه الصناعة قد انقرضت •

٦ ـ لطامة (٦) : هي من حرفة النساء المتهتكات • وفي الزمن السابق كانت رائجة جدا•

وأما الآن فقد اصبحت كاسدة ، قليل محترفاتها ، لانصباغ الزمن بغير الصبغة الماضية ، تمدنا ، وعادة وتقليدا · ومع ذلك ، فلا يزال طوائف منهن يندبن للندب فيندبن · وذلك عندما يموت أحد الاغنياء فيأتي أهله باللطامات ··· وهن مؤلفات من أربع الى عشر نساء ، يلبسن الثياب السود ، ويسخمن وجوههن وأيديهن بمسحوق الفحم ، ويحللن شعورهن على أكتافهن ، ويدرن بأطراف الدار ، وهن كالرئيس ، وأهل الميت حولهن كالتلاميذ فيأخذن بالولاويل والصراخ والبكاء والنحيب والندب ، ويعددن صفات الميت ومحاسنه ، وما كان عليه في حال حياته من بره واكرامه وعطائه ، واحسانه للفقراء والايتام ··· ويساعدهن على ذلك أهل الميت ، الى أن يسرج بالميت من الدار · وهذا مما نهي عنه في الشرع أشد النهي، وأوعد فاعلات ذلك بالوعيد الشديد· وقدمنا ان في هذا الزمن قل هذا العمل جدا ، وأصبح نادرا وقوعه الا من اراذل الناس ···

كان هذا عام ١٣٢٥ هـ أما اليوم فقد بطل بالكلية ·

٧ ـ ماشطة (٧) : هي الداية ، يطلق عليها هذا اللقب في وقت خاص هو ليلة زفاف الزوجة الى بعلها ، فان للداية ليلتئذ مركزا مهما ، وعملا وخدمة خاصين بها ، متوارثا من الزمن السابق · وذلك ان كل بنت تزوجت ، تأتي ليلة الزفاف دايتها معها ، لا تفارقها أبدا ، وهي التي تمشطها ، أي : تسرح شعرها ، وبذلك سميت « ماشطة » ، وتلبسها ثيابها ، وتزينها باصناف الحلل والحلي والشكول · وما كان في تلك الايام يقوم بهذا الامر الا الماشطة · وسببه عدم تنبه النساء لدقة التزين بانفسهن وتغفلهن أما في زمننا هذا فقد أصبح المتكفل بتزيين المرأة أهلها وأقاربها ، وذلك لعموم التمدن ، واضمحلال التغفل · بل ربما تعد الآن الماشطة عندهن مغفلة ، اذ ترى تلك المسكينة منهن مالا تعهده في غابر الازمنة الا الحضور يوم العرس فقط ، لاجل ان تستأنس بها العروس ، اذ بعد ان تزف الى زوجها ، وينصرف اهلوه عنه ، تكون على باب المحل ، منتظرة لندائها ، لغرض لهما ، من شرب ، أو احضار أمه أو أخته أو عمته ، أو الذهاب بالعروس الى قضاء حاجة ، أو فرش الفراش ، وامثال ذلك · ولا تزال على باب العروسين الى الصباح ، ويكرمها الزوج بمجمع أنواع الحلوى ، مع شمعة عسلية ، ويضيف الى ذلك دراهم ، على قدر ثروة أصحاب العرس ·

ثم عقب المؤلف على ذلك بتنبيه ، أشار فيه الى بعض العادات القبيحةوبعض الافعالالسيئة التي كانت تقوم بها الماشطة ، منها معونة الزوج على غشيان أهله ، وكل ما يتعلق بامور تلك الليلة ، ولا سيما المنديل الملوث بالدم وغير ذلك من القبائح ، التي تخالف الشرع والعقل ، ونهى عنها نهيا شديدا ، ونقل عن كتاب « كنوز الصحة » فصلا كاملا يتعلق بهذا الموضوع ، فيه ايضاح كامل للعادات القبيحة ، وزجر عنها ، ونهي عن ارتكابها ·

٨ ـ محمرة (٨) : هذه الحرفة من حرف الفلاحة ، وتختص بالنساء ، وليست بحرفة دائمة ، بل مؤقتة ، في أيام معلومة ، فان العادة

بدمشق، في العاشر من شهر آذار، يباشر أصحاب الكروم في قرى دمشق بتحمير غصون الكروم ٠ والسبب في ذلك : انه يخرج في ذلك الوقت دود صغير من أصل العرائش ، حيث تكون طلعت عين الكرم ، فتدخل تلك الدودة في محل عين الحمل فتأكله ، ويبقى الورق فقط ، فيأتي أصحاب الكرم بالحمر ٠

ثم يوضح المؤلف طريقة المكافحة ٠

٩ ـ معشبة : هذه الحرفة من حرف الفلاحة، تختص بالنساء ، وليس بدائمة ، بل مؤقتة في زمن الربيع ، عند خروج المزروعات ، يخرج معها أنواع من العشب ، فيأتي أصحاب المزروعات بالمعشبات ، ويأخذن بتعشيب تلك المزروعات ٠٠

١٠ ـ مقبعة : هو اسم لامرأة تطبب رؤوس القراع الذين يتقرح جلد رؤوسهم من الدمامل ٠ والغالب يكونون من الاولاد الصغار ٠٠٠ وهي معالجة صعبة ، مؤلمة جدا ، يكاد الجماد يتفطر للاقرع من كثرة عويله ونحيبه حينما يعالج بها ٠

١١ ـ ممسدة (٩) : هذه الحرفة في الغالب ، يتقنها القوابل ٠ وأمر التمسيد مصطلح عليه بدمشق ، حيث يحصل مع الاطفال سوء هضم ، وقيء زائد ، مع عدم رغبة الطفل بتناول الثدي ، فيستحضرون له الداية ، ويحضرون لها قليلا من الزيت الطيب ، فيأخذ قليلا من ذلك الزيت ، فتطلي به معدة الطفل ٠٠ والبعض من النساء بدمشق قد اتخذن هذه الحرفة لهن مهنة ومعاشا٠

١٢ ـ نقاشة (١٠) هذه الحرفة من حرف النساء ٠ وهي التي تنقش أيدي وأرجل النساء ٠ وذلك ان من العوائد بدمشق ان كل عروس زفت الى زوجها لابد ان تنقش يديها ورجليها ٠ ويشترك معها من يرغب من أهلها وذويها ، فيؤتى بالنقاشة قبل يوم الزفاف فتباشر أولا بتنقيش العروس وبعدها من يرغب من أهلها ٠٠ وكذلك زمن الاعياد يوجد من النساء والصغار من ينقشون ايديهم ، وكذلك حين ختان الاولاد أيضا٠

ب ـ الصناعات الخاصة :

أورد أصحاب القاموس ، ذكر بعض الصناعات ، وأشاروا الى أنها ـ على الاغلب ـ من بعض فئات المجتمع العربي في الشام ٠ وقد عللوا لهذا الاختصاص حينا ، وأهملوا التعليل حينا آخر ، من ذلك ٠

١ ـ ترجمان (١١) : اسم لمن يترجم اللغة العربية الى التركية مثلا ، أو الى الفرنجية،وهي حرفة رائجة عندنا ، لا سيما من يترجم العربية بالفرنجية ٠ والمستعدون لهذه الحرفة فئة عندنا في الشام ٠ وذلك لكونهم اتقنوا تعلم الالسن ، كالرومي ، والطلياني ، والافرنسي ، والانكليزي ، وغير ذلك ٠

وقد جاء المؤلفون على اصطلاح لا يعرف الشام وهو « أبو خديجة » وذلك بصدد العمولة التي يتقاضاها الترجمان حين شراء السياح بعض الحاجات من الاسواق ، فقالوا : « ومثله السمسار ويسمى باصطلاح الباعة : أبو خديجة » ٠ ومن المؤكد ان هذا الاصطلاح ليس مرادفا للسمسار ، وانما هو العمولة التي يتقاضاها السمسار أو الترجمان ، وما زال الاصطلاح شائعا على الالسن حتى اليوم ٠

٢ ـ حلاق (١٢) الحلاق حرفة كانت مشتركة

بين مختلف فئات المجتمع في الشام ولكن المؤلف خص البعض بقوله : «وغالبهم من أهل الكتاب ، وهم الذين ترققوا وأبدعوا في هذه الصنعة ، وتبعهم غيرهم في التحسين » ٠

٣ ـ بويه جي (١٣) : « وغالب أصحاب هذه الحرفة من الفقراء الشباب ، يدورون في الاسواق ، ومجتمعات الناس ، حاملين صندوقا من خشب ، ضمنه أنواع الفرشايات والبوية المتنوعة الالوان كأسود وأصفر وأبيض ، وأنواع الزيوت ، كزيت السمك، اللوز ، ويمسحون النعال لمن أراد فيعطيهم كل على قدره ٠٠ » ٠

٤ ـ خرقي (١٤) : هو من يحترف بلقط الخرق من المزابل ، وأفنية البيوت ، والحارات ، فيأخذها ، ويغسلها وبعد ذلك يفرقها ، فما صلح لان يخاط بعضه ببعض فانه يخاط ويعمل أكياسا وتباع للعطارين ٠٠ وما لم يصلح للخياطة يباع للصرماياتيه فيجعلونه حشو للصرامي ٠

والممتهن نفسه بهذه الحرفة القذرة يدورون في الازقة والحارات في الصباح ٠٠ » ٠

٥ ـ سمكري (١٥) : هذه الصنعة في صنف التنك وقزازير الغار ، وهي تنطوي على عمل أشياء متعددة ضرورية : من عمل كيلات ، وأباريق ، وممالح ، وفوانيس ، ودولات قهوة ٠ وسماورات الى الشاهي ، علب ٠٠ وما أشبه ذلك ٠٠ واذا هي ليست بشريفة كما وضعها المؤلف في عصره ٠

قلت : كان هذا أيام المؤلفين ، أما الذي ادركته في دمشق ، فان أصحاب هذه الصنعة الذين كانت ومازالت محلاتهم في الدرويشية ، ولا سيما في الطابق الارضي من جامع السباهية فهم من غالبية الفئات ٠

٦ ـ صوفاناتي (١٦) : بائع الصوفان ٠ والصوفان مشهور يأتي به التجار من البلاد الاجنبية ، فالبعض من الاولاد ٠ ٠ ٠ ٠ يحملون صندوقا من خشب ٠٠ يملؤونه من ذلك الصوفان ، وينادون عليه في الاسواق ٠٠ والغالب من الفلاحين يشترون من الصوفان ، ويرغبونه أكثر من الكبريت ، وذلك أولا لرخصه ، وثانيا لعدم انطفائه في البرية خصوصا اذا كان موجودا هواء ٠

٧ ـ عواد (١٧) : هو من يضرب على العود بأصوله المعروفة مع اتقان الانغام ٠٠ والمحترفون بها الآن كثيرون : من كافة الفئات العربية يدعوهم من كان عنده وليمة للقيام بما يطرب المدعوين ٠

ثم تطرق المؤلفون الى دور العود في المجتمع فقالوا : « والآن كثير من الأكابر والمتوسطين تعلموا الضرب على العود وأصبحوا يضربون عليه في بيوتهم ٠٠ » ٠

٨ ـ قنواتي (١٨) ـ شاوي (١٩) : هو المحافظ على طوالع الماء ، وسير الدمنه ٠ ويعرف في دمشق الشام بـ « الشاوي » ٠ يفتش على الطوالع التي تحت نظره ومراقبته ، ويتعهدها ٠٠ وهي حرفة مهمة ، لايتعاطاها الا البعض ، ولهم بها مهارة تامة ٠٠

٩ ـ قهوجي (٢٠) : ٠٠٠ والبعض ممن يتعاطى

المسكرات – والعياذ بالله تعالى – يذهب لجهة الباب الشرقي من مدينة دمشق ، حيث يوجد هناك قهاوي متعددة تعرف بالجناين ، في باب توما ، وقاصدوها يتعاطون القهوة مع الأراكيل والمسكرات ...

١٠ – مرابي (٢١) : هو من يقرض الناس بالزايد ، وكانت هذه الحرفة بدمشق قبلا ، قليل محترفوها الموسويون وغيرهم . والآن مما عمت بها البلوى – نسأل الله السلامة – فقد أصبح كثير من الناس ، على اختلاف مللهم ، يحترفون بهذه الحرفة الخبيثة ...

١١ – نحات (٢٢) : هو من ينحت أنواع الاحجار ، حسب المرغوب وأصحاب هذه الصنعة بدمشق من المشهورين .

ج – صناعات زالت

بعض الصناعات زال أو كاد أيام المؤلفين ، وبعضها زال في أيامنا هذه أو قبلها بقليل . وسنرى ما جاء في القاموس في الاسطر التالية :

– حجام (٩٢/١) : والحجامة باخراج الدم ، الآن قد ندرت جدا ، الا لضرورة شديدة لمنع الاطباء الناس في هذا الزمن عن اخراج الدم ...

– حمّار (١٠٦/١) وهذه الحرفة كانت قبل ظهور العربات كثيرة ورائجة جدا ... فلما ظهرت العربات استغنى غالب الناس عن ركوب الحمير ، وصاروا يستأجرون العربات ...

قلت : واليوم لم يبق حمار ، ولم يبق عربات بعد ان منعت منذ أكثر من ثلاثين سنة ، واستعاض الناس عنها بالسيارات .

– وفي مادة خباز (١٤١/١) أشار المؤلفون الى « من يخبز سوقيا ، ومن يخبز بيتيا » ، ولم يعد في المدن الكبرى خبز بيتي الا نادرا جدا .

– وفي مادة خزان (١٤٤/١) أشارة الى من يدخر الاقوات من الحبوب كالقمح وغيره وقد زالت هذه الصناعة بحصر ذلك في الدولة .

– رشاش (١٥٦/١) هو من يرش الماء في الاسواق التي أرضها من التراب ، لئلا يصعد الغبار الخارج من الارض .. وله على كل دكان شيء معلوم يجمعه في كل شهر ...

قلت : زالت هذه الصناعة منذ زمان بعيد ، وقد ادركتها في طفولتي .

– سائق (١٧٥/١) اسم لمن يؤجر نفسه لاحد الطحانة بشيء معلوم كل يوم .

ووظيفته : نقل الطحنة والطحين على الحمير الى الطاحون ...

قلت زالت لاسباب شتى ، أهمها حصر مادة الطحين بالدولة .

– ساعي (١٧٦/١) اسم يطلق على من يرسل بكتاب أو غيره من بلد الى بلد ...

قلت : زالت منذ زمان بعيد .

– سقاء (١٨٥/١) : اسم لمن يتعاطى نقل الماء أيام الانقطاع عن الدور ، فيأتي الناس بما يحتاجونه من الماء في كل يوم ... وفي سنة ١٣٢٧هـ – ١٩٠٧ أصبحت هذه الحرفة بحكم الملغاة ، وذلك بالنظر لجلب ماء عين الفيجة الشهير بطيبته وخفته الى دمشق ...

قلت : المراد بجلب ماء الفيجة هو السبلان العامة التي وجدت في الشوارع، لا مده الى البيوت فذلك كان عام ١٩٣٢ ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فان السبلان التي أقيمت في الشوارع ، أي المناهل العامة ، لم تكن تكفي في حي المهاجرين ، ولذلك بقيت فيه حرفة السقاء الى عام ١٩٣٢ ، كذلك في أيام انقطاع الماء عن البيوت بسبب تعزيل الانهر وكريها ، لم تكن السبلان تكفي لذلك كان السقاؤون موجودين ، وقد أدركت ذلك بنفسي في جميع أحياء دمشق .

– شعال (٢/٢٥٦) : يستخدم في الجوامع ، وأكثرهم يستخدم في البلدية ... يسلم اليه كمية وافرة من القناديل ، فعند الصباح يتفقدها بما يلزمها من : غسل ، ومسح ، وتزييت ، وقص فتائلها ، وعند الغروب يباشر في تنويرها . وغب صلاة العشاء في الجوامع ، وطلوع الفجر في البلدة يطفئها ...

قلت : قضى عليها تمديد الكهرباء .

– شيال (٢/٢٦٣) : هذه الحرفة تطلق على من كان عنده بعض من الجمال ، يحمل عليها من أراد الحج في موسمه ...

قضت عليها السيارة والطيارة .

– الصوجي (٢/٢٧٣) : بائع الماء ...

انتهت بوصول مياه الفيجة الى الدور .

– طبال (٢/٢٨٨) ويقال له « المطبل » ، وهو من يضرب على الطبل بكيفية معروفة ، يتوارثها أهل بالتعلم من المهرة فيها . ويعرف بـ « بالمرمجي » ... يدعون في الاعراس والختان لاجل الدق في الطبل طربا ، وجمعا لاهالي القرى وما جاورها ... و « ابو ناعسة » – وهو أحد النور – يلقي لهم أصناف السخريات المضحكة والالاعيب ، وأيضا في أيام الاعياد ، وأيام جمع ثمر الزيتون والزبيب ، وقيام الاغلال من البيادر ، يدورون يطبلون ويغنون ، فيعطيهم أصحاب الرزق ، كل على قدره ...

زالت من المدن ، وبقي لها بعض الآثار في القرى .

– طرابيشي (٢/٢٩٢) : بائع الطرابيش ، والقائم بكيها .

لم يبق منها الا القليل .

– طنبرجي (٢/٢٩٤) : هو سائق الطنبر .

وقد زالت بسبب المركبات الآلية الحديثة .

– طيان (٢/٢٩٦) : في هذه المادة أشار المؤلفون الى « الزريقة » و « العدسة » .

وقد قضى عليها الاسمنت .

– عربجي (٢/٣٠٥) الغيت العربات منذ أكثر من ثلاثين سنة في دمشق ، ولم يبق لها أثر . وكان من المستحسن أن يبقى فيها على عدد محدود ، كما هي الحال في العواصم الكبرى ، كباريس وروما ولندن .

– عشار (٢/٣١٠) : هو من يشتري اعشار القرى من الحكومة (ملتزم) .

وقد زالت بعد تنظيم دوائر الجباية في وزارة المالية .

– عكام (٢/٣١٨) : هو رجل من أهل الجلد والقوة على المشي في القفار والاوعار ، يستخدم باجرة معلومة عند المقوم في سفر الحاج ، يسلمه

جملا ، وعليه المحارة ، يركبها شخصان ، يسحب الجمل بهما في الطريق ، ويتولى خدمتهما ، وكل ما يلزم الراكبين المذكورين من طبخ وغيره في اثناء سفرهما ...

زالت بزوال الحج على الجمال .

- قولجي (٣٧٢/٢) : من يحافظ على بيادر الغلال ، يستأجره العشار ...

انتهت بتولي الدولة الجباية مباشرة .

- قاووقجي (٣٧٣/٢) : هو صانع «القواويق» التي انقرضت من نحو نصف القرن الماضي ، وانقرض صناعوها ، ولم يبق الا رسمها ...

هذا ما قاله المؤلفون .

- مجركش : مزركش (٤١٩/٢) هذه الحرفة أصبحت في عصرنا هذا مفقودة بالمرة .. ذلك أن الاقدمين كانوا يرغبون بوضع عروق وقطع مصنوعة من خالص الفضة على المفروشات - جهازات العرسان - فغب أن يصنع الصانع تلك العروق الفضية وينقشها ، تسلم الى المزركش مع وجوه الفرش ، فيوقع عليها تلك العروق الفضية وينقشها ويخيطها ...

- محايري (٤٢٠/٢) : هو من يصنع المحاير وهي من الخشب ، على صفة السرير ، تعمل محامل الحجاج حين سفرهم للحجاز ، وتسمى الواحدة محارة ، تسع الشقة .

- من المحارة فراش شخص واحد ، مع ما يلزمه من الثياب ، ومطرة للماء ، وغيره ...

انتهت بحدوث الوسائل الحديثة لنقل الحجاج .

- مدري : (٤٢٤/٢) : هو من يخرج الحب من التبن ...

قال المؤلفون : وكانت في الزمن السابق رائجة جدا ، وذلك قبل وجود الماكنات التي تخرج الحب ، الحادثة منذ خمس عشرة سنة (أي عام ١٣١٠ على الاقل ، ان لم يكن ذلك قبل) .

- مقوم (٤٦٥/٢) : هو من يتعهد بمشال الركب الحجازي حين قصده السفر لجهة الحرمين الشريفين . وصاحب هذه الحرفة يكون مستعدا لوجود عدد وافر من الجمال تكون عنده ، مع جميع ما يلزمها من عدد ، وهي : الخيم ومعداتها والتخوت ، والمحاير ، والشباري وغيرها ، للركوب بها ، مع وجود أنواع الخدمة ، والتخوت ، من عكامة وغلمان ، وطباخين ، ومهاترة ، وسقاية ، وغير ذلك ..

زالت كما زال غيرها من حرف الحج البري القديم .

- مكاري (٤٦٦/٢) . هي اسم لمن يكون عنده دواب ، من خيل وبغال يؤجرها للركوب ، وحمل البضائع عليها من بلد الى بلد . وكانت هذه الحرفة في الزمن السابق رائجة جدا ، وذلك قبل حدوث الشمندوفير (القطار) بدمشق ... فهذا اجمعه أصبح مفقودا .

- منادي (٤٧١/٢) : هو اسم لمن يرفع صوته بالنداء ، بما يرغب مستأجره في الاسواق ، فتارة يستأجره من يكون فقد له طفل صغير ، أو حاجة مهمة ، أو دابة ، فيدور صاحب الحاجة والمنادي معا في الاسواق والازقة ، وينادي المنادي بما اصطلح عليه من النداء ...

زالت مع تطور وسائل الاعلام : الصحف ، والاذاعة ، والتلفزيون ، وغيرها .

– مهتار (٤٧٤/٢) : المهتار يستخدم عند المقوم حين موسم الحج ·· ووظيفته القيام على خيم الحجاج الموجودين عند المقوم،من أمر نصبها عند النزول الحجاج الى الراحة ، وفكها عند سير الركب ···

انتهت مع ما انتهى من حرف الحج البري القديم ·

– نخاس : هو من يتجر بالرقيق · وهذه الحرفة كانت رائجة ، أما الآن فقد بطلت بحمده تعالى ، وأصبح من يختلس الاتجار بالرقيق نادرا جدا ·· ومتى شعر به يجازى ، ويحرر ذلك الرقيق ·

– لالا (٤٩٩/٢) : هو مربي أولاد الوزراء والامراء والكبراء ··· انتهت بتعميم التعليم الابتدائي ·

– ياسرجي (٥٠١/٢) : هو دلال العبيد والاماء ···

قال المؤلفون : وبهذا الزمن نسخت بالمرة ·

د – شؤون متفرقة

في الكتاب شؤون كثيرة متفرقة نشير الى بعضها ، في حدود المختصر الوافي :

– ففي مادة اجير أوضح المؤلفون أن الصناعات في دمشق كان للمشتغلين بها ثلاث مراتب : المعلم ، والصانع والاجير · وأوضحوا صفات كل واحد منهم (٣٥/١) ·

– وفي مادة اسكافي (٣٨/١) وهو من يخصف النعال القديمة اشار المؤلف الى أن حصر تركة اسكاف ، اخرجوا من بين المتروكات كيسا فيه مئة وخمسون ليرة انكليزية ، ونحوا من خمس وعشرين ليرة عثمانية ، ومن الفضة نحوا من الفي غرش ·

– وفي مادة الاجاتي (٣٩/١) عدد الذين يتعاقبون على العمل حتى يتم صنع الالاجا ، فكانوا : الكبابة – والفتال – والمسدي – والصباغ – والملقي – والمزايكي – والحائك – والدقاق ، واشار الى العلاقات القائمة بين هؤلاء جميعا ·

– وفي مادة انتكجي (٤٠/١) عدد المتعاملين بهذه الحرفة فكانوا : المتسوق – والبائع – والسمسار – والواسطة – والترجمان – والمشتري، وانها تروج في أيام زيارة القدس الشريف ·

– وفي مادة بغجاتي (٤٥/١ – ٤٧) اشار الى أن هذه الحرفةتروج أيام الاعراس وأيام النشاط، واوقات الصفا ، وفي الاعياد ·

– وفي مادة البوايكي (٥٥/١) تحدث عن مساوىء تسليف الفلاحين ·

– وفي مادة بوابيجي (٥٧/١) أشار الى انتعال نساء الشام البوابيج ، ثم الكنادر في عام ١٣٠٩ – ١٩١١ ، وقبل ذلك لم يكن يعرفن ذلك ·

– وفي مادة تراب (٦٨/١) أشار الى أن بعض النساء الجاهلات كن يضعن التراب على أفخاذ الاطفال خيفة حدوث الالتهابات ·

قلت : وقد ادركت ذلك في طفولتي بنفسي ، عند بعض جيراننا ·

– وفي مادة شلاج (٧٢/١) ذكر المؤلف الضرمة شكر ، أي ما نسميه اليوم : البوظة ·

وتوسع في الموضوع في مادة ضرضرمجي (٢/٢٨٢)، وذكر انها محدثة، وكيفية صنعها.

- و فيمادة حبال (١/٩٠) ذكر أصل المثل القائل: «طالعة على قنب دوما» وهو المثل الذي يضرب حينما يخون أحد الشريكين شريكه الآخر، ويظهر الشركة بمظهر الخاسر.

- وفي مادة حمامي (١/١٠٧ - ١١٢) اشار الى أوضاع الحمامات وعمالها، وعددهم، وأوضح عمل كل واحد منهم: الناطور - والتبع - والمصوبن - والقهوجي - والاجير - والوقاء - والزبال.

وتحدث عن حمامات النساء وعائلاتها وهن: المعلمة - الاسطة - والبلانة - وزقاقة البارد - والناطورة.

وأشار الى تحول حمام القيشاني الى سوق. وهو من أجمل حمامات دمشق وأشهرها. وكان تحوله عام ١٣٢٥.

- وفي مادة حكواتي (١/١١٢) أشار الى أن غالب الناس ينكبون على استماعه أكثر من انكبابهم على العلم. وانه كان الناس يأتون بالحكواتي الى البيوت ليؤنسهم بقصصه بأجرة مخصوصة. وقد بطل ذلك من زمان بعيد.

- وفي مادة خياط (١/١٣١) تحدث المؤلف عن آلة الخياطة (الماكينة) وما احدثت من ثورة في عالم الخياطة، وهي من اشعار الفرنج، ذات دولاب، وآلات، مما يبهر العقول...

- وفي مادة دقاق (١/١٤٤) قال المؤلف: ولهذه الحرفة السوق الكائن برأس البزورية من بلدة دمشق المسمى بـ «الدقاقين»، وقد ازيل منذ سنوات، وصار مكانه قهوة. وسبب ازالته ان الجيرة تضجرت من كثرة الدق، وزعم رؤساء البنائين بمجلس البلدية أن هذا الدق يضر بالبنيان والجدر، فازيل لهذا السبب. ثم تفرقت أهل هذه الحرفة الى خانات مخصوصة.

- وفي مادة ديمجي (١/١٤٨) اشار الى انها حرفة رائجة جدا، الا انها كسوة أهل بلدتنا وغيرها من الفقراء.

- وفي مادة دهان (١/١٤٨) ذكر الى حدوث تزيين جدران البيوت بالصور.

- وفي مادة راعي (١/١٥٢) خص المؤلف ذكرها ومنافعها.

- وفي مادة رمال (١/١٥٧) ذكر مساوىء ضرب الرمل، الذي يتعيش به هؤلاء الدجالون.

- وفي مادة زجاج (١/١٦٤) ذكر قيام أول معمل للزجاج عام ١٣٢٨ - ١٩١٠ ثم التآمر على هذه الصناعة الوطنية العظيمة، واغلاق المعمل.

- وفي مادة زمار (١/١٦٨) تحدث عن الجعيدي الذي يلعب القرود ويزمر لها .. (٢/٢٢٨).

- وفي مادة زهوراتي (١/١٦٩) اشار المؤلف الى شرف هذه الصناعة، واشاد بذوقأهلها، وبذوق الشاميين في تزيين بيوتهم بأنواع الزهور، وعنايتهم بها، وان أكثر القائمين بهذا العمل، هم من أهل الصالحية.

- و فيمادة سائس (١/١٧٦) ذكر أن أكثر السياس من المصريين.

– وفي مادة سائل (١٧٧/١) تحدث المؤلف عن أنواع السألة واقسامهم ، وتوسع في سرد احوالهم وأوضاعهم، وكشف حيلهم ودسائسهم، باسلوب مسجع جذاب ، فكان مما قال :

فمنهم من يظهر المشيخة والتلبيس ، ويأخذ مالهم بحيلة التكبيس .

ومنهم من يدعي الافلاس ، ويظهر ورقة تحكي انه من ابناء الناس .

ومنهم من يدخل على الكبار بمجمع تمر أو مجموعتين ، ويدعي انه من اكابر أهل الحرمين .

ومنهم من يأخذ بالسفه والفجور ، وهي من أفظع الامور .

ومنهم من يأخذ بتنكيس رأسه ، وبتصعيد أنفاسه .

ومنهم من يأخذ بالخشوع والخضوع ، وكثرة البكاء والدموع .

ومنهم من يأخذ بالتخليط والرجف ، ويظهر انه من أهل الولاية والكشف .

ومنهم من يحتال على كثير من الناس بكشف البدن والرأس .

ومنهم من تراه كالعلوج ، يظهر للناس انه مقعد أو مفلوج .

ومنهم ... ومنهم ...

قلت : وربما كان هذا البحث جديرا بدراسة مستقلة .

– وفي مادة اشناني (٢١٦/٢) اشارة الى ان بعض الفقراء يغتسلون بهذه النبتة (الاشنان) .

– وفي مادة برازقي (٢١٨/٢) اشارة الى عناية الناس بالبرازق في شهر رمضان .

– أما مادة تهللجي (٢٢٢/٢) فقد أوضح المؤلفون فيها ما هي « الهليلة » ؟ انها عنوان على الاجتماع على قراءة القرآن والاذكار التي تقام بعد وفاة المتوفي .. وشرح المؤلفون ما يقدم فيها من الحلوى كالعوامة (يراجع قلا العوامة ٣٦٢/٢ ، وعواماتي ٣٢٤/٢) وذكر أنواع ما يقرأ كأناشيد الششتري والاكرامية ومنظومة الدردير أو البكري ، ووصف ضجة الذاكرين ، وأوضاعهم وهم قعود أو وهم قيام ..

– وفي مادة شعباني (٢٢٤/٢) اشار المؤلفون الى هؤلاء الذين يدجلون على الناس بلعبهم بالثعابين ... (راجع أيضا : عقاربي ٣١٥/٢) .

– وفي مادة جرادقي (٢٢٧/٢) أكد المؤلفون انها لا تصنع الجرادق ولا تباع الا في رمضان .

– وفي مادة حميماتي (٢٢٩/٢) تحدث المؤلفون عن هؤلاء الذين يطيرون الحمام (راجع أيضا مادة طيوراتي (٢٩٧/٢) .

– وفي مادة راقي والمكبس (٢٣١/٢) اشاروا الى حيلهم ومساوئهم .

– وفي مادة سفره جي (٢٣٧/٢)ذكروا انه لا يوجد الا عند الاكابر في اللوكندات .

– وفي مادة شحاذ (٢٥١/٢) اضافوا الى ملفات مؤلف الجزء الاول في مادة سائل (١٧٧/١).

– وفي مادة شربتجي (٢٥٢/٢) اوضحوا صنعة الذي يحمل الحق ويدور في الاسواق يسقي الناس الشرابات .

– وفي مادة شماع (٢٥٨/٢) ذكروا ان أهل الزوج يحضرون ليلة العرس شمعة كبيرة .

– وفي مادة صناديقي (٢٧٢/٢) تحدثوا مفصلا عن تجهيز العرائس .

– وفي مادة صيدلاني (٢٧٩/٢) بينوا الفرق بينه وبين الاجزاجي – الاول يهتم بالعقاقير العربية القديمة ، والثاني عالم يهيىء العلاجات الاوروبية التي يصفها الاطباء .

– وفي مادة عجائبك عجائب (٣٠٢/٢) يصف المؤلفون صندوقه وما فيه واقبال الصغار عليه خاصة .

– وفي مادة عراف (٣٠٤/٢) يتحدثون عن المنجمين وأباطيلهم (راجع مادة رمال ١٥٧/١) .

– وفي مادة عشا (٣١١/٢/١) أشاروا الى أنه لا يوجد الا عند الذوات وفي اللوكندات .

– وفي مادة عطري (٣١٣/٢) أشاروا الى كساد هذه الصناعة بعد ان زاحمتها (اللاوندة) الاوروبية .

– وفي مادة علبي (٣١٨/٢) تحدثوا عن المجامع التي يصنعها العلبي لوضع اصناف السكاكر الهدايا والاعراس والاولاد المختونين .

– وفي مادة غرابيلي (٣٢٦/٢) أشاروا الى ان صنع الغرابيل من اختصاص النور .

– وفي مادة قانونجي (٣٤٦/٢) تحدثوا عن الافراح في البيوت وعن نوبة الآلات .

– وفي مادة قباقيبي (٣٤٨/٢) ذكروا أنواع القباقيب التي زالت ، سوق القباقبية ، وان القبقاب الحالي مقتبس عن الشراكس .

– وفي مادة قواد (٣٦٩/٢) تحدثوا عن عرصة الاكابر وعرصة العامة .

– وفي مادة فوال (٣٧٠/٢) اشاروا الى ان غالب الفوالين من المصريين .

– وفي مادة قاووقجي (٣٧٣/٢) وصف لجميع أنواع ألبسة الرأس التي كانت معروفة في دمشق .

– وفي مادة قلبقجي (٣٧٩/٢) وصف للقلبق .

– وفي مادة كركوزاتي (٣٨٤/٢) وصف لعمل خيال الظل الظريف .

– وفي مادة كلاّب (٣٩١/٢) حديث عن كلاليب الحبائز وأفاعيلهم .

– وفي مادة كندرجي (٣٩٤/٢) حديث عن دخول الكنادر الى مدينة دمشق .

– وفي مادة مجلخ (٤١٦/٢) اشارة الى ان الذين يتعاطون هذه الحرفة في دمشق هم فقراء الافغان .

– وفي مادة مجرى (٤١٧/٢) وصف لعمله يوم ختان الطفل .

– وفي مادة مزعبر (٤٣٤/٢) تعداد لانواع الزعبرة كالسيمياء والنرنجيات وغيرها ، وحديث عن غزو المزعبرين الافرنج لمدينة دمشق وأعمالهم .

– وفي مادة مسحر (٤٣٩/٢) وصف لواجباته في رمضان .

– وفي مادة مشبب (٤٤٣/٢) حديث عن عزفه على الناي .

– وفي مادة مصور (٤٤٥/٢) اشارة الى تاريخ التصوير بالفوتوغرافيا .

– وفي مادة مضحك (٤٤٩/٢) حديث عن المهرج وعن المسخن ، وعن نفاق امره عند الاكابر .

– وفي مادة مغني (٤٥٩/٢) حديث عن رواجه في الربيع والصيف في المنتزهات وكذلك في البيوت شتاء .

– وفي مادة مقرىء (٤٦٤/٢) حديث عن واجباته في المآتم .

– وفي مادة ممثل الروايات (٤٧٠/٢) حديث طويل عن رواج هذه الصنعة عام (١٢٩٥ – ١٨٧٧) .

هذا ما أستطعت العثور عليه من الفوائد في كتاب قاموس الصناعات الشامية فيما يتعلق بالتاريخ الاجتماعي لمدينة دمشق ، وربما فاتتني اشياء يمكن ان يعثر عليها غيري من الباحثين .

(١) راجع على سبيل المثال مادة بوابيجي ٥٧/١ .
(٢) ٣٧/١ .
(٣) ٣٧/١ .
(٤) ١٣٤/١ وما بعدها .
(٥) ١٥٤/١ .
(٦) ٤٠٣/٢ وهي الفاتحة الواردة ذكرها في ٤٧٨/٢ .
(٧) ٤٠٨/٢ .
(٨) ٤٢١/٢ .
(٩) ٤٦٩/٢ .
(١٠) ٤٨٧/٢ .
(١١) ٦٩/١ .
(١٢) ١٠٣/١ .
(١٣) ٢٢/٢ .
(١٤) ٢٣٠/٢ .
(١٥) ٢٣٩/٢ .
(١٦) ٢٧٤/٢ .
(١٧) ٣٢٣/٢ .
(١٨) ٣٦٤/٢ .
(١٩) ٢٤٩/٢ .
(٢٠) ٣٦٧/٢ .
(٢١) ٤٢٩/٢ .
(٢٢) ٤٧٩/٢ .

الوحدة في الحضارة العربية

د. عفيف بهنسي
المديرية العامة للآثار والمتاحف

عندما نتحدث عن الحضارة فان المعنى يشمل آثار الانسان في مجموعة بشرية معينة نطلق عليها اسم الامة • فالحضارة عطاء قومي له شخصية وطابع الامة التي ينتسب اليها، سواء أكان هذا العطاء معماريا أو تشكيليا أو فكريا أو عقائديا •

ان حصيلة هذا العطاء عبر العصور أو عبر الحضارات المتعاقبة يشكل ما يسمى بالتراث وعلى اختلاف الظروف التاريخية واختلاف التأثيرات الطارئة التي تسببها التحولات السياسية فان هذا التراث يرتبط برباط قوي بمعنى الامة • بل أن خصائص الامة وشخصيتها أصبحت تعرف من خلال مفردات هذا التراث الذي يتجلى على سطح أو باطن رقعة معينة من أرض كانت في فترة معينة مهدا لامة من الامم •

ولسنا من القائلين بالتفوق العنصري لاية أمة من الامم ، ولكن لا بد من القول بأن لكل أمة خصائص متميزة تتجلى في تاريخها وحضارتها •

وتتركب شخصية كل أمة ليس من التكوين العرقي لافرادها ، بل من مجمل عطاءات هذه الامة وعقائدها ، فالدين والفن والعلوم والسياسة والتركيب الاجتماعي هي صورة الامة المشخصة• ومن هنا كان التلازم قويا بين الامة والحضارة ، فالامة قوية وعظيمة ليس بنقاوة سلالاتها ولكن باتساع وعمق حضارتها وثبات هذه الحضارة •

فلقد كانت الحضارة المصرية عظيمة لان الطبيعة والانسان اندمجا في صورة خالدة تجسدت في أوابد راسخة تتحدى الفناء ••• وكانت الحضارة الرافدية والسورية خالدة لانها مستمدة من قوة الانسان المؤمن بالمستقبل المتمثل بالآلهة السماوية •• أما الحضارة الاغريقية والرومانية فلقد كانت عظيمة بمقدار ماكان السبب عظيما، فهي نتيجة دائمة للسؤال الفلسفي والبحث المنطقي أو نتيجة للرخاء المادي،ولقد زالت بزوال الاسباب العارضة ، واذا استمر شكلها فلان ورثة الفكر الاغريقي كانوا يبحثون عن ملجأ لافكارهم المكرورة والموروثة عن سابقيهم •

وهكذا فان الحضارة العربية قد خضعت لفكرة

المصير وليس لمبدأ العلية · وليست فكرة المصير بعيدة عن مفهوم الحضارة في العصر الحديث ، بل هي تأخذ شكلا أكثر وضوحا ، ذلك أن المصير بتفسيره الحديث هو وحدة الفرد مع الكون · أي أن المصير ليس الكون كما هو ، بل هو كما يمكن أن يكون بفعل الانسان ، لذلك فان المصير هو عمل ابداعي مستمر ، وبهذا المعنى يمكن أن نفسر الحضارات والحضارة العربية بصورة خاصة والتي قامت على موقف الانسان من الكون وما وراء الكون وعلى التعامل مع هذا الكون عن طريق الحدس والروح وليس عن طريق المنطق الرياضي والقوانين العلية ، انه يتعامل مع الكون على أساس أن الفرد هو جوهر الكون لان الفرد هو الزمان ، وكل ما عداه هو المكان أو ما يقرب من المكان ، حتى الحيوان فانه يخرج عن معنى الزمان لانه لا يدرك دوره في الحياة · ومع ذلك فان الانسان يخشى ويهاب الزمان الحقيقي ، والزمان بذاته ، لانه العلامة الوحيدة لتجاوز المقدرة البشرية · ولذلك فان الانسان يسعى وراء المثل الاعلى المتجسد بمفهوم الربلكي يتخطى تحدي الزمان· ونستطيع القول أن الحضارة العربية منذ نشوئها في بلاد الرافدين وحتى اليوم ، انما ترتبط بمثل أعلى ، أو بمعنى آخر ، هي من صنع الانسان الذي يسعى وراء المثل الاعلى الذي بتصوره من خلال الاله في السماء ، والذي يسمو على كل قوة وارادة · وهو فوق الزمان والمكان وعلى ذلك فان المصير ذاته مرتبط بالله أي بالمثل الاعلى ، والانسان في الحضارة العربية ما هو الا القوة التي تنفذ ارادة الله ، ولان الله قوة سرمدية خالدة غير قابلة للفناء والضعف ، فاننا نرى الحضارة العربية تتسم بصفة الاستمرار والمقدرة الخارقة على البقاء ، على الرغم من جميع ظروف التخلف والجمود ، ويكفي أن تكون هذه الحضارة ، أقدم حضارة وجدت على الارض ، وأطول الحضارات عمرا ، وأقدرها على التغلب على عوامل الانحطاط والاندثار ·

ومن حسن حظ الامة العربية أنها تحتفظ بتراث حضاري كشفت عنه الآثار المعروفة أقل ما يقال فيه أنه يمتاز عن غيره بالامور التالية :

أولا ـ الاصالة :

تمتاز الحضارة العربية بارتباطها بأمة أصيلة ما زالت قائمة حتى اليوم ومنذ بداية التاريخ ، محتفظة بخصائصها وتقاليدها وعقائدها ولغتها وبملامحها العرقية ·

فلقد سكن بلاد الرافدين وسورية شعوب عربية أطلق عليها اسم الاكاديين والبابليين والعموريين والاشوريين ، ثم الاراميين والمناذرة والغساسنة والعرب المسلمين·وجميعهم من أرومة واحدة لا مجال للطعن فيها ، وهم يتكلمون لغات اذا لم تكن واحدة ، فهي أشبه باللهجات ، فيها من الكلمات الموحدة أكثر ما بينها من الكلمات المختلفة ·

وهذه اللغات او اللهجات ، اذا كتبت بالخط المسماري أولا ، فاننا نرى تطورها عبر الكتابة الاوغاريتية الى الكتابة الآرامية ، والنبطية المصدر الاساسي لكتابتنا العربية القائمة حتى الآن ، وقد بلغت من العمر حوالي ألفي عام على الاقل · واذا دققنا في اسلوب العمارة والفن ، فاننا

نرى أن تقاليد الفن الرافدي استمرت قائمة حتى يومنا هذا مؤثرة ايضا في الفنون الساسانية والبيزنطية ذاتها ، التي كثيرا ما تردد تأثيرها على الفن الاسلامي ، دون أن يخطر في ذهننا الحديث عن مصادرها العربية الرافدية القديمة .

أما العقيدة فلا بد من القول أن العبادة السماوية كانت قائمة منذ عهد الاكاديين في الالف الثالث ، وان ابراهيم الخليل الذي ولد في اوركان قد نقلها الى البلاد المقدسة واصبحت اساسا للعبادة التوحيدية في الديانات كلها .

ثانيا ـ القدم :

لقد كانت آثار الرافدين ومصر فاتحة التاريخ ، وان الحضارة التي وصلت اليها هذه المنطقة العربية كانت من الضخامة والتقدم حتى اننا نعجز اليوم عن مضاهاتها في غناها وتنوعها والتفنن فيها .

ولقد كان على الغرب ان ينتظر آلاف السنين حتى يقيم ما يسمى بالحضارة الاغريقية الرومانية التي تجمدت في قوالب نظرية وهندسية لم تستطع الخروج عنها والتطور الى ابعد منها حتى القرن الماضي .

ويكفي القول أن الحفريات الاخيرة التي جريت على ضفاف الفرات في سورية قد أثبتت ان التجمع السكاني البشري وجد منذ الالف التاسع قبل الميلاد . فلقد عثر على مستوطن بني من اللبن المدعم بالخشب في موقع المريبط ، تبين أن جدران هذه المساكن كانت مطلية بالفريسك الملون ، وعثر في الانقاض على تماثيل صغيرة تمثل آلهة الخصب ، وعلى أواني من الطين المشوي . وهذا يعني أن العبادات كانت موجودة منذ أحد عشر ألف عام ، وان صناعة الطين المشوي كانت قائمة قبل التاريخ ، وان ثمة فنونا على غاية من الروعة الابداعية كانت قائمة ، كل هذا يدل على أن هذه الارض تبقى أكثر مناطق العالم عراقة وقدما .

ثالثا ـ وحدة التاريخ :

ان هذه الحضارة الاصيلة العريقة ، تمتاز بوحدة عبر الزمان مهما اختلفت العصور ومهما تباعدت المناطق ، ويكفي القول ان المنشآت التي تنتشر اليوم في شمالي سورية وهي قباب عالية من اللبن ، هي نفسها بشكلها ومادة انشائها ، القباب التي كانت تقام قبل خمسة آلاف عام ، كما ان مفهوم البيت بانفتاحه الداخلي ، ومفهوم الزيقورة الذي تطور الى مئذنة وأساليب التغطية التي تطورت فيما بعد بشكل عقد أو قوس أو قبة ، أو مفهوم التمثال الرمزي الذي وجدناه عند الاكاديين والاموريين والكنعانيين ، كل هذا يعطينا الدليل على الوحدة التراثية الواضحة بين الآثار على اختلاف اساليبها التي تنتسب الى عصور النطوف أو عبيد أو تل حلف أو الورقاء أو الى عصور البرونز اللاحقة .

رابعا ـ التشكل الكاذب :

ان هذه الحضارة تحتوي شواهد وآثار كانت قد وفدت مع السلطة المحتلة أو الحاكمة ، وقد أدى هذا الاحتواء الى تطعيم الفنون والعمارات المستوردة بالشخصية القومية ، نرى ذلك واضحا

في الحضر (العراق) وتدمر (سورية) وفيلكا (الكويت) وفي معابد دندرة وفيلة (مصر) حيث ظهر التأثير الهلنستي والروماني **بقوة السلطة** مكونا تشكلا كاذبا ، ولكنه لم يلبث أن أخذ طابع الشخصية المحلية التي تميزة عن مفهومه الكلاسيكي المعروف ٠

خامسا ـ وحدة الاسلام :

لقد اعطت هذه الحضارة العريقة خصائصها الى الحضارة العربية الاسلامية التي استطاعت في فترة وجيزة جدا أن تصل الى أعلى عهود الازدهار والى أن تكون شخصية جديدة تأخذ مبادئها من خصائص الامة العربية ، ومن معاني الدين الاسلامي ثم تشع على أكبر رقعة تمتد من الغانج الى الاطلسي ، تدين بدين واحد وتنتسب الى مفاهيم فنية واحدة ، وتتغذى من مصدر قومي عربي ، فلقد وصل الفن الاسلامي الى أسمى آياته في بلاد فارس وبلاد الاندلس ، حاملا معه هوية الامة التي رفعت لواء الاسلام ونشرته بلغتها وخطوطها التي ترسخت في كل مكان ٠

سادسا ـ وحدة الارض :

ان هذا التراث الحضاري الذي تكشف عنه الآثار قد نشأ على أرض محددة تمتد من الرافدين الى النيل ، وهو اذ تجلى بشخصيتين متميزتين ، الشخصية الرافدية ـ والشخصية المصرية القديمة ، فانما يرجع ذلك لاختلاف الظروف الجغرافية والطبيعية فحيث توجد مقالع الغرانيت وتزدهر السهول بخير النيل العظيم ، يعتمد سكان الرافدين على الطين لفقدان الحجر ويتعرضون الى الطوفان الساحق كل عام ٠ ولقد كان لهذه الظواهر اثرها على العقيدة ، فالناس في العراق القديم يراقبون السماء ويستجلون الانواء ويسبحون بحمد الكواكب التي تكشف لهم اسرار الغيب ، أما الناس في مصر فيتأملون النيل الذي يغمرهم بخيرات ثابتة فيرون فيه حبات دموع ايزيس باكية على زوجها ازريس ٠

وتتأثر العبادات بهذا الواقع الطبيعي ، كما تتأثر العمارات والفنون مما يكون شخصيتين متميزتين ٠ على ان اللقاء لم ينقطع بين هذه وتلك ، سواء عن طريق الحروب أو عن طريق المصاهرة وتبادل الهدايا والتجارة ، وتشهد على ذلك اللقى الكثيرة من جعران وأثاث وتماثيل مصرية عثر عليها في سورية كما تؤكد ذلك كتابات ورسوم عثر عليها في واجهات وجدران المعابد المصرية ٠

كما يشهد على ذلك التقارب في الاسلوب الفني الذي نراه واضحا في كثير من الاعمال القديمة أو التأثر الواضح بالفن المصري الذي كانت سورية وسواحلها الغربية حيث استمد الاوغاريتيون والفينيقيون الكثير من مظاهر الفن المصري ٠ وكانوا نقلته الى غيرهم من الشعوب

سابعا ـ وحدة اللغة :

اذا كان الاسلام ذروة من ذروات الحضارة العربية ، فان هذه الحضارة كانت قائمة منذ أن كان الوجود العربي ، بل منذ أن انطلق اسلاف العرب من جزيرتهم العربية الى بلاد الرافدين

سعيا وراء الماء والكلأ فأنشأوا فيها الحضارات المتتابعة التي ما زالت آثارها قائمة حتى الآن ، فالحضارة العربية لم تبتدىء في القرن السابع بل هي موجودة منذ الالف الثالث ق٠م واستمرت تحمل جميع خصائص الامة العربية حتى يومنا هذا ٠ وتتجلى شخصية هذه الحضارة الموحدة في عاملين : عامل وحدة اللغة وعامل وحدة العقيدة ٠

فلقد تبين بعد أن تمكن راولنسون من حل رموز حجر بهابفستون أن الكتابة المسمارية قد استخدمت للغات أخرى غير اللغة السومرية ٠ واذا كانت هذه اللغة ما زالت مستقلة ، فان اللغات الاخرى التي كتبت بالمسمارية كالاكادية والآشورية والعمورية والاوغاريتية لم تكن في الواقع الا لهجات للغة واحدة استمرت شائعة عند الكنعانيين والآراميين والاحباش ، وتعتبر اللغة العربية الحالية ، أكمل هذه اللغات وهي اللغة المقياس لتحديد العلاقة بين هذه اللهجات التي تختلف فيما بينها ببعض المفردات وتتقارب في جذر الافعال وصيغ الماضي والحاضر والضمائر والاعداد وأسماء اعضاء الجسم ، ولقد استطاع الاوغاريتيون والفينيقيون ابتكار الابجدية ، وهي مؤلفة من اثنين وعشرين حرفا مسماريا ، ثم انتقل الحرف من الشكل المسماري الى الشكل اللين لقد سرت اللغة الآرامية في بلاد آشور وطغت على اللغة التي كانت شائعة وهذا ما دعا الى تسمية اللغة الآرامية باللغة السريانية نسبة الى آشور٠ ثم اصبحت الآرامية لغة الهلال الخصيب كله الممتد من رأسين البصرة شرقا وطيبة في مصر غربا ٠ واستمرت هذه اللغة الى عهد المسيح وما زالت قائمة حتى الآن في بعض المدن والقرى العراقية والسورية والمصرية ولكن بلهجات مختلفة ٠ واللغة الآرامية هي تطور للغة الاكادية والعمورية وقريبة من اللغات الكنعانية وهي مرحلة الى اللغة العربية الحالية ، بل ان كتابتها هي أصل الكتابة العربية المعروفة ٠

وعندما ظهر الاسلام وتحقق التوسع العربي الكبير انتشرت اللغة العربية في كل مكان كان العرب فيه هم السادة ، بل لقد استمرت مع استمرار الاسلام والعروبة في فارس والهند وأذربيجان وتركيا وفي بلاد الاندلس ٠ فكان انتشار اللغة العربية رمزا لانتشار الثقافة العربية ٠

ولقد تغلب العرب على الفرس في حملات ضمت أربعين ألفا من الرجال والنساء والاحداث واحتلوا دولة الفرس وسلطانهم وقصورهم وحلت العروبة محل الفارسية وأصبحت اللغة العربية هي السارية وأصبحت لسان الادباء والعلماء ولغة الثقافة ، بل هي لغة أكثر العوام ٠ وعلى الرغم من ظهور النزعة الفارسية في عهد العباسيين وظهور قوى فارسية معادية كالقرامطة ، فان الاعلام من الفرس كانوا يفخرون بانتسابهم الى العربية وما كانوا يكتبون ويؤلفون الا بلغة القرآن ، وأصبحت العروبة كما يقول ايتنهاوسن مرادفا للحضارة التي نشأت في الامبراطورية الاسلامية الواسعة في القرون الوسطى وكانت في البداية قوة عسكرية وسياسية في الجزيرة العربية والتي ارتبطت الى حد كبير برباط اللغة العربية ، (لغة الدين ، والادارة ، والعلم ،

والشعر) ، وهذه الحضارة لم تتكون استنادا لعصبية قومية ، وانما بوجود وعي واضح بين المسلمين في العصور الوسطى على اختلاف قومياتهم،وهو وعي مؤكد بانتمائهم الى حضارة عربية قدسية المنبع ، وربما هذا الامر هو الذي عبر عنه العالم الكبير البيروني (المتوفى ١٠٤٨م) والذي جاء من منطقة متاخمة هي خوارزم (التي تقع اليوم في جمهورية قرقول باك السوفياتية المتمتعة بالاستقلال الذاتي) والذي قال : ان دياتنا وامبراطوريتنا عربيتان وتوأمان ، الاولى تحميها قوة الله ، والثانية تحرسها يد السماء فلطالما حاولت طوائف من الرعايا أن تتألف سوية لاضفاء الصفة غير العربية على الدولة لكنها لم تنجح في هدفها ذاك • لقد كانت اللغة العربية بالنسبة له هي لغة الدين والعلم ، وهي أعظم وسيلة للتماسك ، وقد أعرب عن غيرته على هذا العنصر الحيوي في حضارته بقوله « من الافضل له أن يشتم بالعربية من أن يمتدح بالفارسية » ولقد استمرت الكتابة العربية سارية في اسبانيا بعد نزوح العرب عنها وكان المسلمون المغاربة (الموريسك) يتداولون هذه الكتابة في نطاق الادب والتعاليم الدينية وقد اطلق عليها اسم الادب الاعجمي أو الجبيادو Literatura aljamiado ، ولقد عثر على مخطوطات كثيرة جدا في أرغن وهي محفوظة حاليا في مكتبة في مدريد ، وتضم هذه المخطوطات وثائق قانونية واشعارا في مدح الرسول وصلوات وأساطير وقصصا كتبت كلها بحروف عربية ولكن بلغة اسبانية، وترسخت المصطلحات العربية في اللغة الاسبانية وما زالت حتى اليوم ، فلقد ألف دوزي وانغلمن معجما للالفاظ الاسبانية والبرتغالية ذات الاصل العربي ويذكر سيديو Sédillot « أن اللهجات السائدة لولاية اوفرن وولاية ليمون الفرنسيتين مليئة بالكلمات العربية، وان اسماء الاعلام فيهما ذات مسحة عربية » •

ثامنا ـ وحدة العقيدة :

أما وحدة العقيدة فانها تتجلى في العبادة التوحيدية التي وجدت جذورها الاولى منذ بداية وجود الرافدين •

منذ الالف العشرين قبل الميلاد تعرضت الجزيرة العربية لتغيرات مناخية حبست عن أجزاء خصبة منها المطر ، ثم توالت الفترات الجافة على هذه المنطقة مما أدى الى هجرات متواصلة نحو الشمال لعل أحدثها هجرات قبائل شمر وعنترة، وكانت قبلها قد نزحت قبائل أخرى عرفت بالمناذرة والغساسنة وقبلهم الانباط ، والتي شكلت حضارات مازالت آثارها واضحة في الحيرة (العراق) وبصرى (سورية) والبتراء (الاردن) • على أن الهجرة الاكثر أهمية كانت في الالف الثالث ق•م حيث استطاع الاكاديون الذين نزحوا من أطراف الجزيرة العربية الشرقية الى جنوبي وادي الرافدين ، حيث وجدوا شعبا أطلق عليه اسم سومر ، كان قد وصل الى مستوى جيد من الحضارة منذ منتصف الالف الرابع قبل الميلاد ، فلقد عرف الزراعة والرعي ، وعرف صناعة المعدن والتجارة مع مصر ووادي السند ، ولقد عرف السومريون الكتابة التي اطلق عليها اسم المسمارية وهي حفر على ألواح الطين بمسمار كما عرف السومريون التقويم والحساب والموازين وأقاموا المعابد على شكل صوامع

(زيقورة) ذات طبقات في أعلاها حرم لاله الهواء أنليل ولقد عثر على آثار هذه الزيقورة في نيبور ·

وما زالت الابحاث جارية للتأكد من هوية السومريين وتحديد منشأهم ، وتفيد الابحاث الاخيرة التي نتجت عن حفريات في المنطقة الشرقية في العربية السعودية عن احتمال هجرات في الالف السادس ق·م أي في نفس العصر الذي ازدهرت فيه حضارة عبيد في جنوبي العراق ولقد استطاع الاكاديون فيما بعد السيطرة على بلاد سومر بقيادة صرغون الذي وصل بتوسعاته من الخليج العربي الى شواطيء البحر الابيض المتوسط وقام حفيده نرام سين بمتابعة فتوحاته في الفرات الاعلى ولعل صرغون كان أقدم زعيم عربي أكادي استطاع ان يقيم حضارة واضحة أصبحنا نعرف عنها الكثير من خلال الرقم والاختام والحفريات الاثرية ، وكان مركزها الاساسي مدينة أور · وفي مناطق مختلفة من بلاد الشام ، كانت شعوب عربية تعيش منذ الالف الخامس ق·م أطلق عليها فيما بعد اسم العموريين (أي سكان المغرب) ولقد أثبتت الحفريات الاخيرة في تل الحريري (ماري) وفي تل مرديخ (ابيلا) وفي تل عطشانة (الالاخ) وفي عمريت وغيرها على حضارة متقدمة وبعيدة المدى ولعل المكتشفات المقبلة ستبين حقائق مدهشة ، ففي عام ١٩٧٤ عثر الاثري مورتغارت في تل خويرة (شمالي سورية) على كتابة أبجدية ترجع الى الالف الثالث فاذا تأكد ذلك فان هذا سيقدم الدليل على عراقة الحضارة السورية القديمة مما يجعلها تسبق الحضارة السومرية · ثم ظهرت دولة بابل في منتصف القرن الحادي والعشرين والتي أنشأها العرب العموريون أنفسهم وكان حمورابي ١٩٤٨ ق·م ثاني حاكم عربي عظيم بعد صرغون اشتهر بطول حكمه (٥٧ عاما) وبعهده العادل الذي قام على قوانين موضوعة ما زالت مصدرا لجميع القوانين حتى اليوم ·

ومنذ منتصف الالف الثاني ق·م أقام الآشوريون دولتهم شمالي الرافدين على أساس حربي دفاعي لصد عدوانات البابليين والحثيين والميتانيين ، وكان الآشوريون من العرب الذين نزحوا من الجنوب واختلط بهم الآراميون العرب الذين كانوا قد انتشروا في أنحاء سورية وبخاصة في الفرات الاوسط وفي الساحل السوري · وكانت المدن العربية الكنعانية قد اشتهرت بملاحتها الواسعة التي قامت على صناعة السفن الضخمة، فانتقل التجار الفينيقيون الى شواطيء بعيدة وسيطروا على طرق الملاحة في البحر الابيض المتوسط وكانت لهم مراكز في قبرص وصقلية وسردينيا وكورسيكا وفي مالطا واسبانيا وعلى طول الساحل الشمالي الافريقي وكانت مدينة قرطاج في تونس أهم مركز فينيقي أو بونيقي كما هو معروف في شمالي افريقية · كما وصل الفينيقيون الى شواطيء الخليج العربي وما زالت قائمة مدن تحمل اسمها الفينيقي القديم · ومن الفينيقيين أخذ الاغريق آلهتهم واستمدوا من فلاسفتهم وادبائهم ومشرعيهم وعلمائهم ويذكر هيرودوت أن الفينيقيين هم الذين اكتشفوا ليبيا عندما طافوا حول افريقيا عام ٦٠٠ ق·م · ويتحدث المؤرخون عن رحلة حانون القرطاجي في غربي افريقية ·

ولقد اتجه الرافديون القدماء الى السماء يراقبون الكواكب ويقدسونها ويستجلون اسرار الكون من خلالها وكانت الزيقورات صوامع يسلكها الناس صودا على طبقات كل طبقة تمثل كوكبا مقدسا يتدرج في الاهمية حتى يصل الى القمة حيث يمثل الاله شمش أي الشمس وهناك يقف المتعبدون لتقديم الاضاحي الى السماء آنو وهي أقدم اشارة للعبادة التوحيدية في الوجود . ولقد كان الكنعانيون في رأس الشمرة وفي المقاطعات الفينيقية والبونيقية (شمالي افريقية) يعبدون الاله (ايل) وهو الاله العلي العظيم اله الغيث والمطر والخصب القادر على كل شيء وارادته فوق كل ارادة وهو يحمي البشر من الشر والقحط .

ويمارس الاوغاريتيون عبادة هذا الاله ايضا كما أن الآراميين الذين عاشوا في داخل سورية وعلى ضفاف العاصي وفي الجبال كانوا قد جعلوا (ايل) في مرتبة سامية بين الآلهة .

ولقد اتخذ الهكسوس وهم من العمالقة العرب البائدة الاله (ايل) ولعلهم نقلوا ذلك الى مصر حيث تبناه أخناتون على شكل اله الشمس آتون الواحد الرحيم ويؤكد ذلك أن ايل عند السوريين القدماء كان مقره الشمس في حالة الغروب وكان ايل اقرب الى مفهوم الله . ولقد آمن الآشوريون بالههم التقليدي آشور وهو باعتقادهم اله الشمس ايضا ولقد رمزوا اليه بصورة الشمس المجنحة ، وكانوا قد أخذوا ذلك عن الحثيين الذين أخذوه بدورهم عن مصر ، كما أخذوا اله الحب عشتار عن البابليين .

□ □

موارد الوهم في تخطئة الكتاب

صلاح الدين الزعبلاوي

لاشك أنه ليس على كاتب العربية أن يكون من جهابذة اللغة ، الراسخين في علومها ، المتضلّعين من فنونها ، المحيطين بأصولها وفروعها ، لكنه لامعدل له على كل حال، أن يلم بأهم قواعدها، ويتعرف أظهر مذاهبها ،ويتبيّن أشهر أساليبها ،ذلك لتبرأ كتابته من شوائب الخطأ ، وتتنزه عن الابتذال واللغو ، وإلا فقد ينأى عن الفصحى ، أي نأي ، ويدنو من العاميّة، أيّ دنو ! واذا استقرّ هذا ، فلسنا مع النقّاد الذين أسرفوا على أنفسهم فاعتزّوا بعلمهم وإحاطتهم ،وقطعوا بفساد كثير مما جرت به أقلام الكتاب ، وطاعت به ألسنتهم ، بلا تأمل ، أو فضل تثبت وتحقيق . فقد اقتادهم هذا أن يحجروا من كلام الكتاب ، الصحيح الظاهر ، ويمنعوا من أساليبهم المستقيم السائغ ، وفي ذلك مافيه من تنفير للكتاب بلغتهم ، وصرفهم عن إتقانها ، وثنيهم عن المضيّ في تدارك ماينبغي أن يُحصوه من مسائلها ، أو يستنبطوه من حقائقها ، من حيث قصدوا الى إغرائهم بها ، وإرهاف عزائمهم على تحصيلها .

ـ فمن موارد الوهم في التخطئة مثلا أن يوجب النقاد على الكتاب الأخذ بالأشهر والأفصح، والصحيح أنه من أخذ بالجائز الذي لم يناهز حدّ الكثرة والشهرة، فقد أخطأ المشهور ، لكنه لم يُخطىء الصواب على كل حال . وليس يُحمل الكتاب على تخيّر أجود اللغتين في سائر مايتفق لهم من صنوف الكتابة . ودونك ماجاء في المزهر للسيوطي ، وفي الخصائص والمحتسب لابن جني ، حول هذه المسألة : ففي المزهر (١/١٢٦) : (قال ابن درستويه : وليس كل ماترك الفصحاء استعماله بخطأ ، فقد يتركون استعمال الفصيح لاستغنائهم بفصيح آخر ، أو لعلّه غير ذلك) .

وفي الخصائص (١ ، ٢ ، ٣٢) (اللغات على اختلافها كلها حجة ، والناطق على قياس لغة من لغات العرب مصيب غير مخطىء) وفيه : (إعلم أن المذهب في هذا ونحوه أن يُعتقد الأقوى منهما مذهباً ، ولا يمتنع مع ذلك أن يكون الآخر مُراداً) ، وفيه : (والقول في هذا واضح ، ألا ترى أن العالِم قد يجيب عن الشيء الواحد أجوبة ، وإن كان بعضها أقوى من بعض ، ولا تمنعه قوة القويّ من إجازة الوجه الآخر ، إذ كان من مذاهبهم وسمت كلامهم) .. وفيه : (ووجه الحكمة في الجمع بين اللغتين القوية والضعيفة في كلام واحد ،

أن يثروك أن جميع كلامهم وإن تفاوتت أحوالُه فيما ذكرنا وغيره ، على ُذكر منهم ، وثابت في نفسهم ... وهذا يدلك أنهم قد يستعملون من الكلام ماهو آثر في نفوسهم منه ، سعة في التفسّح وإرخاء للتنفس) .

وفي المحتسب (١/٢٣٦) : (ليس ينبغي أن يطلق على شيء له وجه من العربيّة قائم" ، وإن كان غيره أقوى منه ، أنه غلط) .

— ومن موارد الوهم في التخطئة أيضا أن يتعلق النقاد بظاهر النص" ، المُدرج في المعاجم على قصد وإجمال ، وعلى اختصار وتجريد ، وفي غير تبسّط وتدفّق وانطلاق . وظهورُ دلالات الكلم مرهون بالوقوف على قرائنها المختلفة ، والإطلال على مناحيها المتعددة ، وتبيّن مواقعها المتباينة في التركيب والاستعمال . ومن هنا كان من الخطل أن يظن" ظان أن عُدة اللغوي : معاجم اللغة وحدها ، وأن مظانه : نصوصها المنقولة ، ومصادره : كتب النحو ومطو"لات الصرف وما اليها ، والصحيح أن مراجع اللغوي : كل ماذكر : ، وهي الى هذا وذاك : متون التفسير والحديث ، وكتب الأدب ، ودواوين الشعر ، وصحف الرسائل والر"قاع ، ومصنفات القوم في التاريخ والأخبار والأسفار ، بل مؤلفاتهم في مختلف العلوم والصناعات .

فعلى الناقد ألا" يتلمّس معاني الكلم في نصوص المعاجم وحدها ، بل عليه أن يبتغيها من معالمها الأخرى ويتطلبها من مآتيها المتباينة ، ويؤديه هذا الى البحث عن أوجه تصر"ف الكلم في متنوع النصوص المنقولة ، وحدود دلالاتها في سائر الموضوعات المطروقة . كما يؤد"يه الى التماس وجوه التقلّب التي تلابسها على مر" الزمن وصور التجدد في أغراضها ومراميها ، وتحو"لها عن أرومتها التي انبعثت منها ثم تناءت واتبذت حتى خفي أمرها . وأنت قد تنكر هذا التجدد والتحو"ل في معانيها ، أول الأمر ، لو اتفقا لكمجر"دين ، وتسيغهما بالبشر والإيناس ، لو ظفرت بهما في وضع من التركيب تستشف بقرائنه وجه الانحدار اليهما .

ومن موارد الوهم في التخطئة . أن يلمح بعض أصحابنا مثالا قد ذكر في المعاجم على جهة التمثيل فيحسب أنه على جهة الحصر والتخصيص ، ويقطع بقصر ما جاء منه على المثال المنقول ، وهو لو أعمل الفكر وعارض النص" بالنص ، والتمس تصر"ف المعنى وتدر"جه في مختلف كتب الأدب ، لأدرك خطأ ما ذهب اليه ، في غير كلفة أو عناء .

ومن موارد الوهم . أن يقسو بعض النقادفينكرعلى الكتّاب مالا ُيشك في صلاحه وصحته من صور المجاز لشيوعها في اللغات الأجنبية ، بل يشتد" حتى لا تطيب نفسه بأسلوب الكلام حتى يُسمع مجازه عن العرب بنصّه ولفظه ، وهو مايستبعد الأخذ به والتعويل على سننه . فالذي تلاقت على قبوله أكثر الأئمة أنه لايُشترط في الكلام المتجوز به أن يسمع أو ينقل ، بل يكفي فيه أن يُحمل على مألوف العرب في تجوزاتهم . وهم قد حددوا جهات المجاز وتقلّباته في كثير من التبسط والتمحيص ، ليسهل الأخذ بما نهجوه ، ويتهيأ النسج على غرار ما حكوه ، فيكون هذا عيارا في جميع مايرد على الكتاب من صوره .

★ ★ ★

هذا وأكثر ما يعيب به النقاد كتابنا تصر"فهم في استعمال حروف الجر" ، في غير تدبر أو تحقيق . وسترى أنهم قد أنكروا عليهم في ذلك ، سائغاً لاشبهة فيه لناظر ، ومستقيماً لامطعن به لغامز ، وسنقصر الكلام هاهنا ، على مايتصل بهذه الحروف ، ونأتي

بأمثلة وشواهد وبينات تفصح عما أردنا وتبين عما ذهبنا اليه ، وسنجلو في مقالات تالية مايظهر مكنون ما عوّلنا عليه ومضمون ما اتحيناه فيما قدّمنا من موارد التخطئة ، ليستبين القصد ويستبصر الطريق •

فالقاعدة في استعمال حروف الجر أن يؤخذ فيها بالسماع والقياس جميعاً • أمّا السماع فيأتي النصّ عليه في المعاجم ، وهي لاتتجاوزه غالباً ولا تتعداه • وأمّا القياس فمرجعه كتب النحو والأمهات اللغوية والأدبية ، ففيها وجوه تصريف هذه الحروف في دلالاتها المطّردة • فاذا نصّ المعجم على استعمال فعل بحرف من الحروف سماعاً ، دلّ ذلك على وقوع الفعل على الوجه المخصوص الذي حدّد له، فاذا أريد للفعل أن يتصرّف فيبين عن وجوه أخرى فلا بد من إعمال حروف استقرّت فيها دلالات هذه الوجوه طردا وقياسا •

وقد يكون من هذه الحروف المُعملة قياسا ماينحو بالفعل الى النحو الذي يُفضى اليه الحرف المنصوص عليه سماعاً ، فيستعمل الفعل بحرفين قياسي وسماعي لقصدين متماثلين •

فأنت تقول سماعاً : أجبت عن السؤال ، ولكنك تقول الى ذلك : أجبت في الكتاب ، وبالكتاب، وأجبت عنك ، وعلى ورقة بيضاء ، ولأمر مهم ، وعن الأسئلة من أولها الى آخرها ، كل ذلك على جهة القياس والاطّراد •

وهكذا تقول : (أعاونهم على إنشائها ، وأساعدهم على إدارة شؤونها) على التعدية السماعية ، ولكنك تقول قياسا : (اعاونهم في إنشائها وأساعدهم في إدارة شؤونها) و (في) ها هنا للظرفية المجازية ، وتخريج الكلام أن (المعاونة) تأتت في (الانشاء) ، وأن (المساعدة) اتفقت في (الادارة) • أما المعاون عليه في الأول ، والمساعد عليه في الثاني ، فهو (الصعوبة) التي تعترض (الانشاء والادارة) غالبا ، وإنما اكتُفي من ذكر (الصعوبة) بذكر متعلّق يُغني عنها لظهور الغرض به • ونحو ذلك ما جاء في التنزيل : (وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر ـ الأنفال / ٧٢) فانه على الظرفية المجازية ، والمستنصر عليه هاهنا أعداء الدين ، وقد حُذف لظهور الغرض بما ذُكر •

وانظر الى قول الرسول الأعظم ﷺ : كل سلاقى عليه صدقة كل يوم يُعين الرجل في دابته يحامله عليها ويرفع عليها متاعه ، صدقة) • قال الشيخ العدوي الحمزاوي في شرح صحيح البخاري : (قوله يحامله بالحاء المهملة أي يساعده في الركوب) •

وفي حديث الأضحية : (كلوا وأطعموا وادّخروا فان ذلك العام كان بالناس جهد فأردت أن تُعينوا فيها) • وقد قيل إن الضمير في (فيها) عائد الى المشقة المفهومة من الجهد ، فيكون تحرير القول : (فأردت أن تعينوا الفقراء في المشقة) ، وهكذا قول عليّ رضي الله عنه : (فمن صدق بهذا فقد كذب القرآن واستغنى عن الإعانة بالله في نيل المحبوب ودفع المكروه) •

وغريب بعد هذا أن يمنع الأستاذ أسعد داغر قول القائل (يعاونهم في إنشائها ، ويساعدهم في إدارة شؤونها) ، قال : (وتعدية هذين الفعلين بفي خطأ صوابه بعلى) ، والصحيح ماذكرناه ، وليس الأمر على ماقال ، فانظر الى قول قيس بن الحطيم الأوسي :

وساعدني فيها ابن عمر بن عامر : زهيرٌ فأدّى نعمةً وأفاءها •

قال أبو علي المرزوقي في شرح ديوان الحماسة (١٨٦) : (ويكون المعنى ساعدني في هذه الطعنة زهيرُ بن عمرو •••) • وليست (في) في العبارة بدل

(على) ، وإنما أغنت مغناها ، وانظر الى قول المرزوقي أيضاً (١١٧٤) : (استعن بالصبر في كل ما تزاوله وتراوده ، فان الأمور اذا انسدّت طرقها وأعيت الحيل في تحصيلها ، فان الصبر يسهل مدارجها ، ويوسّع موالجها ، ويفتح ما انغلق منها ، ويفتق ما ارتتق من أسبابها) ، فان (الاستعانة) بالصبر إنما أرادها : في كل أمر يُزاول أو يُراود ، فأغنى (في) في الكلام عن (على) واستقام القول •

وأغرب من ذلك وأذهب في العجب ، اعتراض الأستاذ داغر على قول القائل : (ويبذل عنايته في طبعها) ، قال : (والعناية إنما تكون بالشيء لا فيه) • ونحن لا نعارض الأستاذ في أن تعديه الفعل إنما تكون بالباء ، لكنا ننازعه في تعليق الحكم بصحة قول القائل ، على استعمال التعدية السماعيّة ، ذلك أن تحرير القول يمكن أن يكون : (ويبذل في طبعها عنايته) فيكون تعلّق (في) بـ (البذل) لا بـ (العناية) ، قال الحريري في مقدّمة مقاماته : (وبذلت في مطاوعته جهد المستطيع) •

هذا وقد ذهب الدكتور مصطفى جواد عضو المجمع العراقي في رده على الاستاذ داغر المذهب الذي نحونا اليه في تصويب قول القائل (يعاونهم في إنشائها) لكنه قال : (فقال الناقد صوابه : على انشائها ، لأنه لم ير تعدية عاون في المعاجم اللغوية ، وهي غير مستوفاة البحث ولا مستقصاة التحري) •

أقول لا وجه ثمة لما عاب به الدكتور جواد معاجم اللغة في هذا ، لأن المعاجم لم تؤلف لتذكر القياس المنقاد في كل شيء ، وانما قامت لتنص على السماع ، بل على ما لا يتأتى الاهتداء اليه بالقياس• وقد تشير الى القياس لاستبانة وجه من الوجوه ، أو التنبيه على ما يقع فيه اللبس أو الخفاء فتكشف عنه • لكنها لا تعاب ولا تنتقص بالقصور عن الاستيفاء اذا أغفلت القياس الظاهر المنقاد في الاصل • وانما يؤخذ القياس المطرد ويعرف مسراه بالاطلاع على ما قرره النحاة في أسفارهم بالبحث والاستقراء •

واذا أريد الاستظهار على صحة القول (يعاونهم في إنشائها) في المعاجم نفسها ، فانما يراجع فيها ما جاء عن معاني (في) ومصارفه • ففي الصحاح مثلا : (في ، حرف خافض ، وهو الوعاء والظرف ، وما قدر تقدير الوعاء ، تقول : الماء في الإناء ، وزيد في الدار ، والشك في الخبر) • فـ (في) في قولك (الشك في الخبر) ، كـ (في) في قولك (المعاونة في إنشائها) ! وخلاصة القول أنه لابد في الحكم على صحة تعدية الفعل بحرف من الحروف ، من مراجعة كتب اللغة من أجل استقراء وجوه استعمال الحروف الجاره في المعاني المطردة قياساً ، واعتماد نصوص المعاجم والأمهات للوقوف منها على ما خص به الفعل من هذه الحروف سماعاً • ولا يمنع استعمال الفعل بحرفه السماعي المنصوص عليه في وجهة معينة ، أن يجيء بالحرف القياسي في منحى يشابه الوجهة المذكورة أو يدانيها ، وكل ذلك يحتاج الى تروئة وتدقيق •

هذا وقد قضيت العجب كيف وقع الخلاف من النقاد على تعديه (أسف) ، هل يصح أن يعدى باللام كما يعدى بعلى؟ فنص المعاجم أبداً على تعديه (أسف) بعلى • قال صاحب الصحاح : (الأسف أشد الحزن ، وقد أسف على ما فاته ، وتأسف أي تلهف ، وأسف عليه أسفاً ، أي غضب) ونظيره قوله تعالى : (يا أسفا على يوسف ـ يوسف/١١١) • وكذا قول الشاعر :

غـير مأسوف على زمـن

ينقضـي بالهـم والحـزن

وقد اقتاد هذا كثرة الناقدين الى تخطئة القائل (أسفت له) وجعل الصواب (أسفت عليه). قال الاستاذ أسعد داغر: (ويقولون هذا مما يؤسف له، وهو شائع كل الشيوع، فيعدون أسف باللام ولـم يسمع تعديته عن العرب الا بعلى). وقد تابعه في ذلك الدكتور مصطفى جواد فقال في كتابه (دراسات في فلسفة النحو ..): (فانه يقال أسف على الانسان وعلى الشيء لا أسف لهما). وقد أتى بشواهد من الشعر والنثر على تعدية الفعل بعلى. وخالف الاستاذ محمد العدناني صاحب (معجم الأخطـاء الشائعة) جواداً وداغراً فأتى بما يشير الى تعديه الأئمة الفعل باللام كقول أبي علي القالي في نوادره: (فوجـد زوجته الثانية قد ماتت حزناً عليه وأسفاً لفراقه). فما صواب المسألة اذاً؟

أقول اذا عدي الفعل في المعجم بحرف فليس يلزم من هذا ألا يتعدى بسواه اذا اقتضى معناه ذلك. وقد وقدفصلنا القول بما قدمناه، وأشرنا اليهغيرمرةفيكتابنا (أخطاؤنا في الصحف والدواوين) المطبوع عـام (١٩٣٩). ولننقل هنا ما حكاه الامام السيوطي في الأشباه والنظائر عـن أبي نزار (٣/١٧٦)، قال: (ان الفعل قد يتعدى بعدة من حروف الجر على مقدار المعنى المراد من وقوع الفعل،لأن هذه المعاني كامنة في الفعل، وانما يثيرها ويظهرها حروف الجر). فمـا معنى الأسف في الأصل؟ الأسف بمعنى الحزن تارة والغضب أخرى. قال ابن القوطية: (أسف أسفـاً حزن، وأيضاً اشتد غضبه). وقال الراغب في مفرداته: (الأسف الحزن والغضب معاً، وقد يقال لكل واحد منهما على الانفراد). وجاء في محاضرات الأدبـاء للراغب الأصبهاني (٤/٥٠٦): (سئل عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، عـن الحـزن والغضب، فقـال: أصلاهما واحد وذلك وقوع الامر على خلاف المحبة، وأما فرعاهما فمختلفان، فالمكروه من فوقك ينتج حزناً، ومن دونك ينتج غضباً) وجـاء فيه أيضـاً: (قال يعقوب الكندي أسباب الحزن فقد محبوب أو فوت مطلوب). ومثل ذلك الأسف، فكما يكون مما اتفق على المرء من فقد محبوب أو فوت مطلوب، فقد يكون مما فرط منه من فعل فكرهه بعد أن فعله، فيقـع (أسف) موقع (ندم) أيضا. ففي الافصاح: (الندم الاسف، ندم عليه يندم ندما وندامة وتندم: أسف، وندم على كذا: كرهه بعدما فعله فهو نادم). وفي المتن: (ندم يندم ندما وندامـة: أسف، فهـو نادم وندمان).

فاذا صح هذا، وعديت (حزن) و (أسف) بعلى سماعاً، كما عديت (تأسف وتلهف وتحسر وغضب وندم وتندم وصبر وجزع ..)، وأنت تقصد أن تذكر الامر الذي كان الحزن والاسف بسبب فقده أو فوته فلك أن تختار اسلوباً آخر تقول به على القياس (حزنت لفقد فلان وأسفت لفراقـه) أي بسبب ذلك أو مـن أجل ذلك. فاظر الى ما جاء في محاضرات الادباء للراغب: (اذا أبصروا حالي ولم يأسفوا لها: ولم يأنفوا منها أنفت لهم مني ــ ٣/٣٨) وقوله: (المتأسف لقلي حبيب له ــ ٣ / ٧٦)، وما جاء فيه أيضاً: (قال الشاعر: فقد حزنتْ لفقدهم الشهورُ ــ ٤/٥١٦).

وتأمل ما جاء في شرح ديوان الحماسة لأبي علي المرزوقي: (لا آسف لما أرى من الحرمان أسف من يبكي ويبكي غيره) وقوله: (الصدر من البيت تحسر

لما أصاب الفقراء واليتامى بعد موته) وقوله : (وهذا الجزع الذي نهاها عنه ليس يريد به الحزن لفقده ، وانما يريد الحزن لسلامة الواتر /٨٦٦) .

واظر الى قول مهيار ، وقد استشهد به المعجم الكبير ، على تعدية الفعل باللام :

أسفت لحلم كان لي يوم بارق
فأخرجه جهل الصبابة من يدي

ومعناه أن الشاعر قد تحسر من أجل حلم كان لـه ثم خرج من يده ، فبات يتلهف لفقـده .

هذا وليس العجب أن يلحنوا قول القائل (أسف له) وهو القياس المنقاد في استعمال اللام ، بل العجب أن يحتاج لتصويب هذا، الى دليل يؤنسه وشاهد يثبته. فغريب أن ينحو المعجم الكبير هذا النحو فيستشهد بشعر مهيار الجواز ــ أسف له . وأذهب في الغرابة وأمضـى قـول الاستاذ محمد العدناني في معجم الاخطاء الشائعة : (وانفرد المعجم الوسيط بقوله : أسف له : تألم وتندم ، دون أن يذكر المعجم أن مجمع القاهرة وافق على ذلك .. ثم أصدر المجمع نفسـه الجزء الأول من المعجم الكبير ، وقال فيه : أسف له أسفاً وأسافة تألم وندم ، واستشهد بقول مهيـار : أسفت لحلم .. ونحن لا نستطيع الاعتماد على قول شاعر طوق الحمامة : فيا عجبا من آسف لامرىء ثوى: وما هو للمقتول ظلما بآسف ، لأن الضرورة الشعرية قد تكون السبب في الاتيان باللام بعد آسف ، بدلا من على ، ولكنا نعتمد على قول المعجم الكبير ، وأبي علي القالي) .

أقول إن (أسف له) عربي فصح لا غبار عليه ، وليس هو في حاجة الى مجمع يقر صوابه ويدل علـى سداده ويشهد بصحته . واستعمال اللام فيه قياس لا شأن فيه للسماع كما أسلفنا . وهو كقولك (تأسفت له وحزنت له وجزعت لـه وأسيت له وصبرت لـه وتوجعت له ..) .

وقد أردف الاستاذ محمد العدناني (ونعتمد أيضاً على رأي ابن جني الذي أفرد بحثاً رائعاً في الخصائص عن استعمال الحروف بعضها مكان بعض ، يجيز لنا أن نقول : أسف عليه وأسف له ، راجع مادتي : لا يخفى على القراء ، واعتقد ، في هذا المعجم) . أقـول ليـس لقولك : (أسفت عليـه وأسفت لـه) صلـة بالباب الذي عقده ابن جني في الخصائص (٢/ ٣٠٦ ــ ٣١٥) على استعمال الحروف بعضها مكان بعض . وإنما يرد مضمون الباب المذكور الى ما أسموه بحمل الكلام على المعنى أو التضمين والاشراب . وليس شيء مما ذكرنا أو بسطنا القول فيه ها هنا من قبيل الحمل على المعنى أو التضمين الذي قصد اليه ابن جني في كلامه أو عناه الأستاذ العدناني بقوله : (راجع لا يخفى علـى القراء ، واعتقد ، في هذا المعجم) . فالكلام الـذي قلناه في جواز (أسفت له) إنما هو في جملته وتفصيله تصريف لحروف الجر مع الفعل في المعاني التي عرفت بها ، واجراء لها في مجاريها التي رسمهـا النحـاة بالاستقراء ، وفصلوا القول فيها ، في مختلف المظان .

وشيء آخر لابد من التنبيه عليه . فقد عرّف المعجم الوسيط والمعجم الكبير (أسِف) ، فلم يأت تعريفهما جامعا مانعا كما يقول أصحاب المنطق ، وهما معجمـان حديثـان أشرف علـى تأليفهما المجمـع القاهري . فقد جاء فيهما (أسف له : تألم وتندم) ، وهو تعريف فيه من القصـد والاجمـال ما يوجب اللبس ، فاذا قلت (أسفت للأمر : تألمـت وتندمت)

لم يسغ قولك دوما ، واذا قلت (أسفت للرجل : تألمت وتندمت) ، أشكل كلامك أيضا ، والا أفيصح قولك مثلا (أسفت لفلان أو أسفت لفراقه : تندمت) ؟ ذلك أن (التندم) لايتأتى الا من عمل قام به الآسف نفسه، تقول : (أسفت لما فرط مني أي تندمت) ، قال ابن القوطية : (ندم ندما وندامة كره ما فعله) لا (ما فعله سواه) ! ففي كل (تندم) أسف أي حزن ، وليس في كل (أسف) تندم ، ومن هنا كانت نصوص المعاجم (الندم : الأسف) كما نقلناه لك عن الافصاح والمتن ، لا العكس .

ولنعد الى ماكنا عليه وبسبيله من الكلام على قياس استعمال (اللام) فيما جعلت له ، قياسا لاينكسر ، فأنت تقول (صبرت على البلاء واصطبرت) ولكنك تقول أيضا (صبرت لما أصابني منه واصطبرت)، قالت امرأة من بني عامر :

سيتركها قوم ويصلى بحرّها
بنو نسوة للثكل مصطبرات

قال أبو علي المرزوقي في شرح هذا البيت (٧٤٩) : (وقد تعود الثكل أمهاتهم ، فلا يجزعن لقتلهم ، وألف الأيمة نساؤهم فلا يحزن لموتهم . ومعنى للثكل : من أجله) . وأردف : (وهذه اللام في هذا الموضع قد تؤدي معنى على فاعلمه) . وانظر الى قول المرزوقي (٩٨٩) : (ولاشيء من أعلاق المثنى يُحزن له اذا أفيت (١)) .

واذا كانت تعدية (حزن) و (أسف) باللام قد تؤدي مؤدى تعديتها بعلى اذا ذكر الامر الذي كان الحزن أو الاسف لفقده أو فوته ، فليس الحال كذلك اذا ذكر الانسان الذي كان مصدر الحزن وموضع الاسف ، فقولك (حزنت على الرجل) شيء و (حزنت له) شيء آخر . ف (حزنت لفلان) بمعنى رققت له وعطفت ، وهو غير حزنت عليه ، فانظر الى ماحكاه الراغب في محاضرات الأدباء (٤/٥٠٨) : (ولما مات ذرّ بن عمر بن ذرّ ، قام أبوه على قبره فقال : ياذرّ شغلنا الحزنُ لك عن الحزن عليك ... اللهم انك قد ألزمته طاعتك وطاعتي ، فاني قد وهبت له ماقصر فيه من حقي ، فهبْ لي ماقصر فيه من طاعتك . اللهم ماوعدتني من الأجر على مصيبتي به فقد وهبته له، فهب لي من فضلك..) . فكأن حزنك على الرجل توجع عليه وجزع ، فهو انفعال ليس غير، أما حزنك له فهو رثاء لحاله وعطف عليه واهتمام بأمره ، فهو انفعال وفعل . وقد جاء في الأساس : (هؤلاء حزانتك أي أهلك الذين تتحزن لهم وتهتم بأمورهم) ، وتحزّن في الاصل صار حزينا . وليس كذلك حزنت لفقده وعلى فقده ، فإن اللام هاهنا في موضع على كما قال المرزوقي .

وفي اللغة : (أسي عليه اذا حزن)، قال الفيومي: (وأسي أسى من باب حزن فهو أسِيٌ مثل حزين) . فأنت تقول : (أسيت عليه كحزنت) ، لكنك تقول أيضا : (أسيت للرجل اذا حزنت له أي رققت له فشُغلت بأمره) . فانظر الى ما حكاه الراغب في المحاضرات (٤/٥١٦) : (قال الموسوي : يموت قوم ولا يأسى لهم أحد : وواحد موته همّ لأقوام) . فكأن فحواه : يموت قوم فلا يهتم لموتهم أحد ، ويقضي فرد فيهتم لموته أقوام .

وانظر الى قول قراد بن سَلِمي بن ربيعة :

أولئك لو جزعت لهم لكانوا : أعز علي من أهلي ومالي .

(١) فاته الشيء يفوته ، وأفاته اياه غيره .

والمعنى على ماذكره ابن جني في التنبيه : (لو جزعت لهم لكنت معذورا في ذلك ، لانهم أعز علي من أهلي ومالي) • وقال أبو علي المرزوقي في شرح ديوان الحماسة (١٠٠٤) : (لو أعطيت الجزع حكمة لكان حالي حينئذ بخلاف حالي الساعة ، ولكان لي عذر في ذلك ، لانهم أعز علي من أهلي ومالي ، لكني تركت ذلك اقتداء بالناس في جزَعهم لمصابهم) • والذي ينبغي الكشف عنه هنا ، قوله (جزعت لهم) أفتراه يؤدي مؤدى (جزعت عليهم) ، ام يعني الى ذلك شيئا آخر ؟ الذي أراه ان استعمال (اللام) هنا يضيف الى (الجزع) الاهتمام والمبالاة بمن فقدوا والحفل لهم ، وهم أعز على الجازع من أهله وماله ! أو ليس هذا ما يقوله الشاعر ؟

ويبدو الفارق بينا بين (غضبت عليه) و (غضبت لـه) ، فغضبت عليه اذا سخطت، أما غضبت لهفمعناه غضبت من أجله • واذا غضبت لانسان فقد اهتممت به وانتصرت له • وقيل (غضب به) بمعناه اذا كان المغضوب له ميتا • والباء هنا للسبب • وقد أشار الى ذلك ابن قتيبة في (أدب الكاتب/٢١٦) ، وفصّله الحسن بن قاسم المرادي في (الجَنَى الداني في حروف المعاني/٣٩) •

وجاء في الاساس : (وللشماخ :

وقد أتاني بأن قـد كنت تغضب لي
ووقعـةٌ منـك حـق غـير ابراق

فسرّني ذاكَ حتى كدت من فـرح
أسـاور الطـودَ أو أرمي بأرواق[1]

(1) رمى بأوراقه على الدابة : ركبها وعلاها .

كما جاء في محاضرات الأدباء للراغب (٢٣٦) : (وغضب الرشيد على رجل فقال له جعفر : غضبت لله فأطع الله في غضبك بالوقوف الى حال التبيّن ، كما غضبت له) • وفي شرح الحماسة للمرزوقي قول قرّاد بن عياد (٦٧٠) :

(اذا المرء لم تغضب له حين يغضب
فوارسُ إن قيل اركبوا الموت يركبوا

ولم يَحْبُه بالنصر قـومٌ أعـزّة
مقاحيم في الأمـر الـذي يتهيّـبُ

تهضّمه أدنى العـداة ولـم يـزل
وان كان عضاً بالظلامة يُضرب[1])

ويتحصل من ذلك أنك تقول أسفت على فلان اذا حزنت عليه أو غضبت ، وأسفت على الشيء اذا تلهفت أو تحسّرت على فقده ، وأسفت على ما فرط مني : اذا تندمت ، كما تقول : اسفت لفلان اذا حزنت أوغضبت له • وأسفت لفقده اذا أسفت من أجل فقده، وأسفت لما فعلته : اذا ندمت •

وهذه أمثلة أخرى : تقول في (حسد) على الأصل : (حسدت فلانا على نعمته) ، ولكنك تقول الى ذلك (حسدت فلانا لنعمته) وهو بمعناه • فقد جاء في المحاضرات قول الشاعر : (لاينزع الله عنهم مالهم حُسِدوا) أي ما حُسدوا لأجله وبسببه ، وهو ماحُسدوا عليه• وقال الراغب في عنوان له (المحسود لفضله ، أي بسبب فضله أو على فضله •

وفي (لامَ) ، تقول على الاصل (استحق فلان

(1) اي اذ غضب المرء ولم ينتصر له فوارس يطلبون الموت ، واعزة مقاديم لا يخشون الصعب . ظلمه ادنى العداة ، ولو كان اهلا للقتال .

اللوم على فعلته تلك) • قال المرزوقي في شرح الحماسة (٣٧٣) : (ويلومهم على ما كان منهم من القصور عن نصرته ••) • وتقول الى ذلك : (استحق فلان اللوم لفعلته) أيضا • قال المرزوقي : (٧٦٦) : (فعدّت امرأته تلك الفعلة منه ، وما اتفق عليه ، سفها وذنبا ، يستحق لهما اللوم ، فطفقت باكرة عليه تُعجّزه وتؤنّبه) أي يستحق اللوم بسببهما ومن أجلهما •

★ ★ ★

ونظير ما نحن بسبيله منع الدكتور مصطفى جواد قول القائل (حفظ له الشيء) والاقتصار على (حفظ عليه الشيء) • فقد عاب على الشيخ رؤوف جمال الدين قوله (حقوق الطبع محفوظة للمؤلف)• قال في كتابه (دراسات في فلسفة النحو والصرف واللغة ••) : (والفصيح بل الصواب محفوظة على المؤلف ، يقال : حفظ فلان عليه الشيء حفظا فالشيء محفوظ عليه) • واستظهر بكلام كثير من الأئمة كالامام علي ، والامام زين العابدين علي بن الحسين، وغيرهما • قال علي رضي الله عنه : (فان نسيت مقالتي هذه حفظها عليك غيرك) • وقال زين العابدين في دعائه : اللهم احفظ علي سمعي وبصري الى انتهاء اجلي) • وأنت تعلم أن دليله هذا انما يقوم على اثبات تصرف الفعل بـ (على) ، ولاينفي جواز استعماله باللام ، قال صاحب اللسان : (الحفيظ من صفات الله عز وجل ، لايعزب عن حفظه الاشياء كلها ، مثقال ذرة في السموات والارض ، وقد حفظ على خلقه وعباده مايعملون من خيرٍ أو شر ••) ، فعدّى (حفظ) بـ (على) • لكنه قال أيضاً : (ويقال استحفظت فلانا مالاً إذا سألته أن يحفظه لك) فعدّى (حفظ) بـ (اللام) • وقال المرزوقي في شرح الحماسة (١٥٣٥) : (وحفظت عليها صيانة نفسها) ، لكنه قال (٥٥٧) : (وحفظت لها وعليها مياهها وبلادهاومراعيها ومَرادها) • وليس هذا صريحا باستعمال الحرفين حسب ، وانما هو دليل على ان لكل منهما منحى ومتجها ، فاذا قلت (حفظت له المالَ) فقد عنيت به أنك حرسته له وصنته من أجله أو ما ماثل ذلك • واذا قلت (حفظت عليه المال) فقد أردت به أنك قد أبقيته عليه وصنته من أذى وحافظت عليه بالرعاية • وهو من القوة بحيث لايؤدّيه معنى (حفظت له) • وكذلك قولك : (حفظت عليه أحواله) فهو على معنى المراقبة والمحاسبة • فاظر الى ما جاء في اللسان : (والحفيظ المحافظ ، ومنه قوله تعالى : وما أنا عليكم بحفيظ) ، وفي الاساس : (وهو حفيظ عليه : رقيب) • قال الزمخشري في كشافه حول قوله تعالى : (وما أرسلوا عليهم حافظين / المطففين/ ٣٣) : (أي حافظين موكّلين بهم يحفظون عليهم أحوالهم ويهيمنون عليهم) • وفي ذلك معنى المراقبة • وانظر الى ما أتى به اللسان : (وقد حفظ على خلقه وعباده مايعملون من خير أو شر) ، فان فيه معنى المحاسبة ، وما أورده أيضا (والحفظة الذين يُحصون الاعمال ويكتبونها على بني آدم من الملائكة) !

ومن شواهد الدكتور جواد ، ماجاء في سيرة ابن هشام • قال رسول الله (ﷺ) : (مَنْ رجلٌ يحفظ علينا الفجر لعلّنا ننام) ، قال بلال : (أنا يا رسول الله أحفظه عليك) ، وما حُكي عن سيدنا علي ، قال : (فان نسيت مقالتي حفظها عليك غيرُك) والاول على معنى المراقبة، والثاني على معنى المحافظة، كما أسلفنا • ويتبين بذلك أنك تقول : (حفظت على فلان أمره) و (حفظت على الشيء سداده) ، فاذا

قلت (حفظت على فلان) أو (حفظت على الشيء) فهو اما على حذف المفعول ، أو على ايقاع (حفظ) موقع (حافظ) كما توقع هذا موقع ذاك ، وهما هنا بمعنى • فمن الاول ما جاء من نهج البلاغة (١/١١٧) : (حافظاً على عهدك ، ماضياً على نفاذ أمرك) من حفظ عليه كحافظ عليه • وفي التنزيل : (وربك على كل شيء حفيظ ــ سبأ /٢١) • قال الزمخشري : (محافظ عليه ، وفعيل ومفاعل : متآخيان) • ومن الثاني قول المرزوقي (٥٨٥) : (فلم يراعوا ذمة ، ولـم يحافظوا حرمة) ، من حافظ كحفظ • وكذا قوله (٧٤٠) : (واذا حافظنا الحقوق وراعينا الوسائل والحظـوظ تناسقت الابوة والامومة، وتلاحظت البنوة والأخوة)•

ويحمل الشنتمري تعدية (حافظه) ك (حفظه)، على حذف الجار وايصال الفعل • ففـي الكتـاب (١/٩٧) :

أخذت بسجلهم فنفحت فيه
محافظـة لهن إخـا الذمـام

قال الشنتمري : (الشاهد فيـه نصب إخا الذمام بمحافظة ، والتقدير لأنحافظت إخا الذمام أي راعيته وقارضت به ، والمعنى على إخا الذمام فحذف حرف الجر ووصل المصدر لمافيه من معنى الفعل ، وأراد إخاء الذمام فقصر ضرورة • والسجل الدلو ملأى مـاء فضربت مثلا في العطاء والحظ لأن العيش بالماء ، ومعنى فنفحت : أعطيت ••) •

هذا وقد اقتصر الدكتور جواد في استعمال (حفظ)مع اللام ، على صورة واحدة ، اذ ارتضى قول القائل (أحسنت الى فلان فحفظ لي ذلك) أي ذكره • ويمكن أن يرد هذا الى معنى الصون الذي ثبت للفعل في الأصل • تقول : (حفظت له العهد) اذا صنته بالبر والوفاء • فما بال الاستاذ أساغ هذا وأنكر (حفظ له حقه) و (حقه محفوظ له) أي مصون ، وحفظ في هذا كحافظ في قول ابن منظور (المحافظة الوفاء بالعقد والتمسك بالود) • والذي يحدث اليقين بما قلناه أن استعمال اللام مع الفعل فيما قدمنا جميعا مقيس مطرد لاحاجة به الى اجتهاد أو سماع • وإنما سقنا الشاهد ليؤنس ما ذهبنا اليه ، وأوردنا الدليل ليسلكنا الى ما نبتغيه • فانظر الى قول الشيخ نصر الهوريني في شرح ديباجة القاموس : (ومودع بالضم اسم فاعـل من أودعه الشيء جعله عنده وديعة يحفظه له) أفكنت تحتاج الى سماعٍ يقر قولك (حفظت له الوديعة) ، أو اجتهادٍ يسيغ النطق بما ينتجه القياس ؟ ثم انظر الى قول مسكين الدرامي :

فإني سأخلي لهـا بيتهـا
فتحفظ لى نفسها أو تذر

وقد أورده الراغب في محاضرات الأدبـاء من قصيدة (٣/٢٣٢) • وهذا قول عليّ كرم الله وجهه من نهج البلاغة (٣/١١١) : (واحفظ لله ما استحفظك من حقه فيهم ، واجعل له قسما من بيت مالك) !

* * *

ونحو من (حفظ له الشيء وحفظـه عليـه) : (توفر له الشيء وتوفر عليه) •

فقد أنكر الاكثرون (توفر) في غير صـورة واحدة أوردها الاساس وسواه • قال الزمخشري (ومن المجاز •• توفر على صاحبه اذا رعى حرماته ، وتوفر على كذا اذا كان مصروف الهمة اليه) • وقد جاء الصحاح والتهذيب واللسان والمصبـاح والتاج بمثـل هذا النص فتماثلت فيـه نقولهـا وتشابهت مروياتها وتناصرت ، فوقف الناقدون عند النص ، ولم يتعدوه أو يستشفوا قرائنه فيستنبطوه •

قال الاستـاذ أسعد داغر في تذكـرة الكاتب

(ويستعملون الفعل توفر بمعنى وفر أو توافر أي كثر ، فيقولون يجب أن تتوفر فيه الخبرة ، وهذا لم تتوفر فيه الاسباب الكافية • وفي اللغة توفر عليه رعى حرماته وصرف همته اليه) • ومالأه الاستاذ محمد العدناني في معجمه فقال : (ويقولون توفّر الذكاء والاجتهاد والصواب : وفر أو توافر أي كثر ، لان معنى توفّر عليه رعى حرماته وبره وصرف همته اليه مجاز) •

وخالفهما الدكتور مصطفى جواد [1] إذ أقر (توفّر) كوفر لازماً ، لكنه منع (توفر له) وارتضى (توفّر عليه) وأنت لا تملك الا استغراب ما ذهب اليه في هذا التفريق ، وقضاء العجب منه !

أما اقرار (توفر) فدليله على ما ذكر الدكتور جواد قول بشار ، فيما حكاه صاحب الاغاني (٢/١٤٥) : (ان عدم النظر يقوي ذكاء القلب ويقطع عنه الشغل بما ينظر اليه من الاشياء فيتوفر حسه) • وقول المرتضى في أماليه (١/٥٦) : (فيتوفر اللبن على الحلب) وكلاهما شاهد بصحة (توفر الشيء) إذا وفر وتجمع •

ويؤيد هذا ، وينزع منزعه ، قول أبي حيان التوحيدي • في كتابه (البصائر والذخائر ــ ١/١٧٠): (يقال من أكثر الخير سار به ذكره، وتوفر عليه أجره)• وقوله في كتابه (المقابسات ــ ٢٣٨) : (ولهذا لاتتوفر القوتان للانسان الواحد) • وقال أبو علي المرزوقي في شرح الحماسة (٧٩٠) • (توفرت عليه الرحمة) ، وقال أيضا (٨٦٦) : (وان العناية متوفرة من جهتهم)• وقال (٧٩٤) (ليتبين كيف توفر الجزع عليه) •

فثبت بذلك أنك تقول (وفرت الشيء) اذا أكملته ولم تنقصه ، فتوفر هو اذا تحصل دون نقص • وذلك ك (وفرته) بالتخفيف ، اذا أكملته واتممته ولم تنقصه ، فوفر هو • ففي المصباح : (قال أبو زيد : وفرت له طعامه توفيراً ، اذا اتممته ولم تنقصه، ووفرت عليه حقه : أعطيته •• فاستوفره واستوفاه) • وفي الصحاح : (ووفر عليه حقه توفيراً واستوفره واستوفاه) •

فاقتصار الزمخشري وسواه على القول (توفر على صاحبه اذا رعى حرماته ••) لا يمنع مجيء(توفر) في مصارف أخرى كما رأيت • ذلك أن الزمخشري قد أورد كلامه على أنه مجاز فلم يتنبه كثرة الناقدين له• ولو قدروا أن لهذا المجاز أصلا لابد من ابتغائه والتماس وجهه لظفروا به من غير كلفة أو عناء • ذلك أنك تقول من (وفر) مثلا : (وفرني فلان على كذا) أي وفّر جهدي ووقفه عليه • و (توفرت على كذا) اذا وفرت جهدي وجمعته عليه ، وصرفت همتي اليه • قال المرزوقي (١٣٢٠) : ولم توفّروني على ما أهمّ به) • وهكذا تقول : (توفرت على صاحبي) اذا وفرت همتك على ما تستقيم به أموره وتصلح أحواله• وهذا ما ابتغته المعاجم حين تناقلت النص الذي أوردنا (ومن المجاز : توفر على صاحبه •• وتوفر على كذا ••) •

هذا وقد أصبح (التوفّر) بالمجاز مرادفا للعناية بالامر والانصراف اليه والاهتمام بالانسان وتفقده وحسن رعايته • فانظر الى قول المرزوقي (لحسن توفرنا عليه واحتفالنا بسوق الخير اليه /١٢١) • وقوله : (وان التوفر على الضيف واكرامه ••• من الخصال المحمودة/٧٠٠) • وقوله : (وازدادوا توفراً عليهم وتفقدا لهم/١٠٨٥) ، وقوله : (متوفرون عليّ، حسب ما يقتضيه كرمهم /١١٥٩) ونظائره كثير •

(١) في كتابيه (دراسات ••) و (قل ولا تقل) •

ولكن ما بال الدكتور مصطفى جداد يلحن قول القائل (توفر له) فيقول في كتابيه (دراسات ...) : و (قل و ولاتقل) : (وقد أخطأ حفظه الله باستعمال اللام مع الفعل توفر ، وانما قال الفصحاء توفر عليه لا له ، وتوفر فلان على فلان ..) ! واذا كان الاستاذ جواد قد أكثر من شواهده على استعمال (توفر عليه) فليس هذا سنداً له في حظر (توفر له) بحال من الأحوال . وهو قياس منقاد لا شأن فيه لحكاية أو رواية أو سماع .

فقد رأيت أبا حيان يقول : (ولهذا لاتتوفر القوتان معا للانسان الواحد) .. يؤيده قول المرزوقي (١٥٠٧) : (خبروني أي العادتين أقرب الى الكرم وأجرى في وفاء الشيم ؟ أعادة من يستنزل الأضياف عن أموالهم وينقص ما توفر لهم ، أم عادة من يزيدهم ويثمر حظوظهم ؟) .

واذا قال صاحب المصباح (وفرت له الطعام توفيرا اذا أتممته ولم تنقصه) أفلا تقول في إثره (فتوفر له الطعام) . والا فكيف يسوغ قولك (وفرت له) ويمتنع (فتوفر له) ؟

وليس هذا حسب ، فاذا أعملنا الفكر في تصرف الفعل بالحرفين ألفينا لكل وجهة وقصدا . فاذا قلت : (توفر له المال) فقد أردت تجمعه في يديه أو صيرورته الى ملكه وحوزته ، واذا قلت (توفر عليه المال) فقد لحظت الى تجمع المال ، فضل النعمة وضفوها بل تمامها وسبوغها عليه .

واذا كان (توفر) ك (وفر) لازما ، فهل جاء (توفره) متعديا ك (وفره) ؟ أقول لم أر هذا في معجم ، لكني ظفرت به في شرح الحماسة (٢١٨) ، قال المرزوقي : (يقال ودّيته فاتدى ، كما يقال وهبته فاتهب أي قبل الهبة . وفي الحديث هممت ألا اتّهب الا من قرشي أو أنصاري . ومثله : قضية الدين فاقتضاه أي قبله وتوفره) .. ويعني هذا أن (توفره) كاستوفاه واستوفره . وقد أورده مورد النص ، فتأمل !

هذا وقد أخذ الاستاذ صبحي البصام في رسالته الاستدراك على استاذي العلامة الدكتور مصطفى جواد بعض ما جاء في كتابه : قل ولا تقل) ، لكنه لم يعرض لشيء مما نحن فيه .

* * *

واذا تجاوزنا من حروف الجر (اللام وعلى) فهناك (من) . ومن معانيها كما ذكر المغني (١٤/٢) التعليل ، وقد مثلوا له بقول الفرزدق :

يُغضي حياء ويُغضى من مهابته
فلا يكلم الا حين يبتسم

وتأسيساً على هذا تقول (أسفت من حسدك إياي) ، ولاترجو أن تجده في معجم لترتاح الى سداده وتسكن الى صوابه . قال صاحب المحاضرات (٧٤/٣) : (تأسف من هجر محبوبه) . وقد جاء فيه (٣٩٤/٤) قول الشاعر :

وقد يأسف المرء من فوت ما
لعلّ السلامة من فوته

وقول آخر :

لم أبك من زمن شكوت صروفه
الا بكيت عليه حين يزول

وقول آخر (٢٨٧/٣) :

لاتجزعنّ من الهزال فطالما
ذبح السمين وعوفي المهزول

وجاء في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي (٩٦١) :

بكت دارهم من فقدهم فتهللت
دموعي فأي الجازعين ألوم

وقال أبو الطمحان القيني (١٢٦٦) :
وقبل غد يالهف نفسي على غد
اذا راح أصحابي ولست برائح
قال المرزوقي : (يروى : يالهف نفسي من غد .. وهذا تلهف من غـد) .

وهكذا القول في استعمال (في) و (الباء) قياسا مطرداً فيما كانا له . فأنت تقول مثـلا (جزع فيـه وبه) ولا تحتاج فيه الى نص يشهد بصحتـه . قال المتنبي :

أجد الحزن فيك حفظاً وعقلاً
وأراه في الخلق ذعـراً وجهلاً

وجاء في شرح ديوان الشاعر لأبي البقـاء الكعبري (١٢٤/٣) : (قال الواحدي المراد بالعقل الاعتبار بمن مَضَى ، فان العاقل انما يحزن بالميت اعتباراً به وعلما أنه عن قريب يتبعه . وحزن غير العاقل انمـا يكون خوفاً من الموت ، وهو جهل لانه ميت لا محالة وان حزن) . وقال أبو البقاء : (والمعنى انما تحزن على من تصاب به ممن أحبك ، حفظـا لذممهم ورعايـة لخدمتهم وانصافا وعقلا ووفاء وكرما ، وأراه في غيرك خوفاً وجزعا وجهلا) .

وقال : المرزوقي (٨٠٤) : (وانهاء ما يقاسونه من الجزع فيهم) . وقال : (أو أحزن في اثر فائت أو أجزع بتولي مدبر) وقال (٨١٧) : فيشقى بالجزع له وفيـه) .

وحكى الراغب في المحاضرات (٥٠٧/٤) عـن خالد بن صفوان قوله (صبرك في مصيبتك أحمد من جزعك ، وجزعك في مصيبة أخيك أحمد من صبرك) . واظر الى قول هشام بن عقبة العدوي : فلم تثنسني أوفى، المعيبات ُبعده : ولكن نكء القرْح بالقرح أوجع قال المرزوقي (٧٩٥) : (ونبه بهذا الكلام على أن الجزع بأوفى لم يتزله ما تعقبه من المصائب ولكنه زاده اشتدادا) ، وأردف : (فالهلع بموت أوفى وقد أمد بمصاب آخر يكون أتم وأكمل) . وفي موضع آخر (٨٠٠) : (ففيه دلالة على تمكن الجزع بالمصاب من كافة الناس) .

★ ★ ★

فيستبين بما قدمنا أنه اذا حرص الكاتب ان يتحامى الخطأ في تصريف حروف الجر ، فتبرأ كتابته من الطعن وتخلو من الخطل وتحفظ دون الا بتذال ، ، فلا يغنيه العودة الى المعجم ليحتوي نصّه فيقف منه على وجه الصواب في استعمال هذه الحروف مع الافعال ، ولو كان ذلك أسهل مأتى وأقرب مأخذا . اذ لا بد له من الاحاطة بمعاني هذه الحروف فيما فصّلته كتب النحو ومختلف المظان ، ومولاة قراءة نصوص الأدب نثراً وشعرا بغية الاطلاع ، بالاستقراء ، علـى مصارف الحروف في تحقيق ما يتسع له الفعل من دلالات ، وما يتجه اليه من قصود ، فيتعرف مواقعها ويتبين قواعدها ويتميز مسالكها ، فيكون من ذلك على رشد ، ويقبس منه باحتياط . ولا يصرفه اعتياد نهج أو إلف اسلوب عـن تدبره واستجلاء وجه صحته .

وليس للكاتب ، بعد هذا ، أن يجزم في ذلك حكما ، حتى يضع يده على دليل تسعفه رواية وتشهد له دراية . فقد رأيت أن ما صرفنا القول فيه قد رفدناه بالحجة وعززناه بالبينة ، ولا يقعد بالقارىء عن استشفاف ما تضمنه هذا الفصل أنه ليس سلس المطلب ، داني المنال في كل وجه . فالعلم سهل وعويص ، وذلول وجموح ، وهو لا يدرك الا بمواصلة البحث والموازنة والمكايلة ، وان طال نفس المهلة في تحصيله ، واستفراغ الوسع في السعي له ، والله الموفق للصواب .

□ □

عبد الغني النابلسي بين العدمية والحياة

هدى النعماني

— ١ —

« قال تعالى : واسجد واقترب،
هما سجدتان .
الأولى أن تسجد بك فيه .
الثانية أن تسجد به فيك .

والثانية سميت باسم الاقتراب . ولم تسمى باسم السجدة .

مع أنها سجدة في الحقيقة . لأنها معها بُدلت الارض غير الارض والسماوات ، وهي حقيقة قاب قوسين . وعندها تذهب نقطة الغين عن العين والله الهادي والموفق . » .

النابلسي(١)

بهذا التيقظ للتيقظ والفهم، اشتعل بعض الأئمة ومنهم العلامة الشيخ عبد الغني النابلسي باطناوظاهرا، ومالت أهدابهم نحو الضوء ، حتى أعظم الذنوب . بهذا التيقظ للغفلة عن هذه الغفلة ، كتبوا الأراجيز بذنب « كان الثاني منه أشد من الأول ، ولم يرفعوا شعرة بيضاء عن شعرة سوداء ، بل لم يرفعوا البصر عن صبوة كانت أقرب الى الجنون ، وقلوبهم حنطة ترقص وتدور ، حسب ايقاعات أشبه بالغرور في الاكوان ، وجزموا ونفوا أن كل شيء « هو » حتى هم ، وسكروا وأذنبوا وغمروا الفجر وهتفوا ، وهتكوا الفجر ، واستتروا ، ودكوا الجبل عن المظهر الناري ، وسجنوا تحت اسم الرحمن عشبة تطلب الري مقام الذنب ، مستعينة عن المطر المطر بالطاعة والتجلي ووضع العرش ان قلبت حروفه ، وسموا بالمتصوفة .

وما زالوا حتى اليوم عبر نفح السنين ورقائقها، بتصانيعهم ودراساتهم ، بأشعارهم ونفحاتهم البسمة اللغز على ثغر الاسلام فيما كان الاسلام ملتهبا تارة بيد الغزاة والجبر، او ممزقا تارة بيد العصبيةوالجهل، وما فتئوا، مهما فاضت الارض درا وندى، باصفرارهم وعقاقيرهم واشتياقهم وصبواتهم ، المغفرة الطاهرة على شموس الحب .

— ٢ —

« ان من بعض ماهي الأطوار
لي مقام فيه اسمه الأغيار

وهو زيـد كـذا وعمرو وبكر
وبهم فيـه تنشـد الاشعـار

فـاذا قلت فيـه قال فـلان
وفـلان فانهـا استـار

نعـم القائل الذي قد ذكرنـا
لكن الكنز نحن وهو الجدار

وهو جفن من الجفون لعينـي
وأنـا الجسم منه وهو الشعـار

وأنـا اللـب والبريـة قشـر
وأنـا الوجـه والجميـع خمار

كلهـم في مـدار روحي حروف
وأنا الشمس والسـوى أقمـار

والذي عندهم من العلـم طـلّ
والذي منـه عندنـا فيحـار

بانـة" غردت عليهـا طيـور
أنـا وحدي من بينهن الهـزار

أنـا عبد الغني مع من معـي في
هذه الحـال والغنـى افتقـار

ربنـا الله في جميـع المجالـي
ما على وجهنـا الجميل غبـار

والأحباء حضرة البسط تجلّـى
من هوانـا عليهـم الاسـرار »

النابلسي(٢)

(هو الشيخ عبد الغني ابن اسماعيل بن عبدالغني ابن اسماعيل بن أحمد بن ابراهيم المعروف كأسلافه بالنابلسي الحنفـي الدمشقي النقشبنـدي القـادري استاذ الاساتذة وجهبذ الجهابذة ، ولد في دمشق في الخامس من ذي الحجة سنة خمسين وألف ، وكـان والده مسافرا الى بلاد الروم ، فبشر والدتـه بـه المجذوب الصالح الشيخ محمود وقال سميـه عبـد الغني فانه منصور ٠٠٠

شغله والده بقراءة القرآن ثم بطلب العلـم • فقرأ الفقه واصوله على الشيخ أحمد القلعي الحنفي ، والنحو والمعاني والبيان والصرف على الشيخ محمود الكردي نزيل دمشـق ، والحديث ومصطلحه علـى الشيخ عبد الباقي الحنبلي ، وحضر دروس والده في التفسير بالمدرسة السليمية وفي شرح الدر بالجامـع الاموي ، ودخـل في عموم اجازته ، وحضر دروس النجم الغزي ودخـل في عموم اجازته ، وقرأ ايضـا وأخذ على الشيخ محمد الاسطواني والشيخ ابراهيم الفتال ، وأجاز له من مصر الشيخ علي الشبراملسي ، وأخذ الطريقة القادرية عن الشيـخ عبـد الـرزاق الكيلاني ، وأخذ طريق النقشبندية عن الشيخ سعيد البلخي ٠٠٠

وابتدأ في قراءة الدروس وإلقائها والتصنيف لما بلغ عشرين عاماً وأدمن المطالعة في كتب الشيخ محي الدين بن عربي وكتب السارة الصوفية كابن سبعين والعفيفي فعادت عليه بركة أنفاسهم فأتـاه الفتـح اللدنيّ ٠٠٠٠

تآليفه ومصنفاته كثيرة وكلها حسنة ومتداولة مفيدة ونظمه لا يحصى لكثرته ٠٠٠

كان عالماً مالكا أزمـة البراعة واليراعة فقيهـاً متبحرا ، يدري الفقه ويقرره ، والتفسير ويحـرره ، غواصـاً على المسائل ، خبـيراً بكيفية الاستـدلال والدلائل ، ذا طبع منقاد وبديهة مطواعة •

هذا مع اقبال الناس عليه ومحبتهم له واعتقادهم

فيه ، ورأى في أواخر عمره من العز والجاه ورفعة القدر ما لا يوصف ، متعة الله بقوته وعقله حتى بعد أن جاوز التسعين ...) (٣).

بمثل هذا التقريظ الذي أورده المرادي في « مسلك الدرر » يضيف المؤرخون الشرقيون والغربيون (٤) كالجابرتي ، والمحبي ، وهرثمان ، وبروكلمان ، وجلدميستر وغيرهم ، الشيخ الكبير عبد الغني النابلسي الذي يجثو اليوم بجوار أستاذه الشيخ الاكبر ابن عربي ، تحت قبة خضراء في مسجد بناه لنفسه في المهاجرين ، طاويا بخط دقيق كان يعشقه سنينا من الجهد والاثارة والعكوف والاعتزال والانسلاخ والرهبة والوله وبسط الاعين والنشوة ، تاركاً ما يزيد عن مئتي مؤلف من جنة ونار ، وبركة وقناديل وزيت يفيض ، ورفعة قوافي وتجريد وتفريد ، في مدائح ورياض ومسالك وتراجم وقصور وبلدان ورسائل وألحان وكؤوس رحيق ، فتميز برأي الجميع في الأدب أديبا ، وفي الفقه فقيها ، وفي التفسير اماما ، وفي التصوف قطباً ، حتى ليحسبه المرء أكثر من رجل ، وأكثر من مسلك ، وأكثر من نسائم وأكثر من عاصفة .

وهكذا في غوصٍ ليس بالغوص ، وقبضٍ ليس بالقبض ، يصل النابلسي بين نقطة البدء والعناصر الأربعة في أعينه السالكة الى المحجة : ؟ الخلق ؟ الأرض والسماوات ؟ ويطفئها . ماذا عن ؟ ماذا عن ؟..

وتأتي أجوبته قيدٌ يعار ، وكلماته أثواب تشف ، والحقيقة أحجية تتمثل في العشق والذات الأخرى شجرة كظل الدل والدوح والجدول والحلم والمدام والجارية والغلام والكأس والطير والبرق ، بينما التيه ضوءٌ في العقل وشموس في الورى ،لا بينه في بنية الا اذا خرج هو وخرجوا به عنهم وعنه ..

وفي هـذه المثابة ، من الغيب المطلق عن سائر العقول ، تتأصل وتتعاظم لديه .

الكيف :

كيف أمكن للعقل أن يؤمن ؟ ، وحقيقة الذنب بحسب الباطن بعد وصول التبليغ عن نفسه بنفسه عن نفسه ؟ ، ومن امتثل ثم خالف الأمر ...

وكلام العلماء من أهل الرسوم ؟ وأقسام الذنب وحدّ الاصرار والتوبة التي تجب على الفور ؟ والتي هي خلقه ؟ كذلك النفس التي هي الروح ... باعتبارها كيفية بسبب اتصالها المخصوص ؟ ثم التوبة من التوبة ؟

فينهمر :

« بل ليصدق الوعيد . مقام التوبة هو الدخول في هذا السير مع هؤلاء السائرين .

وما ثمّ الاّ رفع حجاب ومصادفة حجب أخرى . وكل تجليّ رفعٌ لحجاب وسدلٌ لحجاب آخر » يقول في كتابه الفتح الرباني والفيض الرحماني ..

ثم ماذا ؟ ماذا عن ابن غانم المقدسي ، وزين العابدين البكري ، والشيخ الاكبر قدس الله سره ، ومحمد البكري ، والساقي في التائية ؟

ثم ماذا ؟ ماذا من حرف الصاد ، وعلام عن حرف اللام ؟

والحلم ؟ ماذا عن الدقيق والشمس والعشب والبحر .. تسائله دمشق ، وتسائله مكة ، وتسائله بغداد ، وتسائله القدس . فينهمر :

« انتيأس من رحمة ربك إياك ... وإياك ! »

وينجلي ، لكأن مرآته من الذهب المقنطر

وينازل ، ويتكبر ، ويتحدى :

ونظمتُ ديوان التغزل كله
فيهم بلفظ معجب ونظام

وآتيت فيه بكل معنى رائـق
فـي كل جاريـة وكل غـلام

والقصد أتتم بالجميع وذكرهم
هو ذكركم عندي على الإيهام

فأسير سير الغافلـين بقولهم
أبداً وأقصـد مقصد الاقوام

وأنا الذي في ظاهري متمسك
بشريعتي في سائر الأحكـام

وأنا الذي في باطني متحقـق
بحقائق التوحيـد والإيهـام

أنا مجمع البحرين موسى ظاهر
والباطن الخضر الأجل السامي

هيهات أن تنجو فراعين العدا
مني وبحري بالمعـارف طامي

وعلي من أعين السرادق أعين
للحـق تحفظني مدى الأيـام

وأنا لأطيار الحقيقـة مخرس
وأنا الامام بهـا لكل امـام

والعارفون رعيتي في قبضتي
والغوث والأقطاب من خدامي

نحن الشموس وماخفافيش الورى
تستطيع تبصر غير محض ظلام

النابلسي (٦)

ثم يكسر الطوق في صورٍ رشيقةٍ وملتحمـةٍ حيناً ،

أشعاع شمس من قرارة مـاء
أم جسم نار في قميص هـواء

وقضيب بانٍ فوق غصنٍ من نقا
أم بدر ثمَّ طالـعٍ بسماء(٧)

مسترسلةٍ وحنونةٍ حينا بمداعبه وأنس ••

جفونك ثم خصرك ثم جسمي
نحيـلٌ في نحيـل في نحيلِ

وردفك والعذول وشوق قلبي
ثقيـلٌ في ثقيـل في ثقيـلِ (٨)

جاثيةٍ مرة برقة وخفر ،

لاخطتْ خالاً تحت صفحة خده
متواريـاً خلف اللهيب النافذ

فسألته ماذا المقام ، فقال لـي
هذا المقام المستجير العائذ (٩)

متهافتةٍ مرة في عدو نحو العطر ••

من لي بظبي وما للظبي لفتتة
تقاسم الحسن في خَلق وفي خُلُق

كأنما الورد منثور بوجنتـه
والدر من فيه منظوم على نسق(١٠)

منصرفةٍ كالدخان مراراً حتى اللانهاية ،

تبارك الله ما في الـدار ديـار
إنمـا هي نـيران وأنـوار

قد أماطت سليمى عن براقعها
فوجهها مشرق والطرف سحّار

وماالجميع سوى اشراق بهجتها
دوائـر كلهم عنهـا وأدوار

إن أومأت كانت الاكوان ظاهرة
عنها وإلا ففيها الكل اسرار[11]

عائدة كأنهار عسل الى راحاتنا ،

قف على باب حانتي يانديمي
علّ يرضى دخولك الخمّار

واستمع صوت قينتي تتغنّى
حيث جسمي في كفّها مزمار

وجميع الوجود ليل لقوم
جهلوا وهو عند قوم نهار

وجنان النعيم عند اناس
وأناس « ذا » عندهم هو نار[12]

ضاربة يداً بيد ، همساً بهمس ..

ان السماع سماع الناي والوتر
يسقي اراضي نفوس الناس كالمطر[13]

حلقية السقم والشجا والاحشاء الى الهاوية ،

هلّا غنيتم بما غنّى به الوتر
فتسمعوا منه يا عشاقه وتروا

فإن في نفحة الطنبور بارقة
من البروق التي في القلب تستعر

واستنطقوا الدف ينطق بالاشارة عن
معنى بدا وهو في الاكوان مستتر

وهي المعاني تراءت في السماع لنا
عنها لقد كان محجوباً بها البصر

واخبرتنا اشارات الصنوج بها
نهيم القلب منّا ذلك الخبر[14]

جائشة مع طيب غيث الجوهر كفجر كصارم تجرّد عن غمد ، كما يقول ، بين شمس ضحى كدّس من العسل يحوي المجد والطيب والاجناس ، بين لقاءات في الفقه والشعر والنحو تقر كنوز العطاء في غليل لا ينضب ، بين نفحات تاريخ من أعاجيب الوجود هي ميراث وأيما ميراث ...

ويقرر أن يرحل ...

فيرحل للتبرك والنفع العام . ويرحل . كي يعود بشاشة « ورواية » :

أشرق بدر السما على البحر
كمثل عقد الميح على النحر

تصقله الريح وهو يصقلها
تجري به وهو تحتها يجري

والبحر أمواجه ترددها
وسوسة المستهام في الصدر

او درجات الى علا شرف
او عقد النافثات في السحر

زهت بمينائها « طرابلس »
زهو رداح برقة الخصر

والزهر فينا يبث نفحته
مع النسيم الذي أتى يسري

ونحن في الانس والسرور بلا
أسامع الصخب بهجة العصر[15]

كذلك دقة وتصنيفا

وقد رأينا على حافة المينا أنواع المراكب والسفن وقد ذكر لنا اسماءها صديقنا الحاج نور الدين الطرابلسي المذكور ... لابأس بذكر ذلك لتتم الفائدة . فاعلم أن انواع المراكب واسماءها كثيرة بلغت عدتها عشرين نوعا :

الاول ماعونة ، الثاني غليون ، الثالث غراب ،

الرابع قرامرسل ، الخامس زربونة ، السادس شائعة، السابع غلياطة ، الثامن سنبكلية ، التاسع قايق ، العاشر قياسة ، الحادي عشر معاش ، الثاني عشر نقيرة، الثالث عشر شختورة ، الرابع عشر فلوكة ، الخامس عشر نقلبية ، السادس عشر شوطية ، السابع عشر شنبر ، الثامن عشر قارب ، التاسع عشر برقة ، العشرون شكنباية . »(١٦) .

أيضا اسطورة وطرافة ...

« واخبرني بعض الناس أن في جبل الدروز قلعة كانت في اعلى الجبل ، فبات أهلها في ليلة ، فلما أصبحوا ، وجدوا القرية وجميع مافيها مع أهلها كلهم وبيوتهم صاروا في أسفل الوادي هناك ولم يخرب منها شيء ولاتضرر أحد ولاسقطت شجرة ، وهي الآن باقية واسمها الزاحلة »(١٧) .

غير الفرادة والتقنية والوصف ،

« وقد اطلعنا حضرة الباشا في هذا اليوم على كتاب عجيب وأسلوب غريب يسمى : « نخبة الدهر في عجائب البر والبحر » لابي طالب الدمشقي . ذكر في الباب السابع في الفصل التاسع محاسن دمشق وجامعها المعمور ، ان من خصائصه انه لايوجد فيه عنكبوت ولافي سقفه ولافي حيطانه ، ولايفرخ فيه العصفور مع كثرته فيه ، ولايعشعش فيه وزغة .

ثم قال دمشق مقسومة ثلاثة أقسام . قسم مبثوث العمارة في غوطتها ، لو جمع لكان مدينة عظيمة ما بين شواهق وقصور وقاعات وطواحين وحمامات وأسواق عظيمة وجوامع ومساجد ومشاهد غير القرى والضياع . القسم الثاني تحت الارض . ومنها مدينة أخرى من متصرفات المياه والجداول والقنى والمسارب والقنوات تحت الارض حتى لو حفر الانسان أين ما حفر وجد الماء مشتبك طبقات يمنة ويسرة ، شيئا فوق شيء . القسم الثالث سورها وما فيها وحوله . وكأنها في وصفها طائر أبيض في مرج أخضر يرشف ما يصل اليه من الماء أولا فأولا »(١٨) غير العلم والشرع والمحاورة .

« ودعانا حضرة المفتي حفظه الله تعالى الى داره، فذهبنا لمجلس وابتهجنا بأنواره وأنشدنا من لطائف الاشعار ... وجرت بيننا وبينه ابحاث علمية ومسائل فقهية وقواعد نحوية ، فمن ذلك مسألة السرقة ، وأنه يقال في السارق « أخذ » لاسرق محافظة على الستر، ولأنه لو ظهرت السرقة لوجب القطع . وقد أورد حكاية لطيفة عن هارون الرشيد ذكرها صاحب « البحر الرائق شرح كنز الدقائق » وعبارته قوله ... فعجبوا منه وانتهى ... »(١٩) .

غير النقد في الحكم والعمارة .

« وقد رأينا في بلدة بيروت المحمية زوايا كثيرة وجوامع وحمامات فلا بأس نذكر محاسنها السنية ، فمن الزوايا زاوية مشرقة الانوار تسمى بزاوية ابن القصار ، وهي نيرة مرتفعة البنيان يجتمع فيها الحفاظ مابين العشائين يتدارسون بها القرآن ، ومنها أيضا زاوية تسمى بزاوية ابن الحمرا يقام فيها الذكر والاوراد ، وبها حفاظ تقرأ ، وهي متسعة ، بها ايوان به محراب كبير ، وفيها بركة ماء بجانبها بئر يستخرج منه ماء غزير ...

والجوامع التي بها أربع : الاول الجامع الكبير وهو يشتمل على اثني عشر عضاضة كل عضاضة يحوطها رجال . وهي عظيمة العمارة ، يقال أنه كان في الاصل كنيسة ... واما حماماتها فأيضا أربعة : الأول حمام الأمير فخر الدين بن معن ، الثاني حمام القيشاني الثالث حمام الوزاعي ، الرابع قديم لايعرف له اسم ، وكلها مهجورة ، ماعدا حمام الأمير فخرالدين

وسبب ذلك الظلم من الحكام . فان هذا حمام للميري، ويؤجره الحاكم في كل سنة ، هو وقهوة هناك بألف قرش ومئتي قرش ! وهذا الحمام مبلط بالرخام الملون، يشتمل على شاذروان في داخله ، يحوط بجوانبه الاربعة اربعة ايوانات . كل ايوان بقبو وقوس ، وفي مسلخه بركة ماء مثمنة ، ويشتمل على قبة مرتفعة على أربعة عواميد ، يحوط بتلك القبة اربعة أقبوة على أسلوب جامع الأميرعساف غيرأن الجامع يزيد عليه بالقبب وفي هذا القدر كفاية ونسأله تعالى الغنامة»[٢٠]

لذلك ، لايسعنا بعد هذا السياق كله ، الا أن نشيد بما أكده هربرت بوسه Vou Herbert Burse في تقديمه للرحلة الطرابلسية على أن كتب ومخطوطات العلامة الشيخ عبد الغني النابلسي مصدر من مصادر معرفة البلاد العربية ، وان هذه الكنوز الحجة المنتشرة في الشرق والغرب (والتي يصنفها كارل برو كلمان بمائة وخمسين كتابا ويلحظ الخالدي بأنها تقارب المائتين وخمسين) مازالت محجوبة في معظمها وتنتظر أن يبين نشرها أهمية النابلسي وتأثيره آنذاك ، فترسم لنا صورة واضحة للحركة الادبية في دمشق وجوارها في القرنين السابع عشر والثامن عشر[٢١] .

الا أن بوسه Burse كأكثر المستشرقين ، يركز اهتمامه بالدرجة الاولى على كتب الرحلات ، لما تحمله هذه الرحلات من معلومات علمية وفنية . فيروي عن « رحلة الذهب الأبريز في رحلة بعلبك والبقاع العزيز» التي ألفها النابلسي في ذي القعدة عام ١١٠٠ هـ بعد رحلة قام بها الى بعلبك ان هذا الاثر أثار اهتمام غوستاف فلوجل Gwolau Flugel فنشر فهرسا لمحتويات هذه المخطوطة لوصفها معبد بعلبك من حيث الزمن بين أثرين أوربيين تناولا هذا الموضوع نفسه وهما الاول للعالم الفرنسي دي مونكوني De Maucony والثاني للانكليزي بعد النابلسي روبرت Robert Uood .

كما يؤكد Burse ان مآثر « الحضرة الانسية في الرحلة القدسية » تكمن في وصفها المزارات الاسلامية في القدس ، وان كتاب « الحقائق والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز » يحدد المواقع الجغرافية في شبه الجزيرة العربية آخذا بالوصف واحدا وثلاثين مركزا[٢١] ... ساهبا وتقصد هنا Burse عن التنويه كجميع أقرانه مثل جلد مايستر ، وجراف وفون كريمر او حتى الصحفي المصري[٢٢] ديمتري نقولا ، عما عنته هذه الرحلات في انعكاساتها من ميادين سياسية أو غايات روحية ودينية تغلف هذه المآثر وتتجوهر فيها .

بينما أن النابلسي نفسه يذكر في مقدمات هذه الرحلات ، أن كل ما أورده من كرامات ومعجزات ورسم مساجد وكنائس، وأضرحة واستراحات ومآكل ومشارب وروايات منقولة ومجادلات علمية وفقهية ، صبها في قوالب أدبية ترمي في الظاهر الى غايات اجتماعية وسياسية ، الا أنها تخدم في الحقيقة الخاطرة الكشف التي بوده أن يزفها الينا ، والموعظة الأزلية التي يحن الى الارتواء والارواء منها ، نافذا من خلال الزمان والمكان والانسان في سعيه اليومي الى رحلة النفس الى الكل ، التي هي رحلة التقوى ، بعد الرحلة الى الداخل (نذكر هنا باعتكاف النابلسي في داره سبع سنوات كاملات لايخرج فيها ولايقص شعره ولايقلم اظافره حتى ظنه الكثيرون أنه جن) حيث تتفتح في قلب السالك اخضرار الكلمة ، عظمة الخالق والخلق ، وقداسة الخطوات .

مع ذلك يظل يبحر في الحدس والفكر وينهمر

— ٦ —

« اذا قيل لنا ما السبب في أن العقل التام لايمكنه ان يدرك الرب سبحانه وتعالى ، مع انه قدر ان يدرك كل شيء . قلنا له : الله تعالى في غاية اللطافة ، والعقل بالنسبة اليه في نهاية الكثافة . واللطيف يدرك الكثيف والكثيف لايدرك اللطيف . ولهذا ترى الجسم لايمكنه أن يدرك العقل لشدة لطافة العقل بالنسبة اليه . وأما العقل فيدرك الجسم . وقد قسم الله الى لطيف وكثيف . وحجب الاول عن الثاني . ولم يحجب الثاني عن الاول »(٣٣) .

النابلسي

فيذوب هذا الرجل القطب جارحة وحجة ، حول عميق المعاني ، قلائدها ومكنوناتها ، مقتصا من جميع المصنفات واغترابها لطفاً واعتدالا . فنراه يقف بين أراء السلف والخلف ، مواقف المعتزلة والأشعرية ، القدرية والجبرية ، علوم الطريقة الشريفة والحقيقة ، موقفاً حازما واثقا ثابتا انما فيه كثير من الحكمة والتسبيح.

فنجده آخذا نفحات اولياء الكلمة كابن العربي(٣٤) وابن الفارض والبيضاوي والبركلي وارسلان والاشعري والماتردي وغيرهم الى صدره ، قاسما بطريقة مميزة العلوم الى قول فهم وشهود ، سائرا بالتسليم نحو التأويل وفي آن معا بالتأويل نحو التسليم، صارفا اللفظ الى أكثر من معنى والإحتمال الى أكثر من احتمال . كصفة اليد والايدي والقدرة والارادة والسخرية والفرح والضحك وما اليه من صفات أزلية ومستوفاة لله ، مسلما ان وجود العبد اولا وآخرا وجود في ذاته وهو بالنسبة الى وجود الرب عدم محض ، لايمكن ان يختلط أحدهما بالآخر ، كما الليل موجود في نفسه ، وهو بالنسبة الى وجود النهار معدوم ...(٣٥) .

هابطا الى اللحظة المحرقة بين اللب وهدب العين التي هي العدمية وفي الآن ذاته هي الحياة .

محاورا محاورا دون كلل :

« ان سَبْق الكلمة بالسعادة هي المركز . والمركز تردد وحشي » في طلب الآيات تظير مقام الادلال في القرب المحمود . والشيئان (مبتدأ) في الحس (خبر) في المعنى. والحس هو الساتر للاتحاد. والستر مستور فكيف يستر »(٣٦) .

موجها مع الزمن ، هذا الاحتراق الكامل والرؤى ، من الابهام المحض الى التبسيط ، محولا العجز الشرعي وتفكك المنازلات الى العمل الجماعي الهادف في صيرورة خلايا الذكر والتواجد المنظم المشترك ، باعثا من الظلمة والخوف والحيرة هالات من البراءة الضمنية والطهارة وانهرا من الحنان والعطاء ، باعثا في كل لحن ينشد له ، فضيلة صوفية، تجد صدى لجوارحها ، في ذلك العشق الالهي الباعث الى الطمأنينة ، والفرح والحياة .

والى الغد ، والى مابعد الغد ، سنظل نراه في حضرة تلاميذه ، ضاربا بالدف ، ضابطا الايقاع . سيدا ، منشدا ، متنعما ،

« ياساقي الله الساقي اسقينا من خمر الباقي
يا ساقي
محبوبي ظاهر يتجلى بالوجه الباهر للعشاق
في حكمة قاهر
يا ساقي يا ساقي

اكشف لي عنك في ذاتي   وافتح لي دنك
واجعلني ياحبي انك
يا ساقي ... »

محطما بصوته الحنون تماثيل التحجر والجمود في عيون جميع الذين يذكرون الله قياما وقعودا وبالرفع وبالانغام والترديد .

اولئك الذين ينادون إيل ، وينادون لاها ، ويذكرون بالحلق حي ، ويسكرون بالحرف الواحد كقولهم كاف اوهاء او ياي[٣٦] ويتجاذبون ، ويتحاضنون ، ويتماسكون بالايدي، ويزرعون الاقدام في الارض ، ويقولون هو ، ويقولون ها ، ويقولون هي ، ويفردون الاجنحة ويطيرون .

المراجع :

(١) « الفتح الرباني والفيض الرحماني » للنابلسي . نشره وعلق عليه الاب انطونيوس . المطبعة الكاثوليكية بيروت . ص ٦٨ .

(٢) « ديوان الحقائق ومجموع الرقائق » للنابلسي المطبعة الشرفيه في مصر . خان ابي طاقية سنة ١٣٠٦ هـ . ص ٨ .

(٣) « مسلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر » لأبي فضل محمد خليل المرادي طبعة مصر سنة ١٣٠١ هـ . صفحة ٣٠ ــ ٣٨ .

(٤) « التحفة النابلسية في الرحلة الطرابلسية » للنابلسي . حققه وقدم له هربرت بوسه المعهد الالماني للابحاث الشرقية في بيروت ١٩٧١ (المقدمة).

(٥) « الفتح الرباني ... » ص ١٠٨ .

(٦) « ديوان الحقائق ... » ص ١٠ .

(٧) « الفتح الرباني ... » ص ٢٥ .

(٨) المصدر نفسه ص ٢٨ .

(٩) المصدر نفسه ص ٢٨ .

(١٠) المصدر نفسه ص ٢٩

(١١) « ديوان الحقائق ... » ص ١٥٦ .

(١٢) المصدر نفسه ص ١٥٤ .

(١٣) المصدر نفسه ص ١٥٣ .

(١٤) المصدر نفسه ص ١٥٥ .

(١٥) « التحفة النابلسية في الرحلة الطرابلسية» ص٦٩

(١٦) المصدر نفسه ص ٧١ .

(١٧) المصدر نفسه ص ٢٧ .

(١٨) المصدر نفسه ص ٢٧ .

(١٩) المصدر نفسه ص ٦٢ .

(٢٠) المصدر نفسه ص ٤١ ــ ٤٤ .

(٢١) المصدر نفسه المقدمة .

(٢٢) « الحضرة الانسية في الرحلة القدسية » للنابلسي وقف على طبعها ديمتري افندي نقولا . جريدة الاخلاص سنة ١٩٠٢ (المقدمة) .

(٢٣) « الفتح الرباني والفيض الرحماني » ص ١٠٩ .

(٢٤) « شرح جواهر النصوص في حل كلمات النصوص» للنابلسي على كتاب نصوص الحكم لابن عربي . مطبعة الزمان . امام سراي منصور سنة ١٣٠٤هـ

(٢٥) « الفتح الرباني ... » ص ١٠٧ .

(٢٦) المصدر نفسه ص ٦١ .

(٢٧) « الالهامات الالهية على الوظيفة الشاذلية اليشرطية » تأليف محمود ابو الشامات . مطبعة بيروت سنة ١٩٦٠ . ص ٦٢ .

□ □

احتفال اسبوع العلم التاسع عشر بالقرن الهجري الجديد

د٠ دلال السلطي

ضمن الاحتفال بالقرن الخامس عشر الهجري أقيم اسبوع العلم التاسع عشر، وهكذا كانت الاهمية التي حملها اسبوع العلم هذا العام، أهمية مزدوجة: الجانب الاول: هو تقديم المكتشفات العالمية الجديدة من خلال محاضرات السادة الاساتذة وتثبيت هذه المكتشفات الهامة ٠ والجانب الثاني : هو ما حمله الاسبوع في طياته وخاصة محاضرات تاريخ العلوم وما تحويه من الاشارة الى مرور أربعة عشر قرنا على هجرة الرسول العربي ٠٠ ولهذا فقد جاء اسبوع العلم التاسع عشر المنعقد بدمشق في العاشر من شهر تشرين الثاني حافلا بالموضوعات العلمية والتاريخية العالمية لمكتشفات رائعة ٠ وشمل الاسبوع ندوات صباحية وأخرى مسائية مخصصة للبحث في المواضيع التالية :

١ ـ « البحث العلمي عند العرب » للدكتور عزة مريدن الاستاذ السابق في كلية الطب بجامعة دمشق ٠

٢ ـ « رسم البيكاريين ومعاني النجوم » للدكتور عفيف البهنسي المدير العام للآثار والمتاحف ٠

٣ ـ « فضل العرب في تقدم العلوم » للدكتور نشأت الحمارنة الاستاذ بكلية الطب بجامعة دمشق ٠

٤ ـ « نحو تأريخ جديد للرياضات عند العرب » للدكتور صلاح الاحمد الاستاذ في كلية العلوم بجامعة دمشق ٠

تلك كانت المحاضرات المسائية والتي انعقدت في قاعة المجلس التنفيذي لمحافظة مدينة دمشق والتي تتعلق بتاريخ العلوم ٠

أما المحاضرات الصباحية فقد انعقدت في مدرجات كلية الطب بجامعة دمشق ٠٠ كانت كما يلي :

١ ـ « علم السموم في الطب العربي » للدكتور محمد زهير البابا ـ كلية الصيدلة ـ جامعة دمشق ٠

٢ ـ «كتب ابن زهر الطبية» للدكتور ميشيل خوري ـ مجمع اللغة العربية ٠

٣ ـ « حول التعابير الفنية في الكحل في المصادر العربية » ـ الدكتورة لين الخير ـ كلية الطب ـ جامعة دمشق ٠

٤ ـ « حول الرمد في المصادر العربية » الدكتور عتيق استانبولي كلية الطب ـ جامعة دمشق ٠

٥ ـ « الصلات الطبية بين العرب والصين » الدكتور محمد التونجي ـ كلية الآداب ـ جامعة حلب ٠

٦ ـ « الحركة العلمية في دمشق عاصمة الامويين بين القرنين الاول والثاني الهجريين » للاستاذ صلاح الدين الخالدي ـ مدرس في ثانويات دمشق ٠

وقد كانت المحاضرات على نوعين : الاول : متخصص ٠

والثاني : عام ٠

ضمت المحاضرات المتخصصة :

١ ـ محاضرة الدكتور زهير البابا : وتركز بحث الدكتور زهير البابا حول مخطوط شانان في علم السموم وهو المخطوط الموجود في المكتبة الظاهرية بدمشق والذي يعتبر اساسا لتعرف العرب على علم السموم الهندي وقد ترجم المخطوط للعربية العباس بن سعيد الجوهري في زمن الخليفة المأمون ٠ وقد قدم الدكتور البابا لمحاضرته بمقدمة رائعة تتضمن تاريخا لعلم السموم واستعمالاته المختلفة وأنواعه وقال لقد طرأ تحول على علم السموم على يد الاطباء العرب والمسلمين حين تحول من اداة للانتقام والقتل الى وسيلة للشفاء وتخليص الناس من الالم ٠

٢ ـ وقدم فريق من الباحثين في كلية الطب (شعبة امراض العين) بحثين هامين ـ ألقت البحث الاول الدكتورة لين الخير حول التعابير الفنية في طب العين التي ابتكرها العرب في القرن التاسع كما استعرضت مراحل التطور في التعبير العلمي الفني ، وقد استفادت الدكتورة الخير من التعابير الطبية العربية القديمة التي يمكن ان يعتمد عليها الآن في التأليف والتعبير الطبي ٠

أما الدكتور عتيق استانبولي فقد ألقى البحث الثاني واستعرض فيه التغيير الكبير الذي أحدثه المؤلفون العرب في طريقة تناول موضوعاتهم وتضيف الامراض في مؤلفاتهم والتي كانت تهدف للتدريس أو التأليف الموسوعي ٠ وقد بين الدكتور استانبولي ان تصنيف أمراض العين المعتمد حاليا ، انما يعود الفضل فيه الى الطبيب العربي علي بن عيسى الكحال البغدادي الذي عاش في نهاية القرن الرابع الهجري ثم قدم الباحث اقتراحا حول اعادة تسمية بعض المصطلحات الحالية بتسميتها القديمة ٠

● هذا عن المحاضرات الصباحية المتخصصة أما المسائية ـ فقد القى الدكتور عفيف البهنسي محاضرة استعرض فيها تاريخ الزخرفة بالنجوم

عند العرب « والتي نأمل نشرها بالرسوم الايضاحية قريبا » .

أما المحاضرة المسائية الثانية فقد كانت للاستاذ الدكتور صلاح الاحمد بعنوان (نحو تأريخ جديد للرياضيات عند العرب) وهي من أهم المحاضرات التي عرفها اسبوع العلم حيث وضح فيها اكثر اكتشافات العرب أهمية وتركز حديثة في المسائل التي تتعلق بقانون نيوتن - ومثلث باسكال والهندسة التحليلية وغيرها .. وقد حرص المحاضر على تقديم الحقائق العلمية بحياد تاريخي وأكد سبقية العلماء العرب في هذه الاكتشافات اعتمادا على الوثائق التاريخية والمخطوطات المكتشفة حديثا . والتي قام بتحقيقها وتحليلها عدد من الباحثين العرب المعاصرين .

وكشف الدكتور صلاح الاحمد حقائق مثيرة وهامة في علم الرياضيات . وأكد على أهمية التناول التاريخي الامين للاسبقية في هذا المجال ومن أطرف ما قاله في هذا الموضوع : ان مؤلفي الرياضيات العرب في العصور الوسطى لم يكونوا ينسبون هذه الفتوح العلمية الا الى أول من عرفت عنه دون ان يؤكدوا على انه صاحب الابتكار ، في حين نجد ان بعض مؤرخي العلوم ينسبون تلك الاكتشافات لعلمائهم متجاوزين الامانة التاريخية لاسبقية الاكتشاف العلمي .

وقد أورد الاستاذ الدكتور صلاح الاحمد مجموعة من الحقائق على رأسها ان قانون نيوتن الذي يعود برهانه الى القرن السابع عشر قد استخدم في القرن العاشر من قبل العالم العربي محمد بن ابي بكر الكرخي وكذلك انشاء المثلث المعروف بمثلث باسكال الذي يعود أمر اكتشافه الى نفس العالم العربي محمد بن أبي بكر الكرخي وحول هذا الموضوع أشار الاستاذ صلاح الاحمد الى نقطة هامة الا وهي : ما دام اكتشاف هذا القانون يعود لعالم عربي وفي القرن العاشر أي بسبق زمني علمي قدره سبعة قرون فعلى أي اساس يسمى هذا الاكتشاف الى يومنا هذا باسم نيوتن - باسكال ؟ ولقد صدر عن وزارة التعليم العالي كتاب حول هذه المسألة وهو كتاب «الباهر في الجبر» للسموءل المغربي (الكتاب من تحقيق وتحليل الدكتور صلاح الاحمد والدكتور رشدي راشد) . كما أشار الى نقطة ثانية وهي أن الهندسة التحليلية والتي كانت من مفاخر ديكارت حيث اعتبر مبدعها وسيدها ، لم تكن ايضا كذلك ، فقد كان اول من تكلم بها هو العالم العربي شرف الدين الطوسي في كتابه (المعادلات) واستدل ببراهين مقنعة وعلمية . ثم ذكر ان هذه الرياضيات والتي اعتبرت من مكتشفات القرنين السابع عشر - التاسع عشر ، انما كانت موضوعا يدرس للمبتدئين العرب في القرن العاشر الميلادي .

هذا عن المحاضرات المتخصصة اما عن المحاضرات العامة والتي تهم جمهرة المثقفين فمنها محاضرة الاستاذ الدكتور ميشيل خوري وهي محاضرة استعرض فيها كتب ابن زهر الطبية - والتي تعتبر من أهم ما كتبه العرب . ويقوم الدكتور حاليا بتحقيق كتاب (التيسير) لابن زهر وقد اصبح الكتاب جاهزا للطبع ، ولا شك ان نشر الكتاب يعتبر من أهم الاحداث الثقافية التي ستضيف الى المكتبة الطبية العربية ابعادا تاريخية وعلمية .

● بعد ذلك قدم الدكتور محمد التونجي محاضرة استعرض فيها مدى تأثير الاطباء العرب على تطور الطب الصيني واهم ما في هذا الامر ان الاستاذ المحاضر اثبت وجود هذه الصلة وهذا التأثير بنفسه وبجهوده الخاصة • كما أنه قدم ما يؤكد على آرائه حول هذه المسألة التي يعود تاريخها الى القرن العاشر الميلادي •

ثم أتت محاضرة الاستاذ صلاح الدين الخالدي لتدرس الوضع العلمي ومستوى تطور الطب والكيمياء في عاصمة الامويين قبل عصر الترجمة مبينا الاثر الكبير والتأثير الهام اللذين كانا لعرب الشام ابان الفتح الاسلامي وأشار الى مستوى التطور العلمي في دمشق ، قبيل الاسلام والذي يدل على ارتقاء مستوى العلوم وخاصة في الشام « الحضارات القديمة ابتداء بالبابليين وانتهاء بالسريان •• » •

● وحول موضوع البحث العلمي عند العرب قدم الدكتور عزة مريدن العميد السابق لكلية الطب بجامعة دمشق ، محاضرة كان لها صدى كبيرا حيث استعرض أهم منجزات العرب في شتى العلوم وبين فضلهم في تقدم الفكر والحضارة الانسانية - واعطى عشرات الامثلة • وعلى هذا فقد كانت محاضرة الدكتور عزة مريدن موضوعا للاستشهاد لبعض المحاضرات كما بين ارتقاء مستوى البحث العلمي عند العرب وتطور سوية المشافي عندهم كما بين دقة وأمانة حركة الترجمة عن اللغات القديمة ومدى التشجيع الرسمي الذي حازت عليه هذه الحركة •

● وقدم الدكتور نشأت الحمارنة محاضرة بعنوان « فضل العرب في تقدم العلوم » • وقال في بداية المحاضرة ان موضوعا كموضوع تاريخ العلوم مسألة في غاية الاهمية لان هذه المسألة تتداخل مع الامانة العلمية العزيزة على قلوب الباحثين • وهذه في أوليات وبديهيات اخلاقيات البحث العلمي حيث يجدر بالباحث ان يكون ملما بالفكر متفهما لامور بحثه بكل ما يتطلب البحث من موضوعية ودقة خصوصا وأن بحثا كالتراث يبين ما وصل اليه العرب من تقدم علمي وفضل في تقدم العلوم • ومن المؤسف ان الباحثين في هذا التراث هم قلة قليلة من أولئك الذين يحرصون على التراث ويقومون بجهود فردية محضة تبقى قاصرة أمام بحث كهذا ، الذي هو بحاجة الى جهود كبيرة تشارك فيها كافة المؤسسات الثقافية وأشار الى جهود بعض الاساتذة الذين يقومون الآن بترجمة الكتب الى العربية حيث ان هذه الكتب تبحث في تاريخ الطب وتراث العرب ككتاب لوكلير في الطب العربي وكذلك الموسوعة الاسلامية وهي ما زالت في طريق الاعداد •

واضح ان البحث في التراث العربي ما هو الا استكمال للشخصية القومية للعرب • ولاستكمال هذه الشخصية لا بد من فهم ومعرفة التراث العربي بكل ما يحوي من علوم كانت اساسا في تطور العلوم في العالم • وقد أشار الدكتور الى نقطة هامة جدا وهي البحث عن المخطوطات العربية الموجودة أو المتوفرة لدينا ثم دراستها بدقة وترتيبها وفهرستها والحصول على المخطوطات الكثيرة الموجودة في مكتبات

استانبول والمغرب وغيرها والتي ما زالت بعيدة عن الدراسة والبحث مما اتاح الفرصة للمتعصبين الاوربيين ان يحوروا الحقائق ونسبتها اليهم - وقد أكد الدكتور على ضرورة ايجاد المعاهد التي تعد الباحثين من أجل القيام بهذه المهمة ٠

وتحدث الدكتور الحمارنة عن أسباب رقي العلم عند العرب ومقوماته والعوامل التي ينبغي ان تتوفر لكي تنهض مرحلة علمية جديدة ، في أمة سجلت في التاريخ آثارها الحضارية ٠

● هذه هي أهم المواضيع التي ضمها اسبوع العلم التاسع عشر والتي تتعلق بتاريخ العلوم عند العرب ولسنا بصدد تكرار واعادة ما قدمه العرب وما ساهموا به في تقدم العلوم ابان العصور الوسطى حيث كان الغرب غارقا في جهله وانما نحن بصدد تسجيل بعض ما اكتشف حديثا من حقائق علمية عالمية نسبها المؤرخون الاوربيون عن غير حق لعلماء غير العرب ولحضارة غير الحضارة العربية ٠